الرواية الحائزة على جائزة نوبل في الأدب

وادي إيسا

تشيسلاف ميلوش

ترجمة: عبد الله عرفة

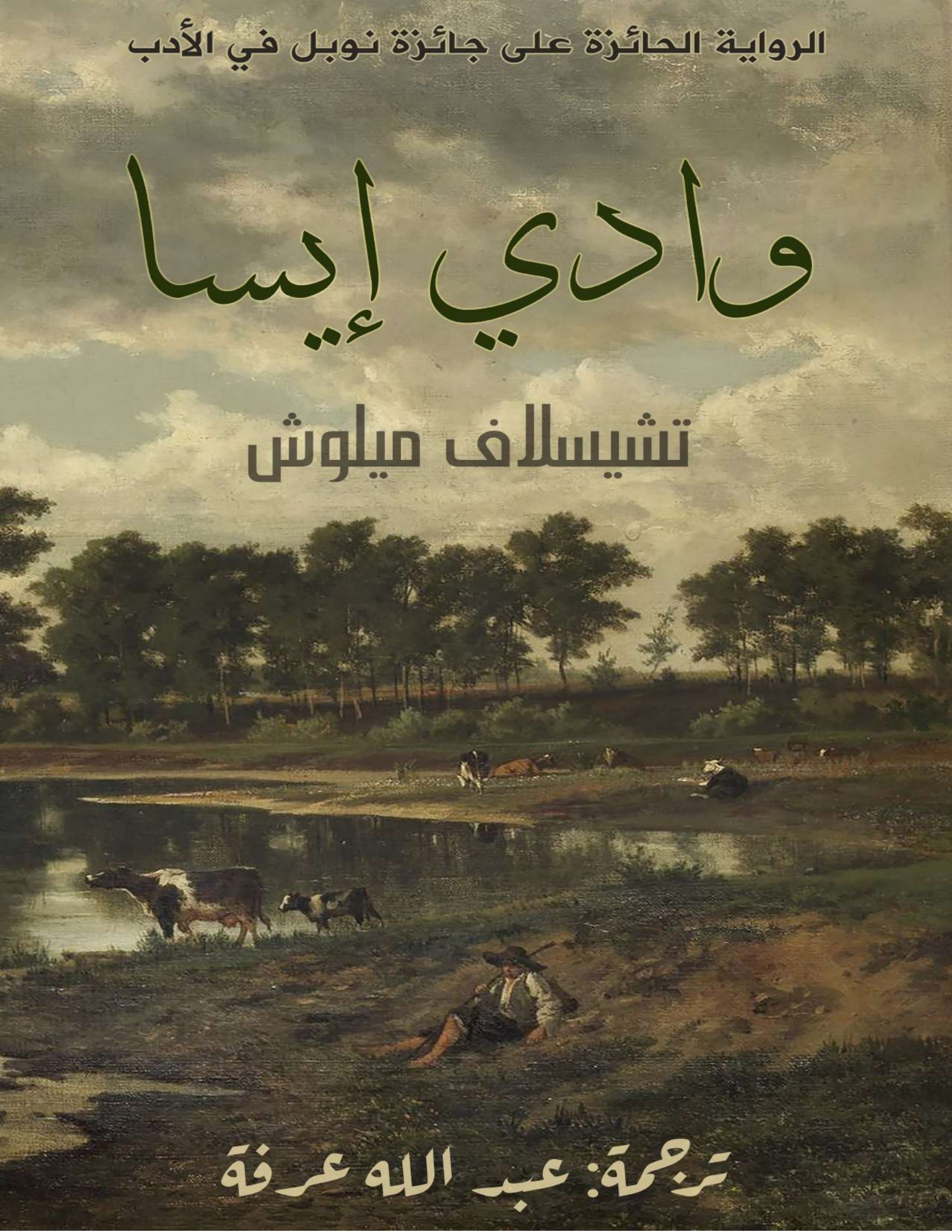

وادي إيسا

تشيسلاف ميلوش

ترجمة: عبد اللّه عرفة

إهداء

إلى صغيري الحالم الذي لم يعجبه الواقع فطاف به خياله العالم، وحل به في كل أزمان التاريخ. إليك، صغيري عبد اللَّه، أهدي هذا العمل!

1

أستهل حديثي بأرض البحيرات، الموطن الذي عاش فيه توماس. لقد غطّت الأنهار الجليدية هذا الجزء من أوروبا منذ فجر التاريخ، فحملت طبيعته الكثير من قسوة الشمال. تربتها رملية صخرية، لا تصلح إلا لزراعة البطاطس والشوفان والكتان. يفسر هذا العناية الفائقة التي أحيطت بها الغابات كي لا يمسّها سوء، فقد أسهمت في تلطيف المناخ ومنحت حماية من رياح البلطيق.

يغلب على الغابات أشجار الصنوبر والتنوب، وإن كانت أشجار البتولا والبلوط والزان الأبيض وفيرة أيضًا، لكن ليس الزان الذي تمتد حدود مملكته أبعد جنوبًا. هنا، يمكنك أن تتجول لساعات طوال دون أن يكلَّ بصرك، فلمستعمرات الأشجار –كما لمدن البشر- طبائعها المتميزة، مشكّلةً جزرًا ومناطق وأرخبيلات، تفصل بينها آثار عجلات العربات في الرمال، أو كوخ حارس غابة، أو معمل تقطير قديم بأفرانه المتداعية التي غزتها الأعشاب.

يمكنك أن تلمح، من أي تلة تقريبًا، صفحة بحيرة زرقاء تعلوها لطخة بيضاء بالكاد تدركها العين لطائر الغطاس، مع سرب من البط يحلق فوق القصب. وتزخر المستنقعات بكل أنواع الطيور المائية، وفي الربيع، يتردد صدى السماء الشاحبة بهفيف الشنقب، وهو صوتٌ يُحدثه الهواء في ريش ذيله وهو يؤدي حركاته البهلوانية الرتيبة، إيذانًا بالغرام.

في المروج، كان هفيف الشنقب الخافت، وقعقعة ديك الخلنج التي تشبه فقاقيع تتفجر عند الأفق، ونقيق الضفادع (الذي يرتبط عدده بطيور اللقلق التي تعشش على أسطح الأكواخ والحظائر) هي أصوات ذلك الفصل حين يفسح ذوبان الجليد المفاجئ الطريق لتفتح زهور الربيع والمازريون، وهي زهيرات وردية وأرجوانية دقيقة على شجيرات لم تكتسِ بعد بأوراقها.

إن الفصلين الأكثر ملاءمة لهذه الأرض هما الربيع والخريف——خريفٌ طويلٌ مشمس، يَعْبق برائحة الكتان المبلل بالمطر، وقَعْقَعة المخابِط، والأصداء البعيدة. إنه الزمن الذي تُبدي فيه الإوزات علامات التململ، فتقفز في خفة مرتبكة لتلحق بأقربائهاً البرية التي تناديها من الأعالي. وحين يعود أحدهم إلى الدار بِلَقْلَقٍ مكسورِ الجناح: مخلوقٌ نجا من الموت نقراً، ذلك القصاص الذي يوقعه حراس القانون على من لا يصلحون للرحلة إلى النيل؛ وحين كان الخبر ينتشر بأن ذئباً قد خطف خنزيراً رضيعاً لأحدهم؛ كانت الغابة تسمع موسيقى كلاب الصيد، صوتٌ حادٌّ دائماً، وآخر جهير، وثالثٌ متوسط

الحدة، تتعالى وهي تطارد الطرائد البرية، وتدل نبرة نباحها على ما إذا كانت تقتفي أثر أرنب بري أم ظبي.

إن عالم الحيوان في هذه المنطقة مزيجٌ غير شماليٍّ بالكامل. فطائر الترمجان ليس نادرًا، وكذلك الحجل. وفي الشتاء، تكتسي السناجب معطفاً رمادياً قد يتفاوت لونه من الأحمر إلى الرمادي الصافي. وهناك نوعان من الأرانب البرية: الأول، وهو النوع الشائع، لا يتغير شكله صيفاً وشتاءً، والثاني الأرنب الأبيض، يغير لونه ويصبح من العسير تمييزه عن الثلج. لقد أثار وجود هذين النوعين جنباً إلى جنب تأمل الخبراء. ويزيد الأمر تعقيداً، كما يشهد أي صياد، أن للأرنب الشائع سلالتين——أرنب الغابة وأرنب الحقل، وهذه الأخيرة تتزاوج أحياناً مع الأرنب الأبيض.

حتى وقت قريب، كان كل ما يحتاجه المرء يُصنَع في المنزل. كانت ثيابه من نسيج خشن منسوجٍ محلياً، تنشره النساء على العشب وتُبيّضُه في الشمس. وفي أواخر الخريف، خلال ذلك الوقت من اليوم المخصص للقصص والأغاني، كانت الأصابع تحوّل خصلات الصوف إلى خيوط على إيقاع دقات دواسات المغزل. وبهذه الخيوط، كانت ربات البيوت ينسجن الفساتين على أنوال منزلية، ويحرصن بحذر على أسرار نقوشهن: هذه بنقشة عظم السمكة، وتلك بنقشة التويل؛ هذا اللون للسَّدى، وذاك للُّحمة. أما الملاعق، والأحواض، وأدوات المطبخ فقد كانت تُنحت يدوياً، وكذلك القباقيب. وكانت الأخفاف المصنوعة من لحاء الزيزفون ينتعلها العامة. ولم تبدأ ضروريات حياة القرويين في التغير إلا بعد الحرب العالمية الأولى، حين ظهرت تعاونيات الألبان وأسواق اللحوم والحبوب.

الأكواخ من خشب، وسقوفها من ألواح خشبية لا من القش. وتُستخدم الروافع، التي تتألف من عارضة مثبتة على عمود متشعب ومثقلة بحجر في أحد طرفيها، لسحب مياه البئر. أما حديقة الزهور الصغيرة عند مدخل المنزل فهي فخر المرأة وبهجتها. هنا، تعتني النساء بأزهار الداليا والختمية، وهي نبتة تزدهر على طول الجدار، لا تلك التي تزين الأرض فقط فلا تُرى من خلف السياج.

حان الوقت للانتقال من المشهد العام إلى الوادي نفسه، الذي يمثل في نواحٍ كثيرة شذوذاً في أرض البحيرات. نهر "إيسا" عميق أسود، تياره كسول، تحيط به القصب بكثافة. نهرٌ يكاد سطحه لا يرى في بعض الأماكن تحت أوراق زنابق الماء، ينساب متعرجاً عبر المروج وبين منحدرات لطيفة تشتهر بخصوبتها. لقد حُبي الوادي بوفرة من التربة السوداء وبخضرة بساتينه، وربما ببعده عن العالم، وهو أمر لم يبدُ قط أنه يزعج سكانه. القرى في هذه الأنحاء أكثر ازدهارًا من غيرها، وتقع إما على

طول الطريق الرئيسي الوحيد الذي يحاذي النهر، أو في أعاليه على مصاطب. وفي الليل، تتبادل الأضواء عبر نوافذها في مساحة يتردد فيها صدى كل طرقة مطرقة، ونباح كلب، وصوت بشري، كأنها غرفة صدى. ولعل هذا يفسر شهرة الوادي بأغانيه العريقة، وهي أغانٍ لا تُؤدى أبداً بشكل جماعي بل تُقسم إلى أجزاء، إذ تحاول كل قرية دائماً التفوق على جارتها بنهاية أكثر عذوبة وتدرجاً للمقطع الغنائي. وقد لاحظ جامعو الفولكلور تنوعاً في الزخارف على طول نهر إيسا يعود إلى العصور الوثنية، كقصة القمر (الذي هو في لغتنا مذكر الجنس) ينهض من فراش عرسه، لينام مع زوجته، الشمس.

2

يمتاز وادي إيسا بأنه مأهول بعدد كبير غير معتاد من الشياطين. قد تكون أشجار الصفصاف المجوفة، والطواحين، والأحراش التي تحف ضفاف النهر توفر غطاءً مناسباً لتلك المخلوقات التي لا تكشف عن نفسها إلا عندما يحلو لها. ويقول من رأوها إن الشيطان قصير القامة، بحجم طفل في التاسعة من عمره، يرتدي معطفاً أخضر، وياقة مزركشة، وشعره معقوص في ضفيرة، وجوارب بيضاء، ويحاول إخفاء حوافره، التي هي مصدر إحراج له، بحذاء ذي كعب عالٍ.

يجب التعامل مع مثل هذه الحكايات بشيء من الحذر. فمن الممكن أن الشياطين، لعلمها بالرهبة الخرافية التي يكنها الناس للألمان -لكونهم أهل تجارة واختراعات وعلوم- تسعى إلى إضفاء هالة من الجدية على نفسها بارتداء زي على طريقة إيمانويل كانط من كونيغسبيرغ. وليس من قبيل الصدفة أن اسمًا آخر للروح الشريرة على طول نهر إيسا هو "الألماني الصغير"، مما يعني أن الشيطان يقف في صف التقدم. ومع ذلك، من الصعب تصديق أنهم كانوا يرتدون مثل هذا الزي في حياتهم اليومية. فإذا كانت إحدى هواياتهم المفضلة هي الرقص في سقائف ضرب الكتان الفارغة بالقرب من مباني المزرعة، فكيف يمكنهم إثارة سحب من غبار الحبوب دون إيلاء الاعتبار الواجب لمظهرهم؟ ولماذا، إذا كانوا يتمتعون بخلود معين، يميلون إلى اختيار زي من القرن الثامن عشر؟

لا يمكن التنبؤ بمن قد ينتحلون شخصيته. فتاةٌ توقد شمعتين في عشية عيد القديس أندرو، تحدق في المرآة، فينكشف لها مستقبلها: وجه الرجل الذي سترتبط به حياتها، أو وجه الموت. أهو الشيطان متخفياً، أم أنه عمل قوى سحرية أخرى؟ وكيف للمرء أن يميز بينها، تلك المخلوقات التي تزامنت مع

مجيء المسيحية وتلك التي هي من سكان الأيام الغابرة الأصليين، مثل ساحرة الغابة التي تبدل الأطفال في مهودهم، أو الأقزام الذين يضلون طريقهم ليلاً من قصورهم تحت جذور شجيرات البلسان؟ هل الشياطين وتلك المخلوقات الأخرى مرتبطة بعهد، أم أنها تتعايش ببساطة جنباً إلى جنب كطائر القيق، والعصفور، والغراب؟ وأين هو ذلك العالم الذي تلجأ إليه كلتا الفصيلتين عندما تُحرث الأرض بآثار الدبابات، وعندما يحفر أولئك الذين على وشك الإعدام قبورهم الضحلة بجوار النهر، وعندما تنهض الصناعة، وسط الدماء والدموع، محاطة بهالة التاريخ؟

يمكن للمرء بسهولة أن يتخيل جلسة برلمانية تُعقد في كهوف عميقة داخل الأرض، عميقة لدرجة أن نيران مركز الأرض المنصهر تدفئها. يحضر الجلسة مئات الآلاف من الشياطين الصغيرة في معاطف الفراك، يستمعون بوقار إلى متحدثين يمثلون اللجنة المركزية للجحيم. يعلن المتحدثون أنه، من أجل مصلحة القضية، يجب أن يتوقف كل الرقص في الغابات والمروج، وأنه من الآن فصاعداً، سيتعين على متخصصين مؤهلين تأهيلاً عالياً أن يعملوا بطريقة لا يشك فيها عقول البشر بوجودهم أبداً. هناك تصفيق ولكنه متوتر، فالحاضرون يدركون أنهم كانوا ضروريين فقط خلال المرحلة التحضيرية، وأن التقدم قد حكم عليهم بالنزول إلى هوات قاتمة، وأنهم لن يشهدوا مرة أخرى غروب الشمس، أو طيران الرفراف، أو بريق النجوم، وكل عجائب الأرض الأخرى التي لا يمكن حصرها.

كان الفلاحون على طول نهر إيسا يضعون، عند مدخل أكواخهم، وعاءً من الحليب لثعابين الماء التي لم تكن تخشى البشر. ومع مرور الوقت، أصبح السكان كاثوليك متحمسين، وذكّرهم وجود الشياطين بالصراع الدائر من أجل السيطرة على الروح البشرية. فماذا سيصبحون غدًا؟ عند سرد مثل هذه القصة، لا يعرف المرء أبدًا ما إذا كان عليه استخدام صيغة الماضي أم الحاضر، كما لو أن ما مضى لم يمضِ حقًا طالما أنه باقٍ في ذاكرة الأجيال، أو في ذاكرة مؤرخ واحد، على الأقل. أم أن الشياطين كانت تنجذب إلى نهر إيسا بسبب مياهه؟ يُقال إن له خصائص تؤثر على شخصيات أولئك الذين يولدون على ضفافه، فيميلون إلى أن يكونوا غريبي الأطوار، بعيدين كل البعد عن السلام مع أنفسهم، وعيونهم الزرقاء، وشعرهم الأشقر، وبنيتهم القوية التي تمنحهم مظهرًا من الصحة النوردية.

وُلد توماس في قرية "غينه" في ذلك الوقت من العام الذي تسقط فيه تفاحة ناضجة على الأرض خلال هدوء فترة ما بعد الظهر، وحين تقف أحواض الجعة المخمرة حديثًا في الردهة بعد حصاد الخريف. لم تكن "غينه" أكثر من مجرد تلة، كثيفة بأشجار البلوط. إن بناء كنيسة خشبية هناك يكشف عن عداء تجاه الممارسات الدينية القديمة، أو ربما يشهد على رغبة في انتقال سلمي، فقد كانت الطقوس تُقام هنا ذات يوم تكريمًا لإله الرعد والبرق. كانت الكنيسة مدعومة بجدار حجري في الخلف، ومن الساحة الخضراء أمامها، كان يمكن للمرء رؤية منعطفات النهر، ومركب ينقل عربة، يتحرك على طول كابل يسحبه يد الملاح بإيقاع ثابت (لم يكن هناك جسر في هذه النقطة من النهر). وعلى جانب واحد، كان يقع بيت القسيس، بسقفه الرمادي من الألواح الخشبية الذي يذكرنا بسفينة نوح. بعد صعود بضع درجات والضغط على مزلاج الباب، يعبر الزائر أرضية من البلاط البالي المرصوف بنمط عظم السمكة، بينما كان الضوء يسقط من الأعلى عبر زجاج أحمر وأخضر وأصفر، يملأ الأطفال بالرهبة.

على منحدر، وسط مجموعة من أشجار البلوط، كانت المقبرة حيث يرقد أسلاف توماس من جهة الأم في مربع مسيّج بسلاسل، تربطها أربعة أعمدة حجرية. تحد المقبرة من جانب واحد عدة تلال، حيث كانت السحالي في الصيف تتنقل بين الزعتر البري. كانت هذه تسمى أسوار السويديين، وقد بناها إما السويديون، الذين رحلوا إلى هنا من وراء البحر، أو خصومهم في المعركة. بين الحين والآخر، كانت بقايا الدروع تُكتشف بين الأنقاض.

بعد الأسوار، كانت أشجار الحديقة، يحدها طريق شديد الانحدار غالبًا ما يتحول إلى مجرى نهر بسبب ذوبان الجليد. على جانب الطريق، كانت أذرع صليب تبرز من مجموعة غريبة من شجيرات الزعرور. للوصول إلى الصليب، كان عليك أن تتسلق عبر الأعشاب الضارة وفوق أنقاض الدرج قبل أن تصل إلى حفرة نبع مستديرة، حيث قد يحدق ضفدع بعينين جاحظتين من أسفل الحافة، وحيث، بالركوع ودفع عدس الماء جانبًا، يمكنك أن تستمتع بالنظر إلى الدوامة في الأسفل. وبإطالة عنقك، كنت تشاهد تمثالاً خشبيًا للمسيح تغطيه الطحالب، وإحدى ذراعيه تمسك بركبته، والأخرى تسند ذقنه في وضع من الحزن، جالسًا في ما يشبه الضريح.

ممر يتفرع من الطريق يؤدي إلى المنزل. كثيف بأشجار الزيزفون، كان أشبه بنفق، ينحدر وصولاً إلى البركة بالقرب من صومعة الغلال. كانت تسمى البركة السوداء لأن الشمس لم تشرق عليها قط. كان مكانًا مخيفًا في الليل؛ وقد شوهد الخنزير الأسود هناك أكثر من مرة، يخور ويدوس بحوافره على الممرات، ولا يختفي إلا بعد أن يرسم أحدهم علامة الصليب عليه. عبر البركة، يصعد الممر مرة أخرى، وينفتح على مرج أخضر لامع. كان المنزل أبيض اللون ومنخفضًا جدًا على الأرض لدرجة أن السقف، بألواحه الخشبية التي تتخللها هنا وهناك خصل من العشب والطحلب، بدا وكأنه يسحقه بثقله. كانت كرمة العنب البري، التي تجعل ثمارها لسانك يتجعد، تلتف حول النوافذ والعمودين الصغيرين للشرفة. وقد أُلحق بالبناية جناح خلفي كانوا يتخذونه مسكناً للشتاء، إذ كان الجزء الأمامي من المنزل قد بدأ يتآكل ويهبط بفعل الرطوبة التي تتسرب من تحت الأساسات. انقسم الجناح إلى عدد من الغرف التي آوت دواليب الغزل، والأنوال، ومكابس الكي.

كان مهد توماس يقبع في الجزء القديم من المنزل، مواجهاً الحديقة، ولعل أغاريد الطيور كانت أول الأصوات التي صافحت سمعه. وحينما شبّ عن الطوق، قضى جل وقته يستكشف أرجاء المنزل. وفي غرفة الطعام، كان يتملكُه التردد كلما همّ بالاقتراب من الأريكة المكسوة بالمشمع، لا بسبب صورة الرجل المتشح بالدروع ذي الزخارف الأرجوانية ونظرته الصارمة بقدر ما كان يرهب الوجهين الخزفيين الملتويين بشكل مروع فوق المدفأة. لم يجرؤ قط على دخول ذلك الجزء من المنزل الذي كانوا يسمونه "الصالون"، وحتى عندما صار فتى يافعاً، كان الشعور بالانقباض يساوره فيه. كان "الصالون" الواقع قبالة الردهة فارغاً على الدوام، تصدر أرضيته الخشبية وأثاثه صريراً حتى في سكون الليل، وبدا على نحو ما أن الغرفة تنضح دوماً بوجود إنساني خفي.

غير أن حجرة المؤن كانت أحب الأماكن إلى قلبه، وإن كانت زياراته لها نادرة. كانت يد جدته تدير المفتاح في باب مطلي بلون أحمر فاقع، لتُطلق في إثرها دفقَة من الروائح: عبق النقانق المدخنة ولحوم الخنزير المعلقة من عوارض السقف، ممزوجة بروائح أخرى تنبعث من الأدراج الصغيرة المكدسة على طول الجدران. كانت جدته تسحب الأدراج أحياناً وتدعُه يشم محتوياتها، قائلة: "هذه قرفة، وهذه قهوة، وهذا قرنفل". وفي الأعلى، حيث لا تطال إلا أيدي الكبار، كانت تتلألأ قدور صغيرة ذهبية داكنة تثير الشهية، وهاونات، وآلة لطحن اللوز، ومصيدة فئران —— صندوق من الصفيح كبير بما يكفي ليتسلقه فأر عبر جسر صغير محفور بدرجات؛ وحين يبلغ قطعة اللحم، ينفتح باب خفي ليرميه

في الماء. كان لمخزن المؤن فتحة ذات قضبان، فكانت الغرفة باردة ومظللة على الدوام. كما كان توماس مولعاً بالغرفة المجاورة للمطبخ قبالة الممر، التي كانوا يسمونها "حجرة الألبان." حيث كانت الأجبان تُعتّق والزبدة تُخض. كان يحب المشاركة في عملية الخض، فيحرك العصا صعوداً وهبوطاً، ويصغي لحفيف اللبن الرائب عند الفتحة، وإن كان سرعان ما يملّ من الأمر، فقد كان يستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يتمكن المرء من رفع الغطاء ورؤية القطع الصفراء متشبثة بالصليب الصغير في نهاية العصا.

كان المنزل، وبستان الفاكهة في الخلف، والمُروج الصغيرة في الأمام، هي أولى اكتشافات توماس. وعلى المُروج، كانت ثلاث من نباتات الصبّار، واحدة كبيرة في المنتصف تحيط بها اثنتان أصغر حجماً، تنبثق من أحواضها التي حملت عِصيّها آثار أطواق صدئة من الأعلى والأسفل. وبدت نباتات الصبّار وكأنها تندمج مع قمم أشجار التنوب في أسفل الحديقة، وفيما بينها كان يلوح العالم. ولكونه صبياً صغيراً، لم يكن يُسمح له بالركض إلى النهر والقرية إلا بصحبة أنتونينا، وهي تحمل حوضاً خشبياً مسنوداً إلى وركها، وفوقه مِضرَبة غسيل ـــ أو كما يمكن أن تسمى أيضاً "كيانكا" ـــ في طريقها للقيام بالغسيل.

4

انتمى أسلاف توماس إلى طبقة النبلاء مُلاّك الأراضي. أما كيف أصبحوا من الأعيان، فتلك قصة طواها النسيان. لقد ارتدوا الخوذات وحملوا السيوف، وأرغم فلاحوهم المحليون على العمل في حقولهم. كانت ثروتهم تُقاس بعدد "الأرواح"، أو الأقنان، الذين يملكونهم أكثر من مساحة ممتلكاتهم. في الماضي، كانت القرى تقدم الجزية عيناً؛ ثم اكتُشف لاحقاً أن الحبوب التي تُحمّل على المراكب وتُشحن عبر نهر نيمين إلى البحر يمكن أن تدر أرباحاً طائلة وأن زراعة الأرض أمر مجدٍ. وفي ذلك الوقت تقريباً، بدأ أولئك الذين يعيشون في العبودية يثورون ويذبحون أسيادهم. وقد قادهم الشيوخ الذين اشتركوا في كراهية كل من الأعيان والمسيحية، التي تزامن مجيئها مع فقدهم لحريتهم.

حين وُلد توماس، كان القصر قد بدأ بالفعل في الأفول. كل ما تبقى كان قطعة أرض متواضعة يحرثها ويزرعها ويحصدها بضع عائلات من عمال المزارع. كان الدفع يتم غالباً على شكل بطاطس وحبوب، وكان النصيب السنوي يُدوّن في الدفاتر تحت عنوان "أورديناريا". وإلى جانب العمال، كان هناك عدد قليل من الأجراء يُحتفظ بهم على "مائدة القصر."

لم يكن جد توماس، قاسمير سوركونت، يشبه أولئك الرجال القدامى الذين كان شغفهم تقييم الخيول والمجادلة حول مزايا هذا السلاح أو ذاك. قصير القامة، واتر الحركة بعض الشيء، قضى معظم وقته في كرسيه ذي الذراعين، يغفو وذقنه مسنود إلى صدره، وخصلات شعره الرمادية تنسدل على بقعة صلعته الوردية، ونظارته تتدلى في نهاية خيط حريري. كانت بشرته كبشرة الأطفال (وحده أنفه كان يتخذ لوناً أرجوانياً حين يبرد الطقس) وعيناه زرقاوين تشوبهما عروق حمراء. كان شديد التأثر بنزلات البرد ويفضل غرفته على الأماكن المفتوحة. لم يدخن ولم يشرب، ورغم أنه كان يُتوقع منه ارتداء أحذية تصل إلى الركبة وحتى المهاميز ليُظهر استعداده لامتطاء صهوة جواده، إلا أنه كان يفضل التجول بسروال طويل مترهل عند الركبتين وحذاء برباط. لم يحتفظ بكلاب صيد في العزبة، وكانت قطعان من كل السلالات، عاطلة عن المطاردة، تتجول في الحظيرة، تحك أجسادها وتنتف البراغيث. ولم تُحفظ أي أسلحة نارية. كان الجد سوركونت يقدّر قبل كل شيء سلامه وكتبه عن البستنة. كان يتعامل مع الناس كما يتعامل مع النباتات، ولم يكن يتأثر بسهولة بأهواء الآخرين. كان متفهماً، لكن سمعته كرجل "رقيق القلب أكثر من اللازم"، بالإضافة إلى كرهه للعب الورق والمجون، أبعدته عن أقرانه الذين، لعدم قدرتهم على لومه في شيء معين، كانوا يلفظون اسمه مع هزة من أكتافهم.

كانوا يُعاملون دوماً بلطف، بغض النظر عن رتبتهم أو مهنتهم. وفي حين كان من المعتاد أن يُعامل السيد النبيل بشكل مختلف عن اليهودي، واليهودي بشكل مختلف عن الفلاح، لم يعبأ الجد كثيراً بهذا العرف ـــ حتى عندما تعلق الأمر بالمرعب حاييم. كل بضعة أسابيع، كان حاييم يظهر في عربته، وفي يده سوط، مرتدياً قفطانه الأسود، وسرواله يتدلى فوق حذائه ولحيته تبرز كلوح محروق، ويدخل المنزل. يبدأ بالتفاوض على سعر الجاودار أو العجول، لكن هذا كان مجرد مقدمة، لأنه بعد ذلك، وهو ينتحب ويومئ، يبدأ في مطاردة أفراد الأسرة من غرفة إلى أخرى، شاداً شعره ومتنبئاً بالإفلاس إذا دفع ما طلبوه. كان الأمر كما لو أنه يعتبره تقصيراً في واجبه كتاجر جيد أن يغادر دون أن يقيم هذه الدرامات الصغيرة من اليأس. ولطالما أدهش توماس سرعة خمود نوبات الغضب هذه، وكيف بعد ذلك، وبما يشبه الابتسامة التي ترتسم على زوايا فمه، يجلس حاييم مع جده لدردشة ودية طيبة.

لم تكن طريقة سوركونت الوديعة تعني أنه كان مستعداً لتقديم تنازلات. كانت الخصومات القديمة بين قرية غينه والقصر شيئاً من الماضي، وكانت طبيعة الأرض على نحو لم تؤدِ إلى أي نزاعات. لم يكن الأمر كذلك مع بوجيراي، وهي قرية على الجانب الآخر، متاخمة للغابة، حيث كان القرويون يتشاجرون بلا نهاية حول حق الرعي. كانوا يجتمعون، يتجادلون، يستشيطون غضباً، وفي النهاية يعيّنون وفداً من الشيوخ. ولكن في اللحظة التي يجلسون فيها مع سوركونت إلى مائدة مزينة بالفودكا واللحوم الباردة، كانت كل حججهم التي أعدوها بعناية تتلاشى. كان الجد يمسح ظهر يده براحته، ويعرض قضيته ببطء وصدق؛ ومن الواضح أن ثقته بنفسه كانت تهدف فقط إلى إيجاد حل منصف. كانوا يتراجعون، يلينون موقفهم، يتنازلون، وفقط في طريق عودتهم يتذكرون كل ما لم يتفاوضوا عليه. متذمرين من كيف أنهم، مرة أخرى، قد سُحروا وأُحرجوا في عيون القرية بأكملها.

في شبابه، درس سوركونت في المدينة وقرأ أعمال أوغست كونت وجون ستيوارت ميل، الذين لم يسمع بهما أحد تقريباً على ضفاف إيسا. كان جده يحب أن يسترجع ذكرياته، لكن القصص التي علقت في ذاكرة توماس كانت تلك المتعلقة بالحفلات الرسمية التي يحضرها الرجال بمعاطف الفراك. كان الجد وصديق له يتشاركان نفس المعطف؛ بينما يرقص أحدهما، ينتظر الآخر في المنزل، ويتبادلان الأماكن بعد بضع ساعات.

كان له ابنتان. تزوجت هيلين من مالك أرض محلي؛ والأخرى، تيكلا، من رجل من المدينة. تيكلا، التي أصبحت فيما بعد والدة توماس، كانت تأتي إلى غينه لعدة أشهر في السنة، وذلك نادراً؛ معظم الوقت كان عليها أن ترافق زوجها في أسفاره، في البداية بحثاً عن عمل، ثم لاحقاً بسبب الحرب. بالنسبة لتوماس، كانت أجمل من أن تكون حقيقية، وكان يبتلع ريقه حباً كلما رآها. كان والده غريباً عنه عملياً، وكان محاطاً بالنساء باستمرار؛ أولاً بولا، في طفولته، ثم لاحقاً أنتونينا. كانت بولا ذات بشرة بيضاء، وشعر كتاني، وإحساس بالنعومة، وقد انتقل حبه لها لاحقاً إلى بلد يحمل اسماً مشابهاً. أما أنتونينا فكانت ذات بطن بارز، ترتدي مآزر مخططة، وتحمل دائماً حفنة من المفاتيح في حزامها. كانت ضحكتها أشبه بصهيل حصان، ولم يحمل قلبها ضغينة تجاه أحد. كانت تتحدث مزيجاً من اللغتين، فالليتوانية هي لغتها الأم والبولندية لغة مكتسبة.

كان توماس مغرماً جداً بجده. كانت له رائحة طيبة والشعيرات الرمادية فوق شفته تدغدغ خده. كان يعيش في غرفة صغيرة حيث عُلقت فوق سريره لوحة تُظهر أناساً مربوطين إلى أعمدة، ورجال

نصف عراة يضعون المشاعل على الأعمدة. كان أحد أول تمارين القراءة لتوماس هو قراءة النقش بصوت عالٍ، مقطعاً تلو الآخر: "مشاعل نيرون". وبهذه الطريقة تعرف على اسم ذلك الطاغية الشرير، الاسم الذي أطلقه لاحقاً على أحد الجراء حين قال الكبار، بعد فحص فم الجرو، إنه لا بد أن يكون شرساً لأن حنكه داكن. كبر نيرو ليُظهر ليس الشراسة بقدر ما أظهر المكر ـــ كان داهية بما يكفي ليأكل الخوخ الذي سقط من الشجرة؛ وعندما لا يجد شيئاً على الأرض، كان يستند إلى الجذع ويهزه بكفيه الأماميتين. على طاولة الجد كانت هناك كتب كثيرة، مزينة بصور الجذور والأوراق والزهور. أحياناً كان جده يأخذه إلى "الصالون" ويرفع غطاء البيانو الذي بلون الكستناء. كانت أصابعه، المنتفخة والمستدقة بعض الشيء، تقفز على لوحة المفاتيح بحركة أذهلت توماس ليس أقل من قطرات الصوت المتناثرة.

كان الجد يُرى كثيراً وهو يتشاور مع وكيله، شاتيبيلكو، الذي كان يرتدي لحية عنزة مفروقة، اعتاد أن يمسحها ويفرقها أثناء حديثه. رجل قزم، كان يتجول وركبتاه مثنيتان وساقاه تبرزان من أعلى حذائه الضخم. كان يدخن غليوناً ـــ ضخماً مقارنة بحجمه ـــ ذا ساق معقوفة وغطاء معدني مثقوب. مسكنه، الذي يقع في الطرف البعيد من نفس المبنى الذي يضم الإسطبل ومرآب العربات ومساكن الخدم، كان دائماً مظللاً باللون الأخضر بسبب نباتات الغرنوقي المزروعة في أصص وعلب صفيح. جدران الغرفة كانت مزينة بصور دينية، زينتها زوجته، بولينا، بأزهار ورقية. كان موبسي، كلبه الصغير، يتبع شاتيبيلكو أينما ذهب. إذا تأخر سيده في غرفة الجد، كان الكلب ينتظر في الخارج بقلق، لأنه كان من تلك الكلاب التي، محاطة بعالم من الناس والكلاب الأكبر حجماً، تحتاج دائماً إلى الحماية.

باستثناء حاييم أو المزارعين في شؤون عمل، كان الزوار نادرين، نادراً ما يأتون إلى القصر أكثر من مرة أو مرتين في السنة. لم يكن سيد المنزل يترقبهم ولم يكن ينزعج عندما يأتون، على الرغم من أن وصول أي شخص تقريباً كان كافياً لإثارة عبوس الجدة.

5

الجدة ميخالينا، أو ميسيا كما كانت تُدعى، لم تكن تدلل توماس قط ولم تكن تفيض عليه حناناً، ولكن يا لها من شخصية! كانت تصفق الأبواب، وتصب لعناتها على كل من تقع عليه عينها، غير

عابئة بما يظنه الآخرون. وخلال إحدى نوبات غضبها، كانت تميل إلى الاعتكاف في غرفتها لأيام متتالية. كان توماس يبتهج حين يظفر بها وحدها، كما لو أنه باغت سنجاباً أو دلقاً في الأحراش، فهي، مثلهما، تنتمي إلى فصيلة حيوانات الغابة. أنفها المستقيم السخي، الذي كاد يضيع خلف خديها المنتفخين، كان يحمل شبهاً بأنفيهما. عيناها بلون البندق، وشعرها الداكن الممشط بسلاسة —— مفعمة بالصحة والنقاء. في أواخر شهر مايو، كانت تطلق أولى حملاتها إلى النهر، وفي الصيف كانت تستحم عدة مرات يومياً، وفي الخريف كانت تكسر الجليد بقدمها. وفي الشتاء أيضاً، كانت تكرس الكثير من وقتها للاغتسال بكل أشكاله. لم تكن أقل اهتماماً بالمنزل، أو بالأحرى بذلك الجزء من المنزل الذي تعتبره مملكتها الخاصة. عدا ذلك، كانت امرأة قليلة الاحتياجات.

نادراً ما كان توماس يأكل على المائدة مع جديه، فجدته لم تكن من اللواتي يلتزمن بوجبات منتظمة، وهو أمر كانت تعتبره تقليداً سخيفاً. فإذا شعرت بالرغبة في الأكل، كانت تتسلل إلى المطبخ لتناول جرة من اللبن الرائب، أو وجبة خفيفة من الخيار المملح أو الملفوف المخلل (كانت لديها نقطة ضعف تجاه كل ما هو حامض أو مالح). كراهيتها لطقوس الصحون والأطباق —— كم هو ألطف أن تتسلل إلى زاوية وتلتهم شيئاً خلسة —— نبع من قناعة بأن وقتاً طويلاً يُهدر في المراسم، وليس أقل من ذلك، من البخل. كان الضيوف مصدر إزعاج دائم، إذ كان لا بد من إطعامهم وتسليتهم، حتى لو لم يشعر المرء بأي ميل لذلك.

لم ترتدِ الصدريات، أو الملابس الداخلية الصوفية، أو المشدات. في الشتاء، كانت هوايتها المفضلة هي الوقوف بجانب الموقد المبلط، رافعة تنورتها، وتدفئة مؤخرتها —— وهي وضعية تعني أنها مستعدة للدخول في محادثة. كان توماس معجباً جداً بمثل هذه الإيماءات التي تُنفذ في تحدٍ للأعراف المقبولة.

كانت نوبات غضب الجدة سطحية فقط؛ في داخلها، محمية بتباعدها، لا بد أنها كانت تستمتع بحياتها أيما استمتاع. كان توماس يشتبه في أنها مصنوعة من مادة متينة ما، وأن بداخلها آلة ذاتية التعبئة، غافلة تماماً عن العالم الخارجي. ويا لها من ذرائع كانت تخترعها لتتقوقع داخل نفسها.

شغفها المهيمن كان السحر، عالم الأرواح والآخرة. الكتب الوحيدة التي قرأتها على الإطلاق كانت حيوات القديسين، وإن لم تكن الرسالة الدينية بقدر ما كانت اللغة، وصوت تلك الجمل التقية الخاشعة لله هو ما سحرها. (لم تفكر قط في تعليم توماس الأخلاق). في الصباح، وهي تخرج من وكرها الذي تفوح منه دائماً رائحة الشمع والصابون، كانت تجلس هي وأنتونينا لتفسير أحلام

بعضهما البعض. وعند سماع خبر أن أحدهم قد زاره شيطان، أو أن منزلاً يُخشى أن يكون غير صالح للسكن بسبب تقارير عن سلاسل جلجلة وبراميل تتدحرج، كانت تتهلل أساريرها. أي إشارة من العالم الآخر ـــ دليل على أن الإنسان ليس وحيداً أبداً على هذه الأرض بل في صحبة دائمة ـــ كانت كافية لإشراق روحها. كانت تستشف الأدلة والنذر من مختلف القوى في أتفه الأحداث. ففقط من خلال المكر، من خلال اليقظة، يمكن أن تكون القوى نافعة. كان لدى الجدة فضول دائم تجاه تلك الكائنات التي تحوم حولنا، والتي نصطدم بها باستمرار دون علم، لدرجة أنها كانت تولي اهتماماً خاصاً للنساء اللواتي يُقال إنهن يمتلكن أسراراً وتعاويذ سحرية، حتى أنها كانت تطلق ألسنتهن بقطعة قماش أو نقانق.

لم تُظهر اهتماماً يذكر بالمزرعة، وإذا فعلت، فكان ذلك فقط لتتأكد من أن الجد، الذي كان يفضل السرقة على المخاطرة بمشهد، لا يُمرر الأشياء إلى المحظيين لديه خلسة. وبما أنها لم تكن مضطرة لخدمة أحد ـــ فنادراً ما كانت احتياجات الآخرين تخطر ببالها ـــ ومتحررة من أي شعور بالذنب فيما يتعلق بالواجبات العائلية، كانت تكتفي بالعيش ببساطة.

توماس، إذا كان محظوظاً بما يكفي لزيارتها في فراشها ـــ كان فراشها يقف في زاوية خلف ستارة، وبجانبه كرسي صلاة ذو مسند منحوت ووسادة من المخمل الأحمر ـــ كان يجلس عند قدميها، مستنداً إلى ركبتيها المثنيتين تحت الغطاء (لم تكن تطيق الأغطية المبطنة)؛ وإذا بدأت التجاعيد تتجمع حول عينيها وبدأت وجنتاها التفاحيتان ترتجفان أكثر من المعتاد، كان ذلك يعني أنها في مزاج لسرد قصص مضحكة. أحياناً، قد تتذمر من إحدى مقالبه، وتنعته بالوغد أو المهرج، لكنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد، عالماً بمدى حبها له.

في أيام الآحاد، كانت ترتدي للكنيسة بلوزات داكنة مزررة حتى العنق فوق ياقة مزركشة. كانت ترتدي سلسلة ذهبية صغيرة بحلقات بحجم رأس الدبوس، وتحتفظ بقلادة في جيب صغير على حزامها، تفتحها عند الطلب (كانت فارغة تماماً).

6

كانت قوى مختلفة تراقب توماس في الشمس والخضرة وتصدر أحكامها عليه، كلٌّ حسب اختصاصه. أولئك القادرون على الخروج من الزمن كانوا يهزون رؤوسهم الشفافة في فزع، إذ كانوا يتنبأون

بآثار حالة النشوة التي يعيشها. كانت هذه القوى على دراية بأعمال الملحنين الراغبين في التعبير عن السعادة؛ ولكن كان يكفي أن يجثم المرء بجانب سرير طفل يستيقظ في صباح صيفي على أغنية الصفارية خارج نافذته، وعلى جوقة من بط ونقيق ودجاج من الحظيرة، وعلى تيار مستمر من الأصوات المغتسلة بنور لا ينتهي، ليُقدّر عبثية مثل هذه المساعي الموسيقية. كان اللمس أيضاً نوعاً من النشوة ـــ ملمس قدمين عاريتين تجريان على ألواح ناعمة إلى برودة أرضية ممر مبلطة، وعلى حجارة دائرية في ممر الحديقة لا تزال ندية. ولنلاحظ أيضاً، أنه كان طفلاً وحيداً في مملكة يمكن تحويلها حسب الرغبة. الشياطين، التي تتقلص بسرعة وتختبئ تحت الأوراق عند سماع خطواته، كانت تقلد الدجاج إلى الأبد حين تمد أعناقها في رفرفة وتكشف عن نظرة بلهاء في عينيها.

في الربيع، كان العشب يغطى بزهور تعرف باسم "مفاتيح القديس بطرس"، أو زهور الربيع. كان توماس مولعاً بها، بذلك الانفجار المفاجئ من اللون الأصفر الفاقع على حقل أخضر، بالطريقة التي تتشبث بها بسيقانها العارية كأنها حفنة من المفاتيح، وفي كل منها حلقة حمراء صغيرة. كانت الأوراق السفلية مجعدة، لطيفة الملمس، شبيهة بالشمواه. بمجرد أن تتفتح زهور الفاوانيا، كانت أنتونينا تقطف باقة للكنيسة. أحب توماس أن يغمر نظره فيها، مشدوداً بكل جسده ليدخل قصرها الوردي اللون، حيث تتسلل الشمس عبر جدران بتلاتها وتتخبط حشرات صغيرة في حبوب اللقاح الصفراء ـــ ذات مرة، حين شم بقوة، دخلت حشرة في أنفه. عندما كانت أنتونينا تذهب لجلب اللحم من القبو في الحديقة، كان يتبعها، قافزاً على ساق واحدة، زاحفاً أسفل السلم، ويتذوق بأصابع قدميه لوح الجليد المأخوذ من نهر إيسا والمرشوش بالقش. حرٌ لافحٌ في الأعلى، وبرودةٌ منعشةٌ في الأسفل ـــ يا للعجب! وجد صعوبة في تصديق أن القبو لا يمتد إلى ما وراء الأساس الحجري المنقط بالرطوبة. والحلزونات. بعد هطول المطر، كانت تتنقل عبر الممرات المبتلة، من بقعة خضراء إلى أخرى، تاركة وراءها أثراً فضياً. وعندما تمسكها في يدك، كانت تتراجع إلى قواقعها، وتظهر من جديد في اللحظة التي تقول فيها: "حلزون، حلزون، ألقِ نظرة وسأشتري لك حلوى". مهما كانت المتعة التي يجدها الكبار في مثل هذه الهوايات، فقد كانت دائماً، كما يمكن للقوى أن تشهد بسهولة، مصحوبة بإحراج طفيف، ولم يكن من المرجح أن يُعثر عليهم وهم يتأملون الشريط الأبيض الصغير على قوقعة حلزون.

بالنسبة لتوماس، كان النهر عملاقاً ومليئاً دائماً بالأصداء: صوت "طاخ-طاخ-طاخ" مضارب الغسيل، يتردد صداه على الفور من قبل الآخرين، كما لو كان مُتفقاً عليه. أوركسترا كاملة، لا تفوت نغمة، والوافد الجديد يحرص دائماً على الانضمام في نفس الإيقاع. مختبئاً في الأحراش، كان توماس يتسلق شجرة صفصاف ويقضي الساعات يستمع ويحدق في الماء —— في عناكب الماء، وأرجلها محاطة ببرك صغيرة، وهي تنهمك في مطاردتها التي لا تنتهي؛ في الخنافس، تلك القطرات من المعدن الناعم لدرجة أن الماء لم يلتصق بها أبداً وهي ترقص في جولتها المستمرة، دائماً جولة. كشفت أشعة الشمس عن غابات كاملة في القاع، تجتازها أسراب من الأسماك التي تندفع في كل اتجاه، لتتجمع مرة أخرى بنقرة من الذيل، حركة متناثرة، ثم نقرة أخرى بين الحين والآخر، كان سمك أكبر يتجول من الأعماق إلى النور، فينبض قلب توماس بالإثارة. عند سماع صوت طرطشة في الأعماق، عند رؤية وميض وانتشار تموجات، كان يقف على أربع على مجثمه في الشجرة. نادراً ما كانت الزوارق المجوفة تُرى على النهر، تظهر وتختفي بسرعة لدرجة أنها تكاد تفلت من الملاحظة. كان الصياد، الذي يجدف بمجداف ذي نصلين، وخيط يجر خلفه، يجلس منخفضاً جداً لدرجة أنه يبدو وكأنه ينزلق على الماء.

توماس، الذي صنع أول قصبة له في سن مبكرة، كان صياداً صبوراً ولكن سيئ الحظ. حتى علمه أولاد أكيولونيس، يوزيوك وأونوتيه، كيف يربطون الخطاف. في البداية، كان يقوم بزيارات قصيرة فقط إلى كوخهم على أطراف القرية؛ ثم أصبحت هذه الزيارات روتينية لدرجة أنه إذا لم يكن في المنزل، لم يكن مكانه سراً أبداً. في فترة ما بعد الظهر، كان يُعطى ملعقة خشبية ويُطلب منه الجلوس على المائدة؛ وهناك كان يساعد نفسه في تناول "البوندوكي" والقشدة الحامضة من نفس الوعاء الذي يستخدمه بقية أفراد العائلة. كان أكيولونيس رجلاً مهيباً، ذا ظهر مستقيم لدرجة أذهلت توماس: لم يعرف قط أي شخص يمكنه أن يقف منتصباً هكذا. كانت ساقا سرواله المنسوج منزلياً حول ربلتيه مربوطتين بشرائط من اللحاء، ملفوفة حتى الركبتين. كان الصيد أحد شغفه؛ ولكن الأهم من ذلك كله —— أنه كان يمتلك زورقاً مجوفاً. خلف أشجار التفاح بالقرب من صومعة الغلال، كانت الأرض تنحدر إلى خليج صغير تفوح منه رائحة نبات الأعلام العطري، والذي شق الزورق المجوف ممراً له وحيث كان يرقد على الشاطئ. ولأنه كان ممنوعاً عليهم إخراجه إلى الماء، كان الأطفال يتظاهرون بأنهم يجدفون عن طريق التأرجح ذهاباً وإياباً في أحد طرفيه. كان الزورق المجوف، القابل للانقلاب، وهو جذع شجرة مجوف، مزوداً بزوج من العوارض الجانبية. كان أكيولونيس

يصطاد به سمك الكراكي، فيطلق أولاً الخيط مع الطعم الدوار، ثم يلفه حول أذنه. وفي الليل، كان ينصب أعمدة الصيد الليلية، وأعطى أحدها لتوماس. كانت هذه قصبة مثبتة بشوكات من البندق؛ وكانت الشوكات ملفوفة بالخيط، أحد طرفيها مدخلاً عبر شق، وخطاف مزدوج يوضع على الطرف السائب. كان الطعم المثالي هو سمكة فرخ صغيرة، لأنه بمجرد أن يُغرز الخطاف في الشق الصغير الذي يُحدثه السكين في جانبها، يمكنها السباحة طوال الليل؛ أي سمكة أخرى كانت ستفتقر إلى الحيوية، وتموت بسرعة كبيرة.

يعود الفضل فيما تلا إلى أكيولونيس، فهو الذي اختار المكان وألقى بالخيط. لم يستطع توماس النوم، فقفز من السرير في وقت مبكر من اليوم التالي وانطلق إلى النهر قبل أن يرتفع ضباب الصباح. فوق السطح الوردي المغطى بالضباب والشبيه بالزجاج، رأى الشوكات: فارغة. في حالة من عدم التصديق، بدأ يسحب الخيط، وشعر به يشتد، ثم سمع صوت الطرطشة. منتشياً، انطلق عائداً إلى التل، متلهفاً ليرُي الجميع سمكته التي بحجم ذراع رجل. تجمع الناس حوله. تبين أنها ليست سمكة كراكي، بل نوع آخر، نوع قال أكيولونيس إنه صيد نادر. لم يحدث لتوماس شيء مماثل ولو من بعيد، وبعد سنوات كان لا يزال يتحدث عنه بفخر.

شعر بالانجذاب إلى زوجة أكيولونيس، التي ذكّرته بشرتها الفاتحة بپولا، وبذل جهداً ليحظى بتدليلها. في المنزل كانوا يتحدثون الليتوانية، ينتقلون بشكل غير محسوس من لغة إلى أخرى. كان الأطفال يتحدثون مزيجاً، إلا عندما تتطلب بعض الأفعال الجماعية بعض الصيحات الموروثة، كما هو الحال عندما يندفع الأولاد عراة إلى النهر، وهم يصرخون: "إي فيراي!" أو "إلى الأمام، يا رجال!". "فير"، كما اكتشف توماس لاحقاً، تعني نفس الشيء باللاتينية، على الرغم من أن الليتوانية كانت أكثر قدماً بشكل قاطع.

لكن كل صيف يجب أن ينتهي. ثم يأتي المطر، والأنوف ملتصقة بالنوافذ، والملل بين الأطفال الأكبر سناً وأمسيات في المطبخ، عندما تتجمع الفتيات حول أنتونينا للغزل أو تقشير الفول، عندما يتطلع الجميع إلى قصص جديدة ويصابون بخيبة أمل إذا، كما يحدث أحياناً، تدخل شيء ليفسد متعتهم. كان توماس، وهو يستمع إلى أغانيهم، مفتوناً بشكل خاص بواحدة منها، زاد افتتانه حين اتخذت أنتونينا هيئة من السرية، محذرة من أن مثل هذه الأغاني ليست مخصصة له. في حضوره، كانت تغني اللازمة فقط:

"يا ثوبي الصغير، اغزل طوال الليل،
يا آنستي الصغيرة، لا تخافي"!

أما البقية، فقد التقطها في مقاطع متفرقة. كانت الأغنية عن فارس ذهب إلى الحرب، وسقط في معركة، وفي إحدى الليالي عاد إلى حبيبته كشبح، وأركبها على حصانه وأخذها إلى قلعته. لم تكن هناك قلعة بالطبع، مجرد قبر في المقبرة.

أغنية أخرى، غنتها فتاة من منطقة بونييفيج، كانت عن بعض النجارين، أو على الأقل هذا ما تخيله توماس:

"يا سيدي، كُرماً، أعطني أجري،
فقد حان وقت الرحيلِ والمسيرِ.
فقط أعطني ما لي،
وسأمضي في حالي".

وظل المقطع الأخير يتردد في الأفق طويلاً، كأنما ليشهد على طول الدرب ومشقة المسير. أما الأغاني الأقصر فكانت أكثر بهجة ومرحًا.

أمسك بقنينته، أمسك بكأسه
ومضى إلى ممر التل العالي
ومن ممر التل العالي إلى مقر المقاطعة
مضى يبحث عن زوجة حلوة المعشر
على صهوة مهره الصغير
حتى ظهر هو وجواده عند الكنيسة——
"ولن أتزوج من أحد، أقسم،
إلا إن كان "مايك" يا أعزائي، يا أعزائي"!

أو:

"هيا إلى الرقصةِ هيا
لكن لا تكسر كعبَ رجليكا!

أخي اسمه خربوش،
ونعله يحتاج رتوش!
عندي كلب صيد اسمه أسود،
إن أضعت نعلك فسيسترده ويعود"!

وخلال قراءة الطالع، حين يُسكب الشمع، تأتي اللحظة الأكثر إثارة عندما يلامس الشمع الساخن الماء البارد محدثاً أزيزاً، ويبدأ في اتخاذ أشكال القدر المختلفة. تُقلَّب الأشكال واحدًا تلو الآخر وتُفحص ظلالها، فتنطلق جوقة من شهقات الإعجاب والدهشة مع تكشُّف الأكاليل والحيوانات والصلبان والجبال تدريجيًا.

بالنسبة لتوماس، كانت إحدى عشيات عيد القديس أندرو نذير رعب حقيقي. لم يكن يُسمح إلا للفتيات بالنظر في المرآة، وفي منتصف الليل، وبجو من المهابة، كنّ ينعزلن في غرفهن. ذات مرة، وعلى سبيل المزاح، حاول تقليدهن، ولكن حين عكست المرآة زوجًا من القرون الحمراء، انتهى الأمر بالبكاء. أكانت قرونًا، أم مجرد تطريز على بلوزة فتاة يومض في الخلفية؟ لا أحد يدري، ولكنه لزمن طويل بعدها، كان يتجنب كل مرآة.

في أحد فصول الشتاء—كان دائمًا ذلك الصباح الأول الذي تمشي فيه متتبعًا آثار الأقدام في الثلج الذي هطل في الليلة السابقة—لمح توماس قاقمًا على نهر إيسا. جعل الصقيع وضوء الشمس أغصان الشجيرات على الضفة المقابلة شديدة الانحدار تبدو كباقات من ذهب، مشوبة بلون رمادي وأرجواني مزرق. وفي تلك اللحظة، ظهرت راقصة باليه ذات رشاقة وخفة حركة مذهلتين، منجل أبيض، يتقوس ويستقيم. وفاهه مفتوح، حدق توماس في رهبة وتوق. أن يمتلكه. لو كان معه بندقية لأطلق النار عليه، إذ لا يمكن للمرء أن يقف مكتوف اليدين حين يطالب عجبه بأن يُحفظ ذلك الشيء الذي أثاره إلى الأبد. ولكن أي خير كان سيجنيه من ذلك؟ لما كان هناك حينها لا قاقم ولا أي شعور بالعجب، مجرد مادة هامدة ملقاة على الأرض؛ لا، كان الأفضل أن يملأ عينيه منه ثم يدعه يذهب.

في الربيع، حين تتفتح أزهار الليلك، كانوا يخلعون أحذيتهم ويدعون أقدامهم تتلوى، وكل حصاة تلسع كالمسمار. ولكن لم يمض وقت طويل حتى تقسو البشرة، ومنذ ذلك الحين حتى الصقيع الأول، كان توماس يتجول حافي القدمين على الدروب، حتى إذا جاء يوم الأحد كانت قدماه تلتهبان، فلا يطيق صبرًا حتى يلقي بحذائه بعد القداس.

ليس كل امرئ يمكنه أن يكون بطل مغامرة كتلك التي حلت بـ "باكيناص". لطالما اقترب منه توماس بخشوع وإجلال. كان "باكيناص" الذي يشبه سمك الفرخ، بأنفه اللامع الحاد، يعمل نساجًا في الورشة الكبيرة، حيث كان يشغّل مكبس الكي المستخدم في ضغط القماش المنزلي بين صفائح من الورق المقوى، التي تحول لونها بفعل الاستخدام الطويل وامتصاص الأصباغ إلى أسود قاتم. (كان الناس من القرى المجاورة يحضرون قماشهم المنزلي إلى القصر للضرب والكي). على الرغم من أن الحادثة وقعت منذ زمن بعيد، إلا أنها لم تُنسَ، وكان هناك دليل حي على أنها لم تكن مجرد إشاعة، إذ كان "باكيناص" دائمًا حاضرًا ليشهد، وإن على مضض، على صحتها.

بدأ كل شيء في "بوريك"، وهي مجموعة من أشجار الصنوبر على طول نهر إيسا ومكان تعشيش مفضل للغربان التي كانت تنعق وتحوم فوق قمم الأشجار. كان لـ"بوريك" صيت مشؤوم. فقد دُفن هناك راعٍ عجوز يُعتقد أنه اختنق بقطعة جبن.

"اختنق حتى الموت؟" سأل توماس. "كيف ذاك؟"

"اختنق حتى الموت، هكذا—بينما كان يأكل عشاءه في المرعى." قد تفسر الظروف غير العادية لوفاته سبب عدم دفنه أبدًا في المقبرة. كما دُفن هناك صندوق تركه جيش نابليون؛ ووفقًا للأسطورة، فقد عثروا على غطائه الحديدي أثناء حفر قبر الراعي.

"ولماذا لم يُخرج من الأرض؟"

"لم يستطيعوا إحكام قبضتهم عليه، نفد الوقت والطاقة—" هنا أصبحت التفسيرات غامضة إلى حد ما.

في إحدى الليالي المتأخرة، حوالي منتصف الليل، كان "باكيناص" عائدًا من رقصة قروية على الجانب الآخر من النهر. وجد الزورق الذي خبأه في الأدغال، فجدّف عبر النهر. ولكنه لم يكد يقطع بضع خطوات في الحقل حتى بدأ عمود من البخار يتجه نحوه. أطلق ساقيه للريح، والعمود يلاحقه. وقد وقف شعر رأسه، فأسرع في جريه، لكن العمود ظل يجاريه. قفز "باكيناص" صاعدًا التل نحو الحديقة، وهو يعوي في رعب مميت، وطرق باب "شاتيبيلكو" طلبًا للمساعدة.

إن الإحراج الطفيف الذي كان "باكيناص" يتذكر به الحادثة لاحقًا كان له علاقة ببعض ما جرى في الرقصة. أما ظهور شبح الراعي فقد اعتبره عقابًا، علامة—فقد كان، كما يقولون، ميالاً للخرافات. لو أنه هاجر إلى أمريكا مثل أخيه وذهب للعمل في محل تنظيف جاف في شارع كئيب ببروكلين، لتلاشت كل ذكرى لتلك الليلة. وربما حدث الشيء نفسه لو تم تجنيده في الجيش. لكن قمم أشجار "بوريك"—التي كان يراها كل يوم في طريقه من غرفته في صومعة الغلال إلى الورشة—ظلت تذكرة دائمة. ولكن، ليس للمؤرخ أن يغدق بالتفاصيل على كل شخصية تعبر مجال رؤيته. حياة مثل حياة "باكيناص" لا يمكن سبر أغوارها أبدًا، وإذا أشرنا إليها، فذلك فقط لنقول إنه في يوم من الأيام كان هناك شخص يدعى "باكيناص"، في تاريخ لاحق بكثير من العديد من العلماء الذين جادلوا في أطروحاتهم حول وجود الأشباح والآلهة. ويكفي القول إن وازعه الديني وخجله منعاه من الزواج أبدًا، وعندما كانت "أنتونينا" والفتيات يوبخنه على تمسكه بحياة العزوبية، كان يكتفي بالتمتمة.

صدرية، ومثلث من قميص أبيض، مثبت عند الرقبة بياقة مطرزة باللون الأحمر؛ تعابير جامدة، ونوع من العصبية تصاحب إيماءاته—خاصة عند فك خيوط نوله. كان "باكيناص" أيضًا مسؤولاً عن مفتاح صومعة الغلال. وفي طريقه للخروج، كان يخبئه في شق تحت عتبة الباب. وبمجرد الدخول إلى الصومعة—بعد أن أتقن توماس حيلة فتح الباب المرصع بالحديد—كانت الأقدام تعبر أرضية مرشوشة بالحبوب وفضلات الفئران السوداء، وفي الصناديق كان يمكنك الجلوس والاستحمام بالحبوب الباردة. نافذة صغيرة في العلية—كان الجدار الخارجي سميكًا جدًا لدرجة أن النافذة كانت أشبه بنفق—تطل على الوادي بأكمله. كانت غرفة "باكيناص" مفروشة بأكياس الطحين وسرير؛ فوق السرير كان هناك صليب وإناء ماء مقدس من الصفيح، وملقى على ذراع واحدة من الصليب، مرشّة.

بين الحين والآخر، بينما كان يلعب مع "جوزيوك" و"أونوتي" في مرعى الإوز، كان توماس يغامر بالوصول إلى حافة الـ"بوريك". صفير الريح فوق الرأس، ونعيب الغربان، والصمت المطبق في الأسفل: كان مكانًا غريبًا وموحشًا. ذات مرة، استجمعوا شجاعتهم ووصلوا حتى قبر الراعي، الذي كان مغطى الآن ببقعة كثيفة من نبات القراص وتوت العليق البري. من هذه البقعة نفسها، استدعى ضوء القمر عمودًا أبيض ارتفع وانزلق بين الأشجار. تُرى هل تمايلت أوراق شجيرات القراص، تساءل توماس.

كان الطريق إلى الكنيسة يمر عبر أسوار السويديين. كان توماس، مرتدياً سترة قصيرة من قماش خشن شائك، يتبع حركات فتيان المذبح في أرديتهم الكهنوتية. كان الفتيان يتقدمون مباشرة إلى المذبح، متلألئين بالذهب، يلوحون بالمباخر، ويجيبون الكاهن دون أدنى ارتباك، ويناولونه قوارير ذات فوهات تشبه مناقير هلال. هل يمكن أن يكون هؤلاء هم أنفسهم الفتيان الصاخبون الذين كانوا يصطادون جراد البحر وهم يخوضون في الماء حتى الركبة، ويشدون شعر بعضهم البعض، ويكتسبون سمرة في بيوتهم؟ كم كان يحسدهم على أنهم، مرة في الأسبوع، يمكن أن يكونوا شيئًا آخر غير ما هم عليه.

كانت عدة معارض كنسية تقام سنويًا في "غينه". ينصب الباعة أكشاكهم المصنوعة من قماش القنب على جانب الطريق، عند سفح التل، محاذية للمسار الذي ينحدر من أشجار البلوط في المقبرة. كانوا يبيعون قلوب خبز الزنجبيل وصفارات الديك المصنوعة من الطين، لكن أكثر ما أسر توماس هو المربعات الصغيرة البنفسجية والحمراء والسوداء من "السكابولاريو"، وعناقيد المسابح، ولون وتعدد الأشياء الصغيرة.

من بين كل الأعياد، لم يكن هناك ما يضاهي عيد الفصح، ليس فقط لأنه كان الوقت من العام الذي تُطحن فيه بذور الخشخاش في أوعية فخارية وتُنهب كعكات الفصح بحثًا عن المكسرات. طوال أسبوع الآلام، عندما كانت الصور والتماثيل داخل الكنيسة تُغطى، وتحل خشخشة النواقيس الخشبية الجوفاء محل الأجراس، كان الناس يحجون إلى قبر يسوع. كان المغارة يحرسها حراس، كل منهم مسلح برمح وفأس حربي، كل منهم يرتدي خوذة فضية مزينة بمشط وريش. كان جسد يسوع ممددًا فوق منصة مرتفعة، نفس الجسد الذي كان يُعلق عادة على الصليب، ولكن الآن كانت ذراعاه مغطاة بأوراق الآس.

كان الحدث الأكثر انتظارًا في الموسم هو عرض يوم سبت النور. فتيان في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر، بعد أسابيع من التدريب، كانوا يركضون إلى الكنيسة بزئير، حاملين غربانًا ميتة مربوطة إلى أعمدة. العجائز المتدينات، المنهكات من الالتزام الصارم بالصيام والصلاة التي لا نهاية لها، ورؤوسهن تنحني أكثر فأكثر، كنّ يستيقظن فجأة من تأملاتهن النعسة على غراب ميت يتدلى

أمام أنوفهن؛ وأولئك الذين أحضروا بيضًا في حزم ليبارك، كانوا يُسخر منهم بالمثل. كانت المسرحيات الهزلية تُقام على مرج الكنيسة. وكان المفضل لدى توماس هو اضطهاد يهوذا. أولاً كانوا يركضون خلفه حتى ينهكوه، ثم يحاصرونه، ويمطرونه بالشتائم، ويشنقونه حتى يتدلى لسانه، ثم ينزلون الجثة؛ ولكن لئلا يفلت بسهولة، كانوا يقلبونه على بطنه، ويقرصونه حتى يئن، وينزلون سرواله، ويحشون مؤخره بالقش، وينفخون فيه الروح، حتى يقفز يهوذا أخيرًا على قدميه، صارخًا بأنه حي.

عندما كبر توماس قليلاً، كانت "أنتونينا" وجدته تأخذانه إلى قداس الشروق في عيد الفصح. بعد بضع أغانٍ وصلوات حزينة، كانت الجوقة تنطلق في "هللويا" وتبدأ المسيرة: تزاحم نحو الباب، وظلام باقٍ في الخارج، وشموع تتهادى ألسنتها مع النسيم، وأغصان الأشجار تلوح في الأعلى، وبرد الصباح، ومناديل النساء تتلألأ في الضوء، ورؤوس الرجال العارية——منتهية بمسيرة حول الكنيسة وعلى طول الجدار الحجري الصغير. مع مرور الوقت، ارتبط كل هذا في ذهن توماس بقدوم الربيع.

ثم جاءت أحاديث العيد النعسة، والمذاق الحلو للخبز الملفوف——ومسابقات دحرجة البيض. كان مسار الأطفال مصنوعًا من العشب، منحنيًا قليلاً إلى الداخل ومبطنًا بشرائح من الصفيح لزيادة الزخم. لم تكن هناك بيضتان تتدحرجان بشكل متشابه، وكان عليك أن تخمن من شكلها ما إذا كنت ستضعها على اليمين أو اليسار أو في منتصف الأخدود. وحينما يبدو الطريق سالكاً، وحينما تبدأ بيضتك في اللحاق بالآخرين، المنتشرين كقطيع من الأبقار؛ وحينما تكون على وشك أن تصطدم ببيضة أخرى وتجعل صاحبها فائزًا، فإنها تبدأ فجأة في التمايل، وتطيع نزوتها الخاصة، إما أن تتفاداها بأصبع أو تتوقف قبلها بقليل.

في عيد القربان المقدس، كانت الكنيسة مزينة بأكاليل من أوراق البلوط والقيقب معلقة من العوارض فوق رؤوس المصلين. طوال شهر مايو، كانت الزهور توضع عند قدمي تمثال السيدة العذراء، ولكن الآن جاء دور المذبح ليتزين. كان الأطفال يتزاحمون في غرفة المقدسات ويُعطون سلالاً صغيرة من بتلات الورد أو الفاوانيا. جعلت جدة توماس يشارك في المسيرة. كانوا يسيرون وظهورهم إلى المظلة، التي كان الكاهن يحمل تحتها القربان المقدس، وكان على المرء أن يخطو بحذر لتجنب التعثر بصخرة. كاد عيد القربان المقدس أن يقع دائمًا في يوم حار؛ وبحلول الوقت الذي ينتهي فيه، كان الجميع غارقين في العرق، منهكين من حمل كل اللافتات وعلب الذخائر المقدسة. لكنه كان لا يزال أحد أبهج الأعياد: سماء صافية، وزقزقة السنونو، ورنين الأجراس، والكثير من الأبيض والأحمر والذهبي.

كان العالم في حالة حرب، وما كادت تبدأ حتى توقف القيصر الروسي، وجيشه الآن في تراجع، عن السيطرة على أرض البحيرات. لم يرَ توماس الألمان إلا مرة واحدة. كانوا ثلاثة، جميعهم يمتطون جيادًا رائعة. دخلوا راكبين إلى الفناء حيث كان توماس يجلس بجانب "غريغوري" العجوز، الذي كان قد كبر على العمل، فكان يقضي وقته في نسج السلال. قفز ضابط شاب، ضيق الخصر ووجهه محمر كفتاة في المدرسة، من على حصانه، وربت على عنقه، وشرب من إبريق الحليب. تجمعت الخادمات حوله، لكن "غريغوري" العجوز ظل جالسًا، لم يرفع سكينه الذي كان يشذب به الغصن. إن رؤية رجل يرتدي مثل هذه الملابس الملونة—كان زيه الرسمي أخضر عشبيًا—كانت صدمة لتوماس. كان مربوطًا بحزامه جراب جلدي، وفي الجراب مسدس ضخم له عقب معدني بارز وفوهة طويلة. كاد توماس أن يقع في حب رشاقته، وشيء آخر لا يمكن تحديده تمامًا. أعاد الضابط الإبريق، وقفز عائداً إلى السرج، وأدى التحية، وانطلق مع جنوده عبر حظيرة الأبقار وممر الزيزفون.

ما تبقى ليُروى هو قصة مصير الرجل، مصير، وإن كان متخيلاً فقط، إلا أنه بالكاد يتجاوز حدود المعقول. في إحدى زياراته للكنيسة، استند إلى الجدار الحجري الصغير ورسم بهياج في دفتر ملاحظاته. ربما تذكر كنيسة خشبية مشابهة كان قد رآها في النرويج قبل الحرب. وبينما امتطى حصانه ونزل في الركاب، على صرير أحزمة السرج، استنشق عطر المروج على طول نهر إيسا، ربما متذكرًا مشهد الدمار على الجبهة الغربية، في فرنسا، حيث شهد القتال مؤخرًا. لم يلاحظ توماس أبدًا، لا حينها ولا—لمَ لا؟—بعد عشرين عامًا وهو يجلس في سيارة جنرال، محاطًا بسجادات مريحة وقوارير حافظة للحرارة، وذقنه الممتلئ مسنودًا على ياقة زيه العسكري، ويقوده سائق عبر شوارع مدينة في أوروبا الشرقية غزاها جيش الفوهرر حديثًا. قابضًا على قبضتيه في جيوبه (يمكننا أن نفترض أنه فعل ذلك)، رفض توماس أن يتعرف في الغازي على موضوع عاطفته قصيرة الأمد.

لم يكن للحرب سوى تأثير واحد على "غينه": لم يعد هناك رحلات تسوق إلى المدينة، إذ لم يعد هناك ما يُشترى. وكانت النتيجة عددًا من المشاريع المنزلية الجديدة والمثيرة. مثل صناعة الصابون. نار موقدة في البستان، ومرجل على حامل ثلاثي الأرجل، ومزيج بني اللون يُخلط بعصا. يا للهول! كانت رائحة كريهة تفوق كل الروائح الكريهة، ولكن يا لها من إثارة، ويا لكثرة الجدل حول النتيجة. وبمجرد أن يتصلب المزيج، كان يُقطع إلى قطع. أو صناعة الشموع. لذلك كنت تحتاج إلى زجاجات

مقطوعة، وشحم، وفتيل. قطعة من الخيط، منقوعة في الكيروسين، كانت تقطع القمم؛ بلف الخيط حول العنق وإشعال النار فيه، يمكنك جعل الزجاج يتشقق تمامًا حول المكان المطلوب بالضبط. كما اشتروا مصباحي كربيد، أثار شكلهما ورائحتهما فضول توماس. وللتعويض عن نقص الشاي، بدأت الجدة تستخدم أوراق الفراولة البرية. استُبدل السكر بالعسل، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت السكارين، ومنذ ذلك الحين، لم تعد أبدًا إلى استخدام السكر، فالسكارين له نفس المذاق الحلو—وأرخص.

حان وقت بدء توماس لدراسته، ولكن مع عدم وجود أحد في المنزل ليتولى تعليمه، أُرسل إلى القرية، إلى "جوزيف"، الملقب بـ "الأسود". وكان أسودًا بالفعل: حاجبان كضربتي فرشاة كثيفتين، ووجه شاحب، وشيب عند الصدغين. كان يعيش مع أخيه ويساعد في الزراعة، مكرسًا كل وقت فراغه لهوايات شتى. كان دائمًا ما يتلقى الكتب، ويجفف النباتات بين صفائح الجرائد المضغوطة، ويكتب الرسائل للناس — ويتحدث في السياسة. وقد قضى ذات مرة فترة في السجن بسبب تلك السياسة، وعمل في عدد من المهن، على الرغم من أنه لم يتصرف قط بطريقة أهل المدن، وكان التطريز على قمصانه يعلن أنه لا يزال فلاحًا. كان ينتمي إلى تلك القبيلة التي أطلق عليها مؤرخونا اليوم اسم "القوميين"؛ أي أنه كان مكرسًا لخدمة مجد القضية. وكان ذلك هو سقوطه، وأصل هلاكه. فبينما كانت تعاطفاته بوضوح إلى جانب ليتوانيا، كان مع ذلك ملزمًا بتعليم توماس القراءة والكتابة باللغة البولندية. أن يعتبر آل سوركونت — وهو لقب لا يمكن أن يكون أكثر ليتوانية — أنفسهم بولنديين كان يعتبره ضربًا من الخيانة. كراهيته لملاك الأراضي البولنديين (لأنهم كانوا ملاك أراضٍ، ولأنهم بدّلوا ألسنتهم ليتميزوا عن سواد الشعب)، مقترنة بعدم قدرته على كره الرجل الذي ائتمنه على حفيده، وكل ذلك ممزوجًا بأمله في فتح عيني توماس على روعة القضية — كان ذلك هو التشابك من المشاعر الكامن في نوبة السعال التي كانت تأخذه كلما فتح الصبي كتابه أمامه.

لم تكن الجدة سعيدة على الإطلاق بهذه الدروس، وبهذه المخالطة لـ "فلاحين سُذَّج" (لم تقبل أبدًا بالليتوانيين، على الرغم من أن صورتها كان يمكن أن تستخدم لتوضيح كتاب عن سكان البلاد الأصليين). ولكن بما أن استئجار معلم خاص كان سيعتبر ضربًا من التفاخر والتعالي، فقد وافقت أخيرًا على "جوزيف"، متذمرة من أنهم سيجعلون منه قرويًا أخرق. كان توماس جاهلاً بكل هذه

التعقيدات والعداوات، وعندما فهمها أخيرًا، اعتبرها شيئًا استثنائيًا. لو كان قد التقى بشاب إنجليزي نشأ في أيرلندا أو بشاب سويدي نشأ في فنلندا، لربما وجد العديد من النظائر.

لكن تلك الأراضي وراء وادي إيسا كان يكتنفها الضباب، وما عرفه عنها من القليل جاء من حكايات جدته ـــ كيف أن الإنجليز يأكلون الكومبوت على الفطور (وهو ما قد يفسر انجذابه إليهم)، وكيف نفى الروس جدها آرثر إلى سيبيريا، وكيف يجب على المرء أن يحب ملوك بولندا الذين تقع قبورهم في كراكوف. بالنسبة للجدة، كانت كراكوف ـــ "عندما تكبر يا بني، ستذهب إلى هناك" ـــ أجمل مدينة في العالم. وطنية جدته لشيء على تلك المسافة من البعد؛ والتسامح الذي يمارسه جده، غير مكترث بالقومية؛ وترديد جوزيف المستمر لكلمتي "نحن" و"بلادنا" قد غرست في توماس بذرة الريبة التي ستلازمه لاحقًا كلما أثير حديث حماسي في حضوره عن أي أعلام أو شعارات.

استمرت الدروس مع جوزيف طويلاً، بسبب فوضى السنوات الفاصلة، التي وُلدت من رحمها جمهورية ليتوانيا الصغيرة. وبفضل جوزيف، بدأ بناء أول مدرسة في "غينه"، وأصبح في نهاية المطاف أحد معلميها.

كانت الحرب تخبو، ويُقاس تقدمها بما يراه المرء على الطريق ـــ من أحد المقاعد المتآكلة، على سبيل المثال، الواقعة على حافة الحديقة. من بعيد، من وراء البحيرات، من المدن أتوا، جميعهم فارين من مجاعة، ظهورهم محملة بالأكياس والصرر، وكثير منهم يجرون أطفالهم في عربات خشبية صغيرة. وقد استُقبلت إحدى هذه العائلات، أم وولدان، في القصر بإلحاح من "أنتونينا"، التي كان "ستاسيك"، الشاب الذي كاد يبلغ، قد سحرها بعزفه الأخاذ على الهارمونيكا، وأغانيه المدنية، وقبل كل شيء بلكنته المازوفية النقية. "يا له من فتى عذب الحديث!" هتفت وهي تحدق فيه ببهجة. لم يفلح "ستاسيك"، بأذنيه الكبيرتين وعنقه النحيل، في كسب ود توماس، على الرغم من أن الصبي صنع له قوسًا ونشابًا بمقبض يشبه مقبض بندقية حقيقية. كانت تلك الأمسيات مليئة بضحكات الفتيات الصادرة من تحت شجرة الزيزفون، وحتى عندما كان "ستاسيك" يجلس وحده مع "أنتونينا"، كان توماس يتململ ويتلوى في مقعده، وفي النهاية يغادرهم ـــ شاعرًا بالملل، والضيق إلى حد ما، كما يحدث عندما تغيب شمس الظهيرة فجأة خلف سحابة.

إن كان هناك من تطارده الشياطين، فقد كان "بالتازار"، على الرغم من أنه كان يبدو كرجل وُلد للبهجة. بشرة غجرية، أسنان بيضاء، طوله يتجاوز الستة أقدام، وجهه مستدير، مع زغب خفيف ينم عن لحية. كلما ظهر في القصر ——مرتديًا سترة ضيقة، وقبعته الكحلية مائلة إلى الوراء، كاشفة عن خصلة شعر كثيفة—— كان توماس يركض للقائه، وهو يصيح طول الطريق. كان يحمل معه إما سلة من الفطر —— فطر البوليطس وفطر العسل، الذي تتخذ قممها لون خشب ألدر مقطوع، وجوانبها مبقعة بالأبيض —— أو بعض الطرائد: شقنب أو ديك خلنج بخط أحمر صغير فوق عينه. كان "بالتازار" حارس غابة، وإن لم يكن بالمعنى الدقيق للكلمة. لم يكن يتقاضى أجرًا ولم يكن ملزمًا بالدفع، لكنه اتخذ من الغابة مسكنًا (بني بأخشاب ممنوحة مجانًا)، وزرع بضعة حقول بطاطس وجاودار، وحرث قطعة صغيرة من الأراضي الزراعية كل عام. كان وصوله إلى القصر كفيلاً بأن يثير صداع الشقيقة لدى الجدة. وأحيانًا كان توماس يلمحها وهي توبخ جده: "إنه مفضلك مرة أخرى! إياك أن تتجرأ وتدس له شيئًا"!

كان الناس يحسدون "بالتازار"، ولسبب وجيه. قبل أن يصبح حارس غابة، لم يكن يملك شيئًا؛ أما الآن فلديه مزرعة، وبعض المواشي، وليس مجرد كوخ بل منزل بأرضية من الألواح، وشرفة، وأربعة مبانٍ ملحقة. تزوج لاحقًا من ابنة مزارع ثري من "غينه" وأنجب منها طفلين. كان "سوركونت" رجلاً لينّ العريكة يستجيب لأي من طلبات "بالتازار"، إلى درجة تعريض نفسه للسخرية لم يثر حارس الغابة عداوات كثيرة، فقد كان يعرف كيف يتصرف بحكمة: فبينما كان يحرص على عدم قطع أي شجرة في غابة البلوط القديمة، لم يكن يعترض إذا قطع أحدهم من "بوجيراي" شجرة تنوب أو زان أبيض، طالما أن الجذع كان مغطى بالطحلب.

بالنسبة لـ"بالتازار"، كانت السعادة هي الاسترخاء على الشرفة الأمامية، وإبريق من الجعة محلية الصنع بجانبه على الأرض —— يرتشف من كوبه، ويلعق شفتيه، ويتثاءب ويحك جلده. كقط راضٍ؛ ولكن في مثل هذه المناسبات تحديدًا كانت تأتيه النوبات. من وقت لآخر، كان الجد يُجلس توماس بجانبه في عربة "البريتسكا" ويخرجان عبر حقول القصر إلى كوخ حارس الغابة. كانت "البريتسكا" عربة تجرها الخيول وتُستخدم بكثرة، وكذلك "اللينييكا" —— وهي نوع من الألواح على عجلات، تُركب كالحصان. كانت هناك عربات أخرى تُحفظ في مرآب العربات: عربة مغطاة بالغبار وشباك

العنكبوت؛ وأخرى على زلاجات، مزلجة مفتوحة؛ وواحدة تسمى "العنكبوت"، وهي عربة طويلة مطلية بلون أصفر فاقع، بعجلات أمامية ضخمة وأخرى أصغر في الخلف، ومقعد مرتفع للسائق أو الخادم؛ وتمتد على طول "العنكبوت" (التي تذكر إلى حد ما بالدبور)، سرير من الألواح، إذا قُفز عليها، ترتفع عاليًا في الهواء.

كان الجد يمسك به من خصره كلما تأرجحت "البريتسكا". بعد الحقول جاءت الأراضي العشبية والمستنقعات. أخاديد غارقة في العشب تخفي حُفراً عميقة بما يكفي لتغوص فيها عربة حتى محورها. دخان يتصاعد ملتفًا على مجموعة من أشجار الزان الأبيض، كان إشارة إلى نباح الكلاب، وسقف، ورافعة بئر. في البرية، وحيدًا، بين حيوانات كانت تمد أعناقها من الأحراش وتتجسس على صخب فناء الحظيرة ـــ تلك كانت الحياة بالنسبة لتوماس. كان مكان "بالتازار" تفوح منه رائحة الصمغ، والخشب البكر يجعله يلمع كأنه مصقول من النحاس.

كان "بالتازار" يجلس هناك، مبتسمًا، بينما كانت زوجته تستضيفهم بالطعام والشراب، وتقدم اللحوم الباردة بإصرار "تفضلواـــساعدوا أنفسكم". نحيلة البنية، ذات فك بارز، لم تنطق بكلمة أخرى بقية الأمسية.

أحيانًا كان توماس يترك الكبار ويركض ليتجسس على طيور القيق أو الحمام البريـــكان هناك الكثير من أنواع الطيور. ذات مرة، بين كومة من الصخور في الأحراش، اكتشف عش هُدهُد؛ مد يده إلى الداخل، فأمسك بواحد، فرخ، حاول إخافته وهو ينفش ريش رأسه. عندما أحضره إلى الداخل، لم يأكل الهدهد، مفضلاً أن يطير على طول الجدران بدلاً من ذلك. في النهاية، كان عليه أن يطلقه.

مهما كان ما يعذب "بالتازار"، لم يكن ليخبر توماس أبدًا. حتى هو لم يكن يعرف طبيعة علته، فقط أنها كانت تزداد سوءًا. طالما كان يبني المنزل، كان كل شيء على ما يرام. ولكن لاحقًا، وهو يتوقف خلف محراثه ليلف سيجارة، كان يفقد كل إحساس بمكانه؛ وعندما كان يعود إلى وعيه، كانت أصابعه تكون مشدودة، والتبغ متناثرًا على الأرض. كملاذ أخير، ضاعف عبء عمله، لكن كسله الفطري جعله ينهي أي عمل في نصف الوقت الذي يستغرقه عادة؛ وفي اللحظة التي يتمدد فيها على مقعد مع إبريق جعَته، كانت أحشاؤه تلين، وتؤدي شقلبة بطيئة، وفي غشية، كأنه نصف نائم، كان يحاول أن يصرخ من خلال فكيه المشدودين. لا جدوى. أحيانًا كانت تأتيه رغبة في القفز، وضرب قبضته على الطاولة، والانطلاق إلى أماكن مجهولة. وفي أحيان أخرى كان الهمس يندمج مع الضعف،

فيقذف "بالتازار" بكوب جعَته على معذبه، الذي إما كان يزحف داخله أو يسخر منه من مسافة. وعندما يحدث هذا، كانت زوجته تخلع حذاءه وتساعده على الدخول إلى السرير. كان "بالتازار" يستسلم لها، كما كان يستسلم لكل شيء آخر، بلامبالاة وشعور بأن شيئًا ما خطأ، وأنه قد خُدع بطريقة ما. كان يشمئز من بشاعتها، التي بالكاد كانت ملحوظة في الظلام ولكنها لا تُحتمل أثناء النهار. كان النوم يجلب الراحة، ولكن ليس لفترة طويلة، وفي الليل كان يستيقظ وهو يشعر بأنه يرقد في قاع حفرة مسورة بجدران عالية، لا مهرب منها.

كانت هناك أوقات يضرب فيها الطاولة ويهرب. ولكن حينها كان الأمر مجرد الانغماس في عربدة حقيقية، تستمر ما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة أيام، يشرب خلالها حتى تحرق الفودكا أحشاءه، وتضطر زوجة صاحب الحانة، وهي يهودية، إلى أن تجلس فوقه وتتبول في وجهه——وهي طريقة شائنة، وإن كانت مُجرّبة، للإنعاش. ثم ينتشر الخبر بأن "بالتازار" قد عاد إلى سيرته الأولى، البعض يدعي أن ذلك ناتج عن حياة الترف والوفرة، والبعض الآخر أنه يتآمر مع الشيطان —— وهو ما لم يكن ثرثرة فارغة، لأن "بالتازار" كان يُسمع وهو يهذي بأشياء كثيرة أثناء هذيانه السكير.

بعد سنوات، بعد أن غادر "غينه"، سنحت لتوماس الفرصة للتفكير في "بالتازار"، ليلخص كل ما سمعه عنه، بمزيجه من الحقيقة والأسطورة، وليتذكر عضلات ذراعيه الصخرية (كان "بالتازار" رجلاً ذا قوة هرقلية) وعينيه اللتين تشبهان عيني الظبي. لا قدر من النجاح أو العناية الإلهية، قرر، يمكن أن يحمي رجلاً من مثل هذه العلة في الروح، وكلما خطر بباله مثال "بالتازار"، كان دائمًا يجعله خائفًا من مصيره ومن كل ما ينتظره.

11

لحية عنزة صغيرة، نظرة خاطفة، ويدان مطويتان بتواضع كأنه من أهل المدن، ومرفقان مسنودان على الطاولة: هكذا تجلى هير دوكتور، "الألماني الصغير" بنفسه. "اغرب عن وجهي"، تمتم "بالتازار" تحت أنفاسه، محاولاً رسم علامة الصليب ولكنه بدلاً من ذلك حك صدره، بينما استمر الآخر في الحديث، متملقًا، وكلماته تتساقط كحفيف أوراق يابسة. "لكن، يا عزيزي بالتازار"، قال، "أنا فقط أريد أن أساعدك. أنت دائمًا قلق، وبلا سبب. أنت قلق بشأن المزرعة، أليس كذلك؟ أنت قلق حتى الموت لأن الأرض لا تخصك. لك وليست لك. اليوم هنا، وغدًا رحلت، أليس كذلك؟ تعتقد أن

شخصًا آخر سيستولي على القصر ويطردك".
تأوه "بالتازار."
"ولكن هل تعني الأرض حقًا كل هذا القدر لك؟ حسنًا، اعترف بذلك. لا، في أعماقك تخفي شيئًا. الآن، في هذه اللحظة بالذات، تود أن تقطع كل شيء. أوه، العالم مكان كبير جدًا، يا بالتازار. مدن كبيرة، ليالٍ من الضحك، موسيقى تغفو على ضفة نهر ما، وحيدًا، حرًا، كل جسورك محروقة خلفك، حياة انتهت وأخرى بدأت للتو. لا مزيد من الشعور بالذنب، عالم جديد أمامك، عالم لن يكون أبدًا لأنك جبان، يا بالتازار. ترتعد فرائصك خوفًا على ممتلكاتك، على خنازيرك. 'ماذا'، تقول لنفسك، 'هل سأكون لا شيء مرة أخرى؟' حسنًا، ولكن من بين كل البالتازارات، لماذا تختار الأغبى؟ ألا تود أن تعرف كيف هو البالتازار الآخر؟"
"يا إلهي".
"لا راحة في الأفق. يأتي الخريف، والشتاء، والربيع، والصيف ثم الخريف مرة أخرى، وهكذا يستمر الأمر حتى القبر——هذا كل شيء، يا بالتازار، أغرق همومك في الشراب. وأنت تعرف كيف هي الليالي. ولكن لم أكن أنا من نصحك بالزواج ضد رغبتك، وأن تختار أبشع فتاة لأنها كانت ذات أب ثري. الخوف، يا بالتازار، هذا ما فعله. أردت الأمان. وهل أنت أسعد الآن مما كنت عليه في العشرين؟ تذكر الحفلات؟ الأيام التي كانت فيها يدك تأخذ الفأس بسهولة، وقدميك إلى الرقص، وحنجرتك إلى الغناء؟ كيف كنت أنت وأصدقاؤك تعيشون بأسلوب فخم؟ الآن أنت وحيد. مزارع. على الرغم من أنه صحيح، قد يأخذون منك ذلك المنزل".
كان "بالتازار" مشلولاً، كيسًا من نشارة الخشب في داخله. لقد كشفه الآخر.

"أنت تخرج عند بزوغ الفجر، الندى على العشب، والطيور تغني——ولكن هل هذه هي الحياة المناسبة لك؟ لا، أنت تعد. بالنسبة لك هو مجرد يوم آخر، يوم كأي يوم آخر. مرارًا وتكرارًا، كحصان محراث. وفي الأيام الخوالي؟ كنت تغني. ولكن الآن؟ تنظر إلى أشجار البلوط، لكنها قد تكون قنبًا. أو حتى غير موجودة. كل شيء موجود في الكتب، يا بالتازار. لكنك، لن تعرف أبدًا ما في الكتب. من الأفضل أن تشنق نفسك على أن تحتفظ بمثل هذه الفوضى مدفونة في الداخل. وإلا، كيف يمكنك أن تكون متأكدًا من أن الحياة ليست مجرد حلم؟ هذا ما تقوله الكتب. هل ستشنق نفسك؟ أشك في ذلك".

"لماذا الجميع محظوظون وأنا لا؟"

"لأنه، يا صديقي، لكل شخص يُعطى خيط معين، وهذا الخيط هو مصير الإنسان. إما أن يمسك به الشخص ويكون راضيًا به، أو لا يفعل. كنت سيئ الحظ. لم تكن تبحث عن خيطك الخاص، كنت مشغولاً جدًا بمحاولة تقليد الآخرين. ما يجعل الآخرين سعداء يجعلك غير سعيد".

"ماذا أفعل؟ قل لي".

"لا شيء. لقد فات الأوان. فات الأوان بالنسبة لـ بالتازار. أنت تفقد المزيد والمزيد من أعصابك. الشجاعة لشنق نفسك أو الهروب. سوف تتعفن".

خرجت الجعة من الإبريق في تيار موحل. كان يشرب ويحترق في نفس الوقت من الداخل. ابتسم الآخر.

"ولا جدوى من القلق بشأن سرك هذا. لن يعرف أحد أبدًا. الأمر بيننا تمامًا. على الجميع أن يموتوا، أليس كذلك؟ أبكر قليلاً أو أبعد قليلاً—ما الفرق؟ صحيح، كان شابًا. لكنه كان يقاتل لفترة طويلة لدرجة أنه كاد يُنسى في القرية. زوجته ستبكي لفترة، لكنها ستتجاوز الأمر. فماذا لو كان لديه طفل رضيع سمين ليحتضنه؛ كان أصغر من أن يتذكر والده. فقط لا يجب أن تتجول باكيًا في جعتك بسبب وجود نوع من الجريمة على ضميرك".

"ولكن الكاهن"

"نعم، أعرف، ذهبت إلى الاعتراف. لكنك لست غبيًا لدرجة أن تعتقد أنك يمكنك أن تعترف بكل شيء في كرسي الاعتراف. لقد كذبت. من السيء أن تُرفض لك المغفرة. كنت تكذب عندما قلت إنك قتلته لأنه قفز عليك بفأس. حسنًا، لقد قفز عليك. ولكن بعد ذلك ماذا؟ حسنًا، بالتازار؟ لقد أطلقت عليه النار وهو جالس هناك يأكل في الأدغال. ألقيت البسكويت الملطخ بالدماء بعده، وهكذا دفنته. أليس كذلك؟"

عوى "بالتازار" وأطلق الكوب. كما أن شفاعة "الألماني الصغير" كانت مسؤولة أيضًا عن عربدته لاحقًا في الحانات حيث كان يقلب الطاولات ويحطم المصابيح.

12

بما أن الأرض في جوف التنوب كانت الأسرع في الالتئام، فقد نحت "بالتازار" قطعة من العشب، ثم أعادها إلى مكانها بالمجرفة. كان يأتي قبل حلول الظلام بقليل، ويجلس، ويستمع إلى صراخ طيور القيق وهرولة طيور السمن. كان تحمل الألم هنا أسهل من التفكير فيه من مسافة. كاد أن يحسد

الشخص الراقد هناك. يا له من مكان هادئ، والغيوم تنجرف فوق الأشجار وكم من السنوات لا يزال أمامه؟

بعد أن خبأ البندقية في جذع شجرة بلوط، لم يلمسها مرة أخرى. بندقية جيش محولة بفوهة مقطوعة، كانت تتسع بسهولة تحت معطفه، مما جعل الرجل الآخر يعتقد أنه أعزل. كان قد قفز عليه من الأدغال التي تحف الدرب، وفأسه مرفوع عاليًا، وصاح: "ارفع يديك!" لحية حمراء، ومعطف روسي كبير بالٍ جدًا: أسير حرب من معسكر ألماني، يحاول الهروب عبر الغابة. لماذا الكمين؟ لسرقة ملابسه المدنية، أو ضربه حتى الموت، أو مجرد مجنون طليق؟ في اللحظة التي أدار فيها "بالتازار" البندقية إلى وركه، استدار المتسلل وهرب بسرعة حتى حفيف الأدغال. لكنه لم يكن يعرف طريقه في الغابة، لم يكن على دراية بأنفاقها وتقاطعاتها الكثيرة. وبمجرد أن يبدأ حيوان في الدوران، سينتهي به الأمر دائمًا حيث يجب أن يكون. متمهلاً، بدأ "بالتازار" يقتفي أثره. إذا ذهب السجين في ذلك الاتجاه، حسب تقديره، فعليه أن يخرج في فسحة الصنوبر ويتوقف ليلتقط أنفاسه. ما الذي كان يدفعه؟ الانتقام؟ الخوف من أن الرجل لم يكن وحده، وأنه قد يهاجم في الليل؟ أم كانت مجرد غريزة الصياد، الرغبة في تعقب الحيوان، للانتقام منه؟ متسللاً، منخفضًا، لمح المعطف الرمادي تقريبًا حيث توقع أن يجده. تركه للحظة، ودار حوله عبر بعض الشتلات ليقترب أكثر، ثم صوب فوهة البندقية على كتف الرجل المنحني—كان يجلس جانبيًا بالنسبة لـ"بالتازار"—ورقبته، وأخيرًا على رأسه بقبعته التي لا واقي لها. لاحقًا، وبكل ما أوتي من قوة، حاول أن يتذكر لماذا سحب الزناد، ولكن عندما كان متأكدًا من السبب، حل محله سبب آخر.

سقط الروسي على وجهه. انتظر "بالتازار"؛ كان الجو هادئًا باستثناء صراخ الصقور فوق رأسه. لا أثر لأي حركة. مطمئنًا إلى أن الرجل قد مات، تقدم إليه متعرجًا وقلبه. عيون زرقاء زاهية تحدق في سماء الربيع، زحفت قملة من حاشية معطف الرجل الميت. بجانبه، على الأرض—كيس من البسكويت، غير مربوط وملطخ بالدماء. كعبا حذائه كانا مهترئين، دليل على رحلته الطويلة من بروسيا. فتش في جيوب الرجل ولكنه لم يجد سوى سكين جيب وطابعين بريديين ألمانيين. غطى الجثة، مع الفأس وأشياء أخرى، ببعض أغصان التنوب حتى يتمكن من العودة بالمجرفة لاحقًا في ذلك المساء.

اتخذ قراره وهو يتأمل كئيبًا في مسرح الجريمة ذات يوم. كاد أن يصدق أن الفكرة قد أوحيت إليه من قبل الروسي. ربما كان القتل مقدرًا له أن يحدث. في تلك الليلة نام جيدًا، وخرج من المنزل عند الفجر.

كان الساحر "ماسيوليس" يمتلك قطيعًا كبيرًا من الأغنام، وكان لا بد من فتح بوابة تلو الأخرى قبل الدخول إلى الفناء. عرض "بالتازار" هداياه: حوض من الزبدة وعدة أكاليل من النقانق. عدل الرجل العجوز نظارته ذات الإطار السلكي. بدت بشرته مدخنة تقريبًا، وظهرت شعيرات رمادية في أذنيه وأنفه. بدأوا بتبادل آخر شائعات الحي، ولكن عندما حان وقت الكشف عن الغرض من زيارته، انعقد لسان "بالتازار". أخيرًا، أشار إلى قلبه، وقام بحركة كما لو كان يريد تمزيقه، ثم تمتم، بصوت يشبه صوت الدب: "إنهم يعذبونني". لم يقل الساحر شيئًا، أومأ برأسه، وقاده إلى البستان، بعد خلية النحل، حيث كانت تقف ورشة حدادة قديمة، تعج بالأعشاب الضارة، بين أشجار التفاح. أخذ بعض الأكياس المعلقة على أعمدة، وجمع حفنة من الأغصان الجافة الملقاة في زاوية، وصنع أربع أكوام صغيرة، وأجلس "بالتازار" على جذع في المنتصف. ثم أشعل الأغصان، وبصوت خافت، بدأ ينثر الأعشاب من الأكياس الصغيرة على النار. وازداد الدخان كثافة وقوة، بينما كان الوجه ذو النظارات، وهو يتلو صلاة ما، يلوح من جانب ثم من الآخر. وعندما أقامه وأعاده إلى المنزل، خفض "بالتازار" عينيه تحت نظرة الرجل الآخر.

"لا، يا بالتازار"، قال الرجل العجوز أخيرًا. "لا أستطيع مساعدتك. ما يليق بملك هو للملك، وإمبراطور للإمبراطور. لكل قوة ندها، ولكن هذه قوة لا أملكها. ربما ستجد من يملك ما يتطلبه الأمر. انتظر وسترى".

وهكذا تلاشت آماله. ولأولئك الذين حاولوا ألا يخمنوا سره، ابتسم "بالتازار" في لا مبالاة، كاشفًا عن أنيابه.

13

نادراً ما كان الكاهن يزور القصر، وكانت المرة الأولى التي عرف فيها توماس بيت القسيس هي ذلك اليوم الذي وقف فيه هو و"أنتونينا"، وهي تداعب بعصبية طرف منديلها، على الدرجات الأمامية، يحدقان في النافذة الساحرة. كان كاهن الرعية، رجلاً أحدب أشعث، يُلقّب ـــ تيمناً بإحدى عباراته

المأثورة ـــ الأب "حسنًا، حسنًا". جعله الكاهن يتلو "الأبانا" و"السلام عليك يا مريم" و"قانون الإيمان"، وكافأه بصورة مقدسة. ذكّرته السيدة العذراء في الصورة بالسنونو الذي يعشش فوق سلالم القش وفي عوارض الحظيرة. ثوب أزرق، وجه برونزي، محاط بهالة من ذهب حقيقي. احتفظ بالصورة في تقويم، يقترب من ألوانها ببهجة كلما تصفحه.

لم يجد صعوبة تذكر في تعلم التعليم المسيحي، على الرغم من أن تعاطفه لم يكن موزعًا بالتساوي. أولاً جاء الرب الآب، ملتحيًا عابسًا يشمخ فوق السحاب. ثم يسوع، بنظرته الوديعة، وإصبعه يشير إلى قلب تتشعب منه الأشعة ـــ لكن يسوع قد عاد إلى السماء، وهكذا كان هو أيضًا بعيد المنال. ولكن ليس الروح القدس، تلك الحمامة الحية أبدًا التي تطلق سهام النور على رؤوس الناس. وبينما كان يستعد للاعتراف، كان يصلي للروح القدس أن يحوم فوقه ـــ فقد كان من الصعب جدًا تتبع المرء لخطاياه. كان يعدها على أصابعه، فيفقد العد، ويضطر إلى البدء من جديد. وهو يلامس بشفتيه الشبكة البالية المصقولة لكرسي الاعتراف، ويصغي إلى أنفاس الكاهن الثقيلة، كان يسرد القائمة بأسرع ما يمكن. ولكن بحلول الوقت الذي يصل فيه إلى أسوار السويديين، كان الشك يداهمه فجأة، فيبطئ خطاه، وينفجر باكيًا في الممر، وقد امتلأ يأسًا، ركض إلى جدته: ماذا يفعل بكل الخطايا التي نسيها؟ قالت له أن يعود، فبكى بحرقة أشد، الآن من الخزي. وفي نهاية المطاف، أخذته من يده وأحضرته إلى الكاهن. كان لوجودها أثر مهدئ، ورغم أنه كان محرجًا، إلا أنه كان أفضل من مواجهة الأمر بمفرده.

منذ البداية إذن، كان لدى توماس مقومات ما يسميه اللاهوتيون "الضمير الموسوس"، وهو السبب، في رأيهم، في كثير من انتصارات الشيطان. ورغم محاولته ألا يغفل شيئًا، إلا أنه كان حريصًا دائمًا على عدم إدراج سر معين بين خطاياه. ولأنه غير قادر على رؤيته من الخارج، لم يتخيل أبدًا أنه كان ملكه هو و"أونوتي أكونيس" معًا ـــ وأنه كان موجودًا، إذا جاز التعبير، بمعزل عنهما، بمعنى أنه قد اُخترع قبلهما. لقد تجاوز الأمر المألوف بكثير ـــ كاستخدام لغة بذيئة، على سبيل المثال، أو التلصص على الفتيات وهن يسبحن عاريات في النهر، على الغربان السوداء تحت سرُرهن، أو إخافتهن ليالي السبت عندما كن يجلسن القرفصاء في البستان بين الرقصات ويرفعن تنانيرهن.

بالانزلاق بعيدًا عن رفاق اللعب، كان هو و"أونوتي" ينسحبان إلى مخبئهما السري على نهر إيسا، يزحفان على أربع عبر نفق من أشواك الزعرور ثم يتفرعان ـــ كان على المرء أن يعرف المكان

بالضبط. هناك، على تلة رملية، محتميين بأمان في عزلة، يجذبهما الخطر، كانا يتحادثان بأصوات خافتة ويستمعان إلى تلاطم الأسماك، وضربات مضارب الغسيل، ودمدمة عجلات العربات على الطريق. عاريين، ورأسيهما متقابلين والظل يسقط على ذراعيهما، كانا يجدان في هذا القصر المنيع ملاذًا أصغر يسكنان فيه في غموض. مثل والدتها (ومثل "بولا")، كانت "أونوتي" ذات شعر أشقر، مضفور في جديلة. وهكذا كان الأمر يتم: تستلقي "أونوتي" على ظهرها، وتسحبه نحوها، وتضغط عليه بركبتيها. وكانا يبقيان على هذا النحو، بينما تتدحرج الشمس عبر السماء، وكان يعرف طوال الوقت أنها كانت تنتظر، تنتظر أن يلمسها، وقد جعله ذلك يشعر بحلاوة تسري في جسده كله. ومع ذلك، لم تكن هذه أي فتاة، بل كانت "أونوتي"، وما كان لشيء أن يغلبه على الاعتراف بسرهما.

تناول القربان المقدس في الصباح الباكر، على معدة فارغة، جعله يشعر بالدوار وأصابه بتقلصات في المعدة. عاد صاعدًا في الممر من المناولة ويداه متقاطعتان على صدره وعيناه مثبتتان على أطراف حذائه. كان من الصعب تصور الرقاقة الملتصقة بحنكه ــــ والتي كان لسانه يزيلها بخجل ــــ كجسد يسوع. لكنه تغير بشكل ملحوظ بسببها: ليوم كامل كان في الواقع هادئًا وحسن السلوك. أكثر ما أثار خياله هو كلمات الكاهن التي تقارن الروح بغرفة يجب تنظيفها وجعلها جديرة باستقبال ضيفها. تخيل أنه بعد أن تذوب الرقاقة، تلتئم لاحقًا في الروح، وتعود إلى مكانها في الكأس الذي يقف بين الخضرة على المذبح. أن يكون هو، توماس، محظوظًا بحمل مثل هذه الغرفة ملأه بالفخر، وكان حريصًا على عدم تلويثها أو إتلافها.

كان اليوم يقترب، كما وُعد، الذي سيصبح فيه فتى مذبح. بل إنه بدأ في حفظ تلك الردود اللاتينية الغامضة، عندما نُقل القس العجوز فجأة إلى رعية أخرى. الكاهن الجديد ــــ شاب، مهيب، ذو ذقن بارز، وحاجبين متصلين عند جسر أنفه ــــ أثار قلق الناس باندفاعه. أبقى على أولئك الذين كانوا بالفعل فتيان مذبح ورفض قبول أي جدد، إذ كانت لديه واجبات أكثر أهمية ليحضر لها.

كانت عظاته بعيدة كل البعد عن تلك الثرثرة التي لا نهاية لها، المليئة بالتلعثم، وذلك "حسنًا، حسنًا" الرتيب الذي اعتاد عليه أهل "غينه". على الرغم من أنهم لم يتمكنوا دائمًا من متابعتها، إلا أن توماس، مثل أي شخص آخر، كان يتجمد ترقبًا عندما يصعد الكاهن الجديد إلى المنبر. كان يبدأ بشكل غير رسمي، بصوت بالكاد يعلو على الهمس، ولكن سرعان ما كان يرتفع، على فترات منتظمة، إلى صوت عالٍ ومدوي، وكان الأثر موسيقيًا. ثم جاء رفع الذراعين والزعيق الذي جعل جدران الكنيسة

ترتجف. كان يزمجر ضد خطاياهم، وإصبعه يشير إلى الحشد، وكان الجميع يرتعدون، معتقدين أنهم هم موضوع غضبه. ثم ـــ صمت مفاجئ، وهو يقف، محمر الوجه ومثارًا، ويحدق؛ مستندًا على حافة المنبر، انحنى وفي صوت منخفض، مهدئ، من القلب إلى القلب قدم لهم رؤى السعادة التي تنتظر أولئك الذين خُلصوا. عند تلك النقطة، بدأ مستمعوه في النشيج. وسرعان ما بدأت شهرة الأب "بيكفا" تنتشر خارج "غينه" والقرى المجاورة، وبدأ الناس من خارج الرعية يأتون إليه للاعتراف، وكان دائمًا محاطًا بالمناديل، ويُنظر إليه وهو ينحني منخفضًا في كل مرة تذهب فيها معجباته لتقبيل وشاحه أو يديه.

كانت زوجة "أكونيس" تعشقه، وكذلك الخادمات، وقبل كل شيء "أنتونينا" ("عندما ينظف خطاياك"، تنهدت، "فكأنما كان يفرك داخلك بفرشاة من صلب"). حتى الجدة، على الرغم من معارضتها من حيث المبدأ للعظات الليتوانية، أصبحت من أتباعه بعد سماع إحدى خطبه باللغة البولندية. لكن الحماس لم يدم طويلاً. الآن، كان تفاخر النساء أمام الغرباء بأن شرفًا عظيمًا قد مُنح لـ"غينه" مصحوبًا بعبوس، وكن يغيرن الموضوع على الفور. ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى أدرك توماس وأطفال القرية أنه من الأفضل الابتعاد عن بيت القسيس.

14

سُلّم نعش "مجدلينا" إلى المقبرة قبل أيام قليلة من عيد انتقال السيدة العذراء. كان النعش، المغطى ببطانية مزخرفة، يرقد في عربة كبيرة على فراش من القش. متوقفين في ظل أشجار الزيزفون، دفنت الخيول رؤوسها في أكياس العلف، والتهمت الشوفان، وأبعدت الذباب بنعاس. انتشر الخبر بسرعة لدرجة أنه لم يكد السائق يربط اللجام بالسياج حتى بدأ الناس يتجمعون ترقبًا. ظهر الأب "بيكفا" على ممر البلاط الأملس في أعلى التل ـــ ساكنًا، كأنه غير قادر على تحديد ما إذا كان سينزل، كأنه يستجمع قواه. أخيرًا، بدأ في النزول، ببطء، ليتوقف مرة أخرى، ويخرج منديله، ويقف هناك، يلفه ويعصره في أصابعه.

استمرت الفضيحة المتعلقة بـ"مجدلينا" حوالي ستة أشهر، ولم يكن لديها من تلومه سوى نفسها. ورثها "بيكفا" كمدبرة لبيت القسيس، وكانت علاقتهما خاصة تمامًا ـــ فالكاهن بشر في النهاية ـــ حتى بدأت تتصرف بشكل غير لائق، تتبختر وذقنها مرفوع وتتمايل بخصرها كراقصة. كانت تجد

متعة واضحة في التباهي بنفسها أمامه، وفي إلقاء التلميحات لتنبيه النساء الأخريات: قد تقبلن يديه وأثوابه، لكنني أملك كل شيء منه. قادت الكلمات إلى رؤى ـــ كيف كان الرجل الذي يقف أمام المذبح يرقد معها عاريًا في السرير، والمحادثات، ولحظات الألفة صحيح، يمكن غفران الكثير في مثل هذه الأمور، طالما أن المرء لا تطارده كل أنواع الصور.

بالنظر إلى سلوك "مجدلينا" قبل ذلك (فقد خدمت لمدة عامين كمدبرة منزل للقس العجوز)، سرعان ما اكتشف سكان "غينه"، بعد نقاش طويل، مخالفات أخرى. هل فشلت خطط زواجها وتزوج خطيبها على الفور من شخص آخر بسبب سنها ـــ كانت على وشك الخامسة والعشرين في ذلك الوقت ـــ أو حتى لأنها كانت فقيرة، ابنة فلاحين لا يملكون أرضًا؟ خطيبها، ضد نصيحة الجميع، وضد رغبات والديه، كان مستعدًا للزواج منها، من الواضح بسبب قوى "مجدلينا" الخاصة. ولكن في اللحظة الأخيرة، خائفًا من طبيعتها العاطفية، غير رأيه. وبالمثل، بدأت أشياء أخرى، واحدة تؤكد الأخرى، تظهر في ضوء جديد. ولأولئك الذين لا يزال لديهم أي شكوك، كان هناك الآن النعش.

لأن "أنتونينا" كانت تبصق في كل مرة تلفظ فيها اسم "مجدلينا"، كان توماس، على الرغم من أنها لم تفعل شيئًا لتستحق ذلك، متحاملاً عليها بالفعل. كلما جاء إلى بيت القسيس لزيارة الأب "حسنًا، حسنًا"، كان يُستدرج إلى المطبخ ويُعامل بقطعة من الكعك. بل إنه كان مفتونًا بها، ويشعر بغصة في حلقه عند رؤيتها. عندما كانت تنحني فوق الموقد لتتذوق أحد أطباقها بملعقة، كانت تنانيرها (كانت تضيق خصرها بشدة) تحفيف، وتنزلق خصلة من شعرها على أذنها، ويتحرك ثدي داخل بلوزتها. على الرغم من أنها لم تكن تدرك ذلك، إلا أنهما كانا متحدين لأنه كان يعرف كيف تبدو. صحيح، لقد اعترف بالخطيئة، لكنه رآها ـــ من مجثمه المورق على شجرة منخفضة على النهر، وقلبه يتسارع، متسائلاً ما إذا كانت ستأتي يومًا، ونهر إيسا يتحول ببطء إلى اللون الوردي عند غروب الشمس، والأسماك تقفز كان يمد عنقه إلى سرب من البط عندما ظهرت، تختبر الماء بقدمها. دخلت الماء ليس كعجوز تقفز مرة أو مرتين مع دفقة، ولكن ببطء، خطوة بخطوة، وثدياها مبسوطان، ليس أسودين جدًا تحت البطن، أشبه بلطخة. وهي تركل نافورة عرضية أثناء سيرها، سبحت ككلب إلى زنابق الماء، ثم عادت وغسلت نفسها بالصابون.

كان توماس مصدومًا ومحتارًا من كل هذه الثرثرة. كان من غير المعقول بالنسبة له أن يكون نفس الشخص الذي يزمجر ضد نيران الجحيم هو نفسه خاطئ. إذا كان الشخص الذي يمنح الغفران لا

يختلف عن أي شخص آخر، فما فائدة الغفران؟ (مثل هذه الأسئلة لم تُطرح أبدًا علانية). وهكذا اكتسبت "مجدلينا" بالنسبة له سحر الأشياء المحرمة. لكن الكبار كانوا حانقين عليها؛ كانوا قادرين على التمييز حيث لم يكن توماس قادرًا: المرأة شيء، والكاهن في رداء كهنوتي شيء آخر. لقد خرقت العهد، وأقضت مضاجعهم، وأفسدت عليهم متعة الاستماع إلى العظات.

نزل الأب "بيكفا"، ترافقه النظرات، من التل. ماذا يريدهم أن يفعلوا بالنعش؟ بينما كان يقترب من العربة، نظروا في الاتجاه الآخر. كانت الدموع تسيل على خديه، وشفتاه مضمومتان لمنعهما من الارتعاش. لم يفتح فمه إلا مرة واحدة، وذلك ليطلب أن يُحمل الجثمان إلى الكنيسة من أجل الدفن المسيحي الذي كان ينوي أن يقيمه لها. أُزيلت البطانية، فكشفت عن نعش من خشب الصنوبر الأبيض. رفعه أربعة من القرويين على أكتافهم وبدأوا في صعود التل، بحيث وقفت "مجدلينا" مستقيمة تمامًا.

15

يتطلب الأمر شخصًا يائسًا إلى حد ما لابتلاع سم الفئران، استسلامًا لأفكار المرء الخاصة بشكل كامل لدرجة تجعله غافلاً عن كل شيء سوى مصيره. ربما عاشت "مجدلينا" لتعرف العديد من المدن والبلدان والناس والاختراعات والكتب وكل تجسيدات العمر. ربما، ولكن حاول أن تشرح لها ذلك، حاول أن تثبت بموجة من العصا أنه كان هناك الملايين من النساء في نفس محنتها. ما كان لشيء أن يوقفها، ولا حتى يأس كل أولئك الذين، في اللحظة التي كانت تنهي فيها حياتها، كانوا يقاتلون من أجل ساعة أخرى، دقيقة أخرى. بمجرد أن يستسلم العقل، بمجرد أن يجد الجسد نفسه وجهًا لوجه مع الرعب الأسمى، يكون الأوان قد فات بالفعل.

ولا ينبغي للمرء أن يتجاهل حالتها المضطربة قبل رحيل القس العجوز بوقت قصير. كان خطيبها قد فسخ الخطوبة، مما أصابها بالخدر، وأقنعها بأن شيئًا لن يتغير أبدًا، وأن الأمور ستبقى على حالها بشكل لا رجعة فيه. تمردت على مثل هذا المستقبل ــــ يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر، عامًا بعد عام، حتى تستيقظ لتجد نفسها عانسًا عجوزًا. عند الفجر كانت تستلقي في السرير، مرعوبة من فكرة النهوض والذهاب للقيام بأعمالها اليومية. وهي جالسة على حافة السرير، كانت تحتضن ثدييها؛ مرفوضين مثلها، سيشاركانها حياتها العزوبية ويذبلان في عطلة. ثم ماذا؟ التعلق بالفتيان في

الرقصات القروية، الذهاب للتقلب في القش، أن تصبح فريسة لنكاتهم القذرة؟ بحلول الوقت الذي تولى فيه الأب "بيكفا" بيت القسيس، كانت قد أوصلت نفسها إلى حالة من اليأس المطلق.

عندما تكون على أرجوحة، تأتي لحظة من السكون المعلق، يتبعها اندفاع خاطف للأنفاس إلى الأسفل. بالنسبة لـ"مجدلينا"، تغيرت الأرض والسماء فجأة؛ الشجرة في الخارج، حتى الغيوم، فقدت ألفيتها القديمة، وبدا كل شيء حي مشبعًا بالذهب الخالص. لم تحلم أبدًا بأن الحياة يمكن أن تتجلى بهذه الصورة. كانت ستكافأ على معاناتها؛ وحتى لو كان ذلك يعني ألمًا أبديًا، فقد كان الأمر يستحق ذلك. ولم ينبع أقل جزء من ابتهاجها من كبريائها المشبع: فقيرة وأمية كما كانت، فقد اختارها رجل متعلم، رجل يفوق الجميع قامة ورأسًا.

ثم ـــ ويجب أن يؤخذ هذا في الاعتبار ـــ طُردت إلى العراء، هذه المرة إلى الأبد. "بيكفا"، مدركًا للفضيحة ومضطرًا للاختيار، وجد لها وظيفة مدبرة منزل مع قس في رعية بعيدة جدًا لدرجة أن الجميع رأوا أن الانفصال نهائي. في ذلك المنزل المطل على البحيرة، مع رجل عجوز متذمر فقط كرفيق، لم تنتظر "مجدلينا" طويلاً قبل أن تستسلم لليأس المظلم ـــ يأس عرفته قبل فترة سعادتها القصيرة. ابتلعت سم الفئران بينما كانت الريح تصفر في القصب، وآثار من الرغوة البيضاء كانت تتناثر على الشاطئ، والأمواج تلطم القوارب الراسية عند المرسى.

رفض قس الرعية الأخرى دفنها، وغسل يديه من الأمر بالتبرع بعربته، وبضعة خيول، وسائق.

رحلة "مجدلينا" الأخيرة ـــ قبل أن تدخل ذلك العالم حيث كانت سيدات من طبقة راقية من عصر غابر في استقبالها ـــ بدأت في الصباح الباكر. تحت سحب صوفية كانت الخيول تهرول بنشاط، والرجال يقفون يشحذون مناجلهم للحصاد الثاني، ورنين الميماس يقرقع على المعدن. ساروا على طريق رملي، عبر بساتين من العرعر والصنوبر، ثم صعدوا التل قبل أن يصلوا إلى مفترق طرق يطل على ثلاث مسطحات مائية، متصلة بمشابك خضراء كقلادة من الأحجار الشفافة. مرة أخرى نزلوا إلى الغابة ـــ إلى شارع قرية، حيث أمضت "مجدلينا" ساعات الظهيرة تحدق في أوراق شجرة قيقب قديمة، حتى بدأت ظلال المساء تسقط وخفت الحرارة وحان وقت استئناف الرحلة. قفزت عجلات العربة عبر السد المغطى بالجذوع؛ وبعد فترة وجيزة، بدأت طيور السمن حفلها المسائي، وتكشفت سماء نجمية بوهج من الأجرام والكونات المتحركة. هدوء هائل، فضاء أزرق عميق ـــ ومن كان ينظر من هناك، هل رأى مخلوقًا صغيرًا وحيدًا اكتشف كيف يوقف نبض قلبه، ودورة دمه، وبإرادته

الخاصة يحول نفسه إلى كائن جامد؟ رائحة حصان، وثرثرة سائق خاملة ـــ وهكذا استمر الأمر حتى وقت متأخر من الليل. جاء الصباح وكانوا يعبرون التلال مرة أخرى، عبر غابات البلوط، والعربة تقترب طوال الوقت من وجهتها. تدريجيًا نزلوا إلى وادي إيسا، بينما عبر الطريق، مع إطلالة على النهر المتلألئ عبر أشجار الصفصاف، كان الأب "بيكفا" يتلو صلاته وينتظر.

يبدأ التحلل بسرعة في الصيف، وتساءل الناس لماذا يؤخر المراسم، كما لو كان غير راغب في تسليمها إلى الأرض. ومع ذلك، لم تُشم أي رائحة كريهة عندما حان وقت رفعها من العربة ـــ وهي حقيقة أُشير إليها على النحو الواجب لاحقًا. دفنها الكاهن على مشارف المقبرة، على المنحدر، حيث كانت التربة الرخوة مثبتة في مكانها بمجموعات من الجذور.

كانت عظة الأب "بيكفا" في عيد انتقال السيدة العذراء موجزة، وأُلقيت بصوت هادئ وثابت. وصف كيف أن تلك التي كانت بلا عيب قد ارتفعت إلى السماء، ليس بروحها فقط بل بجسدها كله، تمامًا كما كانت على الأرض؛ كيف في البداية كادت قدماها أن تلامسا العشب، ثم كيف صعدت ببطء دون أن تحركهما، أعلى وأعلى، والنسيم يداعب ثوبها الطويل، كما كان يُرتدى في يهودا في ذلك الوقت، حتى أصبحت بقعة دقيقة بين الغيوم؛ وكيف مُنحت ما سنكافأ به نحن الخطاة ـــ إذا كنا جديرين ـــ في وادي يهوشافاط؛ وكيف، بكل حواسها الأرضية وفي حوزتها شباب أبدي، تشاهد الآن وجه الله القدير.

بعد ذلك بوقت قصير، غادر الأب "بيكفا" "غينه"، ولم يُسمع عنه مرة أخرى.

16

بين النساء كان الأمر موضوع ثرثرة في الأفنية الخلفية. أما الرجال، من ناحية أخرى، فقد التزموا الصمت؛ وعيونهم مثبتة على قليل من التبغ، كانوا يلعقون الورق ويتظاهرون بتركيز كل انتباههم على الأمر الذي بين أيديهم. مع الثرثرة جاء قلق متصاعد، على الرغم من أن الناس لفترة من الوقت اكتفوا بالتأمل في الأمر. وبينما كان يتأمل الأمر، كان حريصًا على تجنب استخدام تعابير خطيرة معينة.

الشخص الذي أسهم أكثر من غيره في انتشار الشائعات كان الكاهن الجديد، الأب "مونكيفيتش"، رجل ممتلئ، أصلع، ومضطرب الأعصاب، بالكاد كان يستطيع احتواء قلقه عندما لم يجد تفسيرًا

طبيعيًا لطرق مستمر على الحائط (دائمًا ثلاث طرقات متتالية). بعد كل ما سمعه، لم يكن مرتاحًا أبدًا في منزله؛ لم تعد أعصابه تحتمل أيًا كان ما يتجلى في كل هذا الطرق. عند سماع صوت يد على مزلاج الباب، كان يقفز، يفتح الباب، ليجد أنه لا يوجد أحد هناك. كان يأمل أن تتوقف هذه التدخلات الغريبة من تلقاء نفسها، لكن الأمور ازدادت سوءًا. دُعي شماس الكنيسة للنوم في بيت القسيس، ومنذ تلك اللحظة، لم يعد هناك مجال للشك. الأب "مونكيفيتش"، وقد خرج عن طوره، ناشد القرويين المحليين، وفي الليل، كانوا يقفون حراسة في المطبخ، في مجموعات من اثنين وثلاثة.

يبدو أن شبح "مجدلينا" كان يكره مغادرة المكان الذي عرف فيه السعادة. باستخدام ساطور غير مرئي، كان يشق جذوعًا غير مرئية ويشعل نارًا تتفرقع وتشتعل كالنار الحقيقية. كان يحرك المقالي، ويكسر البيض، ويقليه على موقد بارد وفارغ. ما الذي استخدمه كأدوات وأواني؟ أم كانت هذه مجرد أصداء، سجل كامل من الأصوات التي تقلد الطبيعة؟ أم أن للشبح مدخلاً إلى مطبخ آخر، مطبخ مجهز بدلو كوني، ومقلاة كونية، وكومة حطب كونية، ليست سوى جوهر كل الدلاء والمقالي وجذوع الأشجار التي كانت موجودة على الإطلاق؟ لغز ـــ لا يسع المرء إلا أن يكون يقظًا ويحاول ألا يصدق أدلة حواسه. حتى الماء المقدس لم يكن له أي أثر. رش الكاهن الماء، فكان هناك هدوء، ولكن ليس لفترة طويلة، لأنه استأنف بعد ذلك، كل ليلة بصوت أعلى وأكثر تطفلاً، وأحيانًا على صوت رش الماء وقرقعة الأواني والمقالي. والأسوأ من ذلك، أن التدخلات الغامضة سرعان ما انتقلت إلى غرفة النوم. إلى الطرق المستمر والعبث بمزالج الأبواب، أضيفت خطوات أقدام، وصوت أوراق وكتب تُلقى على الأرض، وشيء آخر ـــ شيء يقترب من ضحك مكتوم. رسم الأب "مونكيفيتش" علامة الصليب، راشًا زاوية أولى، ثم أخرى ـــ لا صوت؛ ولكن بمجرد أن وصل إلى الرابعة، كان يسمع ضحكًا خافتًا، يليه نوع من الصفير الذي يُصدره النفخ في قشرة جوز مجوفة.

انتشرت أخبار الحوادث بسرعة إلى القرى المجاورة، ولو لم يجعل أهل "غينه" الأمر شأنهم الخاص، لما كان هناك ثلاثة منهم يجلسون ليلاً في المطبخ بل ثلاثمئة. ممنوعين من الدخول، انغمس الغرباء في الثرثرة حتى عجت الرعية بأشد الشائعات جموحًا.

كان "بالتازار" هو الذي ساعد في إقناع الناس بأن شبح "مجدلينا" قد تجاوز منزل الكاهن. ربما كانت قصته قد رُفضت باعتبارها سخيفة، أو عُوملت بتلك السذاجة المصطنعة التي يوافق بها المرء على حكايات السكارى حتى لا يخاطر بإهانتهم ـــ لولا تفصيل واحد. زعم "بالتازار"، لا أقل، أنه

رأى "مجدلينا" تمتطي حصانًا أبيض من المقبرة إلى النهر. كانت عارية تمامًا، كما قال، وكلاهما، هي والحصان، كانا يتوهجان في الظلام. عندما تجمع حشد لاحقًا في منزل حماه، كرر القصة، مستاءً من أدنى تلميح بأنه ربما كان يتخيل الأمور. اقترح أحدهم الذهاب إلى إسطبل القس لمعرفة ما إذا كان حصانه الأشهب هناك. وبالفعل، وجدوه — يلهث وقد تغطى بالزبد كأنه عاد للتو من عدو طويل.

بطبيعة الحال، كان القصر كله في حالة هياج بسبب الأخبار، التي كانت "أنتونينا" تنقل دفعة جديدة منها يوميًا. "كم هو فظيع"، كانت تقول الجدة "ميسيا"، وهي في سرها مبتهجة بهذه المقالب من العالم الآخر، كانت تدعو الكاهن لتستمع إلى سلسلة من ويلاته. وهو يرشف بصوت عالٍ شاي أوراق الفراولة، كان يعترف بنظرة قلقة بأن صحته تتدهور، وأنه ما لم تتوقف هذه التجليات فسيطلب نقله إلى رعية أخرى، وسيكون انتصار الجدة كاملاً؛ وضمنيًا في قولها "أوه، كن جادًا يا أبي!" كان هناك تبرئة مرحة، بما أنها، في النها-ية، كانت في صف الأرواح، لا الرجال.

ثم نشأت حادثة أخرى، هذه المرة قريبة جدًا من المنزل. في أحد الأيام، سُمح لتوماس بالدخول إلى غرفة نوم "شاتيبيلكو" عندما كان الوكيل قد تعافى تقريبًا من مرض مفاجئ، فأصابت توماس القشعريرة. الرجل المريض، ولحيته منتشرة كالمروحة على اللحاف، وكلبه ملتف على سجادة بجانب السرير، لم يتمكن من حشد سوى بضع كلمات بصوت ضعيف. على الرغم من أن "موبسي" قد أهان نفسه — فقد هرب، وذيله المبتور مدسوس بين ساقيه — إلا أن الرجل العجوز لم يحمل له ضغينة. ما حدث كان كالتالي: خلال موسم الدرس، كانت آلة المرجل متوقفة في السقيفة بجانب الحظيرة، وبعد انتهاء العمل اليومي، كان حزام النقل الثمين يُخزن في السقيفة، تحت قفل ومفتاح. في ذلك المساء، كان "شاتيبيلكو" قد استقر بالفعل مع نعليه وغليونه عندما استولى عليه الشك فجأة: هل أدار المفتاح في القفل أم لا؟ أن لا يتذكر كان كافيًا ليصيبه بالتوتر. أخيرًا، خائفًا من أن يسرق أحدهم الحزام، وهو يلعن تحت أنفاسه، ارتدى حذاءه، وارتدى معطفه من جلد الغنم، وأمسك بالفانوس، وتخلى عن غرفة دافئة من أجل البرد والمطر في الخارج. كان الظلام دامسًا لدرجة أنه لم يكن يرى سوى البقعة التي يضيئها الفانوس. وكما اشتبه، كانت السقيفة غير مقفلة. دخل إلى الداخل، وضغط نفسه عبر الممر الضيق بين الجدار والمرجل، وتفقد: كان الحزام لا يزال هناك. ولكن بينما كان على وشك العودة، زاره وحش. وصفه "شاتيبيلكو" بأنه نوع من جذع شجرة وعر يتحرك جانبيًا، على مستوى الأرض، ومركب عليه ثلاثة رؤوس — كلها بملامح تترية، كما قال — تكشر عن أنيابها في

تكشيرات بشعة. بينما كان الغول يتقدم ببطء، رسم علامة الصليب وبدأ في التراجع إلى السقيفة، مدركًا أنه بذلك يقطع على نفسه طريق الهروب الوحيد. لذا، وهو يلوح بالفانوس، حاول المناورة حوله وفي أثناء ذلك داس على جسد الوحش ــــ جسد "ناعم ككيس من القشر"، كما قال لاحقًا. وبمجرد خروجه، أراد أن يركض، لكنه لم يجرؤ على إدارة ظهره للمخلوق. خطوة بخطوة، تراجع عبر الفناء الذي يفصل بين مباني المزرعة وباب منزله، والرؤوس الجهنمية الثلاثة تلتوي وتتلوى باستمرار على ذلك الجذع الذي لا أرجل له ــــ وهو يلهث، سقط على عتبة بابه الأمامية. لم تدم الحادثة بأكملها أكثر من ربع ساعة، ولكن على الرغم من صحته الجيدة السابقة، أصيب فجأة بالحمى.

زعمت الجدة أنه كان شبحًا لمحمدي، ينحدر من التل المعروف باسم مقبرة التتار. (لولا هذا الاسم، لكانت كل ذكرى لأسرى الحرب التتار الذين عملوا في "غينه" قبل قرون قد تلاشت). ولكن لماذا الآن ــــ إلا إذا كان أحدهم قد حرضه على ذلك، وأمره بزرع المزيد من الاضطراب؟ ومن عساه يكون ذلك الشخص إن لم تكن "مجدلينا"، التي تقود قوى تحت الأرض.

مع مرور الوقت، أدت كل هذه الحوادث إلى توتر العلاقات بين الأب "مونكيفيتش" والقرية. الآن بعد أن اتفق الجميع على السبب، جادلوا منطقيًا بأن ما تبقى هو إزالة السبب. في البداية ألمحوا إلى ذلك في حضوره، بحذر، معتمدين على الأمثال والعبارات الملتوية. وعندما لم يفلح ذلك، صرحوا مباشرة وأعلنوا أن الوقت قد حان لوضع حد لكل هذه الأمور المخيفة، وأن هناك طريقة واحدة فقط للقيام بذلك. لوح الكاهن بذراعيه وصرخ بأنه لن يتغاضى عن ذلك أبدًا، أبدًا، وندد بهم على أنهم وثنيون. وبمجرد أن اتخذ قراره، كان مصممًا. كان هناك من كانوا يؤيدون المضي قدمًا على أي حال، بموافقته أو بدونها، على الرغم من أن لا أحد يعتقد أنهم سيجرؤون على ذلك. طريق مسدود. في غضون ذلك، جاء كاهن آخر إلى بيت القسيس. خلال إقامته القصيرة، أُديت طقوس طرد الأرواح الشريرة.

17

كان توماس خائفًا من البقاء في الخارج بعد حلول الظلام ــــ حتى وقت حلمه. كان حلمًا عذبًا وقويًا، ولكنه كان مرعبًا أيضًا، وكان من المستحيل تحديد أي من هذه المشاعر ساد. لم تستطع الكلمات وصفه، لا في صباح اليوم التالي، ولا لاحقًا. لا يمكن للكلمات أن تجسد ذلك المزيج من الروائح، تلك

الصفات التي لا توصف التي تجذبنا إلى أناس معينين، ناهيك عن الإحساس بالسقوط في بئر، بالإبحار مباشرة إلى الجانب الآخر من الوجود.

رأى "مجدلينا" في الأرض، في عزلة الأرض الشاسعة، حيث كانت تسكن لسنوات وستستمر في السكن إلى الأبد. كان فستانها قد تعفن، وامتزجت خرق القماش بالعظام الجافة، بينما كانت خصلة الشعر التي كانت تنسدل على خدها وهي تنحني فوق موقد المطبخ ملتصقة الآن بجمجمتها. ولكن في نفس الوقت كانت قريبة منه، تبدو تمامًا كما كانت في ذلك اليوم الذي رآها فيه تخوض في الماء، وكان هذا الالتحام بمثابة إدراك لزمن آخر. كان لديه نفس الغصة في حلقه، وشكل ثدييها وعنقها لم يتغير، بينما تحول لمسها إلى نوع من الرثاء: "أوه، لماذا يجب أن أتلاشى، لماذا يجب أن تتلاشى ذراعي وساقاي؟ لماذا أنا حية، ولكن لست حية ـــ أنا، التي عشت ذات مرة، مرة واحدة فقط، من بداية العالم حتى نهايته؟ أوه، السماء والشمس ستظلان هناك عندما أذهب منذ زمن طويل. فقط هذه العظام ستبقى... أوه، لا شيء، لا شيء لي." ومعًا غاصا في الأعماق الصامتة تحت قشور الأرض الكثيرة، حيث تشق الديدان طريقها وتنزلق الحصى؛ ولكن الآن كان هو الذي يتحول إلى حفنة من العظام المتعفنة، يندب من خلال شفتي "مجدلينا"، ويكتشف أسئلة مثل "لماذا أنا أنا؟ لماذا قُدر لي أن أموت، أن أتوقف عن كوني نفسي، بينما أمتلك جسدًا، دفئًا، يدًا، أصابع؟" أو ربما لم يكن حلمًا، لأنه حتى وهو مستلقٍ في القاع، تحت سطح الواقع، كان لا يزال يشعر بذاته الجسدية ـــ ذاته المحكوم عليها بالفناء، المتفككة، وما بعد الموت؛ وحتى وهو يشارك في الفناء، أدرك أن الشخص في الأسفل هو نفسه الشخص في الأعلى. استيقظ وهو يصرخ. لكن الأشياء التي تحددت معالمها في الظلام أصبحت الآن جزءًا من الكابوس، تتحدى التعريف. غرق على الفور مرة أخرى في نفس الهذيان، نفس الرؤى كما كان من قبل، ولكن في تنويعات جديدة دائمًا. جاء الفرج عند الفجر. بقلق، فتح عينيه؛ كان عائدًا من أماكن بعيدة. تدريجيًا، أضاء الضوء العارضة التي تربط أرجل الطاولة ـــ المقعد، الكرسي. يا له من ارتياح أن يعيد اكتشاف عالم الأشياء الحقيقي، الأشياء المصنوعة من الخشب والحديد والطوب، صلبة وممتلئة وخشنة الملمس. الأشياء التي كان قد ازدراها بالأمس فقط أصبحت الآن مشهدًا مرحبًا به، كنزه الخاص. متع عينيه بكل العقد والشقوق والصدوع. من ذلك العالم الآخر لم يتبق سوى دوار لذيذ، ذكرى أراضٍ لم يحلم بوجودها قط.

منذ ذلك الحين، أقسم ألا يصرخ أبدًا إذا اقتربت منه "مجدلينا" في الظلام، واثقًا من أنها لن تؤذيه. بل إنه كان يتمنى في بعض الأحيان أن تظهر، على الرغم من أن مجرد التفكير في حدوث ذلك كان كافيًا ليصيبه بالقشعريرة — من النوع الجيد، النوع الذي كان يصيبه عندما يمرر يده على شريط من المخمل. ولكن لم يتنفس بكلمة واحدة عن الحلم لأي شخص.

18

ما تم، تم في الخفاء، ومضى بعض الوقت قبل أن يعرف توماس بالأمر، الذي أثار فيه مشاعر من الرعب والحزن الشديد. لم يشارك في المؤامرة سوى شيوخ القرية، حوالي اثني عشر من أصحاب المزارع. اجتمعوا عند المساء وشربوا ما يكفي من الفودكا لتهدئة قلقهم وتقوية شجاعتهم. مُنح الإذن؛ أي أن الأب "مونكيفيتش" قال: "افعلوا ما يحلوا لكم" — وهو إقرار ضمني بأن كل الوسائل المتاحة له قد فشلت. بعد وقت قصير من مغادرة الكاهن الآخر — في تلك الليلة، باستثناء شماس الكنيسة ومدبرة المنزل العجوز، كان بيت القسيس فارغًا، والتوقع هو أن طقوس طرد الأرواح قد خلصتهم من "مجدلينا" — سُمعت صرخة عالية في غرفة النوم، وظهر "مونكيفيتش" عند المدخل، وقميص نومه الطويل ممزق. كانت "مجدلينا" قد نزعت عنه بطانيته وبدأت تمزق قميصه عن ظهره. عندما أصيب لاحقًا بالحمرة، عزا الجميع، بمن فيهم هو نفسه، الأمر إلى نوبة خوف شديدة، لم يكن لها سوى علاج فعال واحد: التعاويذ السحرية. استُدعيت امرأة طبيبة لتلقي عليه تعاويذها. كان هؤلاء أناسًا معروفين بامتلاكهم قوى قادرة على طرد أي مرض من الجسد؛ كانت تعاويذهم، الممزوجة بالتهديدات، ومقتطفات من الصلوات المسيحية، وأناشيد أقدم عهدًا، تحتوي على كلمات، بمجرد الكشف عنها، تفقد قوتها على الفور، ومن يعرفها يُسمح له بنقلها قبل الموت إلى شخص واحد فقط. خضع الكاهن لهذه العلاجات على مضض، ولكن من سيقول لا، من سيشك فيها، إذا كانت هناك فرصة لشفائه؟ لحظة ضعف مماثلة، مقترنة بالأمل الخافت في أن يتوقف المس قريبًا، جعلته يرضخ في ذلك الأمر الآخر أيضًا.

أملت التقاليد أن يتم ذلك في الليل. على الرغم من أنها ليست قاعدة بالضرورة، إلا أنها كانت شيئًا يجب أداؤه بوقار معين — بمعنى، قبل كل شيء، في صمت، دون أي متفرجين، بحضور عدد قليل من الأفراد الوقورين والموثوق بهم فقط. بعد اختبار شفرات مجارفهم، أشعلوا فوانيسهم وانسلوا عبر البساتين، منفردين وفي أزواج. كانت هناك ريح قوية، وحفيف أوراق البلوط اليابسة. كانت أضواء

القرية قد أُطفئت بالفعل، فكان الظلام دامسًا والهدوء مطبقًا باستثناء الأوراق. بمجرد أن تجمعوا جميعًا في الساحة الصغيرة أمام الكنيسة، انطلقوا إلى المكان المحدد وشكلوا دائرة بأفضل ما يمكنهم على المنحدر الحاد. كانت ألسنة اللهب داخل فوانيسهم الأسطوانية تتأرجح وتتمايل في الريح.

أولاً جاء الصليب، الذي كان مغروسًا في الأرض بحيث يدوم طالما صمد الخشب، تاركًا فقط الجزء المدفون ليتعفن ويتفتت، وفي النهاية ينهار كله. سحبوه من الأرض ووضعوه بعناية على جانبه. ثم سووا كومة التراب فوق القبر المهمل —— لم تُرَ زهرة واحدة عليه —— وبدأوا العمل في عجلة، حتى لا يطيلوا الغرابة. يُدفن الجسد ليرقد إلى الأبد؛ فتح قبر بعد عدة أشهر لمعرفة ما حدث له هو انتهاك للطبيعة، يوازي زراعة بلوطة أو كستناء ثم كشط الأرض لمعرفة ما إذا كانت قد نبتت. ولكن ربما كانوا يقصدون فقط إثبات بأفعالهم أن إظهار القوة والإرادة كان ضروريًا لمواجهة تلك الأفعال المناقضة للنظام الطبيعي.

أشار صوت الحصى المتناثر إلى أن اللحظة قد حانت. قرقعت مجرفة، لكن الفحص الدقيق بالفانوس أظهر أنها كانت مجرد صخرة. أخيرًا ضربوا الخشب، وحفروا حول النعش، وأزالوا التراب. حتى يتمكنوا من رفع الغطاء. كانت الفودكا قد فعلت ما كان من المفترض أن تفعله، حيث زودتهم بنوع من الدفء الداخلي الذي سمح لهم بالشعور بالتفوق على مخلوقات أقل حيوية منهم، ناهيك عن الأشجار والصخور والرياح العاتية وأشباح الليل.

ما وجدوه أكد شكوكهم. أولاً، لم تظهر على الجثة أي علامات للتحلل على الإطلاق. أفادوا لاحقًا أنها كانت محفوظة جيدًا لدرجة أنها بدت وكأنها دُفنت بالأمس فقط. كان هذا دليلاً كافيًا، إذ لم يُمنح مثل هذه القوى إلا أجساد القديسين والأشباح. ثانيًا، وُجدت "مجدلينا" مستلقية ليس على ظهرها بل على وجهها، وهو ما كان أيضًا علامة. ولكن حتى بدون مثل هذا الدليل، كانوا مستعدين للقيام بالأمر الموصوف. وجود مثل هذه العلامات سهّل مهمتهم فقط، وأراحهم من أي شكوك.

بعد أن قُلبت الجثة، أخذ أحدهم أ คมمجرفة، وبكل ما أوتي من قوة، فصل رأس "مجدلينا". وُضع وتد منحوت من خشب النغت منتصبًا على صدرها وطُرق بالطرف الكليل لفأس حتى اخترقت النقطة قاع النعش وعميقًا في الأرض. بعد ذلك، أمسكوا بالرأس من الشعر، ووضعوه بين قدميها، وأعادوا الغطاء، وأنزلوا النعش مرة أخرى —— الآن مرتاحين لدرجة أنهم كانوا يضحكون، كما يحدث أحيانًا بعد لحظات من التوتر الشديد.

ربما كانت "مجدلينا" مرعوبة جدًا من التحلل، وغير راغبة بشدة في دخول الأبدية لدرجة أنها، مستعدة لدفع أي ثمن، وافقت على مسكونة الأحياء، وفي المقابل مُنحت امتياز الحفاظ على جسدها مصونًا. أقسم الرجال أن شفتيها كانتا قرمزيتين زاهيتين. بقطع رأسها وسحق أضلاعها، وضعوا حدًا لكبرياء جسدها، لذلك التعلق الوثني بشفتيها وذراعيها وبطنها. مثقوبة كفراشة على دبوس، وجمجمتها تلامس نعال الحذاء الصغير الذي أهداها إياه الأب "بيكفا"، لا بد أنها أدركت بالتأكيد أنها، مثل أي شخص آخر، كان مقدرًا لها أن تذوب في عصارات الأرض.

بعد ذلك، لم يُبلغ عن أي اضطرابات أخرى في بيت القسيس، ولم يُسمع أبدًا أن "مجدلينا" أقامت أيًا من عروضها مرة أخرى. ولماذا يجب عليها ذلك، فقد يبدو أنها اكتشفت أنها، بفعالية أكبر من الطهي على مواقد غير مرئية، أو الطرق على الجدران أو الصفير، يمكنها إطالة حياتها ببساطة عن طريق غزو أحلام توماس، كما لم ينسها أبدًا.

19

ذلك الخريف —— الخريف الذي كانت فيه "مجدلينا" تسكن الأرض —— كان هناك حصاد فواكه جيد بشكل استثنائي، ولكن لعدم وجود أي سوق انتهى به الأمر كعلف للخنازير، ولم يذهب سوى أفضل المحصول للتعليب والاستخدام المنزلي. كانت أكوام التفاح والكمثرى تتعفن في العشب، وتجذب الدبابير وأسراب الزنابير. دفع توماس ثمن إحدى هذه الكمثرى بشفة ملتهبة ووجه منتفخ، لأنه بمجرد أن يشق دبور طريقه إلى اللب، كان من الصعب اكتشاف وجوده، وفقط بهز الكمثرى جيدًا يمكنك جعله يظهر بطنه المخطط والنابض. ساعد توماس في قطف الفاكهة بتسلق الأشجار، مسرورًا سرًا بأنه لا أحد من الكبار يستطيع أن يضاهي مهارته في التسلق، بأسلوب القطط، حتى على أنحف الأغصان. وكل عام كان هناك محصول من أنواع جديدة، يحمل كل منها اسمًا مختلفًا: كمثرى السكر، وكمثرى الزبدة، وكمثرى العسل، والبرغموت...

خلال هدوء الصيف والخريف، دخل توماس إلى المكتبة. حتى الآن، هذه الغرفة الركنية، بجدرانها المطلية وحيث كان الجو باردًا حتى في الطقس الحار، فشلت في إثارة فضوله. ولكن بالإلحاح حصل على مفاتيح خزائن الكتب، التي بدأ من أرففها يسحب عجائب جديدة. وكان دائمًا ما يسحب عجائب جديدة. في إحداها، ذات الواجهة الزجاجية، عثر على عدة كتب مصورة مجلدة باللون الأحمر

ومزخرفة بالذهب. ورغم عجزه عن فك طلاسم التعليقات تحت الرسوم ــــ فقد كُتبت بالفرنسية ــــ إلا أنه استنتج أن الفتاة ذات السروال الطويل المزين بالدانتيل تدعى "صوفي". ومن خزانة أخرى، كانت في تجويف بالجدار، تحت شبكة عنكبوت وعدة لفائف من الورق المصفر، استخرج مجلدًا يحمل عنوان "مآسي شكسبير"، الذي قضى بصحبته ساعات طوال على حافة المرج، بجوار سياج أخضر تفوح منه رائحة الطحلب والنعناع البري. كان هذا أيضًا مكان التعشيش المفضل للنمل ــــ ذلك النوع الأحمر الكبير اللاسع ــــ ولم يكن من غير المألوف رؤيته يفرك إحدى ساقيه بالأخرى بغضب. ومن بين قمم أشجار التنوب كان الهواء يتلألأ على الجانب الآخر من الوادي، ومن حيث كان يستلقي كان يرى عربات صغيرة تجرها الخيول تخلف وراءها أعمدة طويلة من الغبار.

كان الكتاب مزينًا برسوم لرجال في دروع يحملون سيوفًا متقاطعة، أو رجال شبه عراة (هل كانت أرجلهم عارية، أم كانوا يرتدون سراويل ضيقة؟) يُطعنون حتى الموت، وكانت الصفحات التي نخرها العفن تنبعث منها رائحة عفنة. مرر إصبعه على صفوف الحروف، ولكن على الرغم من أن النص كان باللغة البولندية، إلا أنه استسلم في النهاية، معترفًا بأن مثل هذه الأشياء ليست إلا للكبار.

أما كتب الرحلات، فقد وجد فيها متعة تفوق سواها. ظهر الزنوج، مسلحين بالأقواس والسهام، واقفين عراة في قوارب من القصب، أو يجرون فرس نهر كان يألفه من كتابه في التاريخ الطبيعي. وكثيرًا ما تساءل عما إذا كانت أجسادهم مخططة حقًا، أم مجرد مطلية، وحلم بمرافقتهم في رحلة طويلة إلى مياه بعيدة، وبين نباتات البردي التي تعلو قامة الإنسان، ببناء قرية منيعة على الغرباء. اثنان من هذه الكتب كانا مكتوبين بالبولندية، فقرأهما كليهما من الغلاف إلى الغلاف (منهما تعلم القراءة، هكذا كان شغفه). وهكذا بدأت حقبة جديدة في حياته.

استخدم أغصان البندق لصنع الأقواس، ولكن ليس تلك الملتوية من التعرض للشمس. بل كان يزحف إلى الأدغال الظليلة، بين طبقات متشابكة من الأوراق اليابسة، حيث كانت طيور صائدة الذباب الصغيرة تطير بحفيف خافت. كانت الشتلات العارية التي تنمو مستقيمة نحو الضوء، دون انحناء بوصة واحدة، هي الأفضل. هذه الكهوف المظلمة شكلت أيضًا مخابئ وترسانات ممتازة لأسلحته.

متسلحًا بسهام محلية الصنع ــــ لمزيد من الثبات، ثبّت عليها ريش الديك الرومي ــــ انطلق في رحلات صيد، يخترع لعبته بحرية، وكثيرًا ما كانت تكفيه رقعة من شجيرات عنب الثعلب. كان موقفه المفضل جسرًا صغيرًا ــــ ليس على البركة السوداء، بل على جسر آخر، يقع بين الجناح المواجه للحديقة

ومباني المزرعة ـــ يُستخدم لتحميل علب الماء. متظاهرًا بأنه في زورق، كان يقف على الجسر ويطلق السهام على البط. وقد أدى هذا ذات مرة إلى تحقيق عندما وُجدت إحدى البطات ميتة في وسط البركة ورفض أن يتحمل اللوم. وبما أن الهنود كانوا معروفين بصيد الأسماك بالقوس والسهم، فقد كان يترصد باستمرار الأسماك على طول ضفاف النهر الضحلة (حتى لا يفقد أي سهام)، لكنها كانت دائمًا تفلت في الوقت المناسب.

في الأيام الماطرة، كان يجلس إلى طاولة صغيرة مثبتة في أرضية الشرفة ويتدرب على رسم السيوف والرماح وصنانير الصيد. وهنا يجب ملاحظة نزعة غريبة لديه، فما كاد يبدأ في رسم قوس حتى يتوقف ويمزق الرسم. كانت الأقواس شغفه العظيم، وبطريقة ما تشكلت لديه فكرة أنه يجب على المرء تجنب إظهار الأشياء التي يحبها، وأنه يجب حمايتها بخصوصية مطلقة.

ذات يوم، أخذته جدته معها إلى العلية وأرته صندوقًا يفيض بكل أنواع الأشياء المتنافرة، معظمها خردة، باستثناء شيء واحد ـــ كتب! كتب مغامرات! كان أحدها عن مسافر متخف على متن سفينة شراعية اختبأ تحت السطح، وأبقى نفسه على قيد الحياة بالخبز اليابس، وكان مهددًا باستمرار من قبل الفئران. الماء الذي وجده لاحقًا في بعض البراميل كان يسمى "ماءً عذبًا". هل يعني ذلك أنه كان محلى بالسكر؟ هكذا تخيل توماس، فكيف يمكنه أن يفسر نشوة الصبي عندما تمكن من حفر ثقب في البرميل؟

أفضل مكان لأحلام اليقظة حول هذه المغامرات وغيرها كان المرحاض الخارجي، الذي كان يقف في نهاية ممر تحميه مظلة من شجيرات الكشمش. كان باب المرحاض يُغلق من الداخل، ويمكن استخدام الفتحة على شكل قلب كثقب للتجسس على أي شخص متجه إلى الخلاء. كانت شقوق قليلة تسمح بدخول ضوء الشمس، وكان هناك دائمًا موسيقى الذباب والنحل والنحل الطنان. بين الحين والآخر، كان نحل طنان مشعر، يطن بثقل، يتجول من الخلف إلى الحفرة (التي استنشق توماس رائحتها بنشوة). كانت الزوايا دائمًا مليئة بالعناكب التي تغزل شباكها، والعارضة الخشبية منقطة ببقع من الشمع المتبقي من الشموع. كانت هناك أيضًا شقوق في الجدران الجانبية، لا يُرى من خلالها شيء، باستثناء أوراق شجرة بلسان سوداء.

برؤية "أنتونينا" تمر بسرعة بجانب القلب في الباب، كان يفيق من أحلام يقظته ويزرر سرواله على عجل. في الطرف الآخر من الممر كانت هناك حفرة قمامة، المكان الذي كانت "أنتونينا" تذبح فيه

الدجاج. شفتاها مجعدتان وخداها منتفخان، كانت تمسك بذراعها الذي يحمل الساطور وتهيئ الدجاجة على الجذع باليد الأخرى؛ وباضطراب خفيف فقط، بدا الدجاج متأملاً، سواء كان ذلك من فضول خامل أو لا مبالاة كان من الصعب تحديدها. لمع الساطور، وتجعد وجه "أنتونينا" بألم، حتى بابتسامة خافتة، ثم شوهدت كتلة من الريش ترفرف بلا هدف على الأرض. ارتجف توماس لرؤيتها، ولأنه ارتجف، ظل متفرجًا عليها. تبين أن إحدى عمليات قطع الرؤوس هذه كانت استثنائية. ديك، طائر ضخم ينتفش بريش ذهبي لامع، حاول أن يطير بدون رأسه، فقط بجذع عنقه الأحمر... يبرز. تسبب طيرانه الخالي من الكلام في أن تسقط "أنتونينا" فكها في ذهول — وفي إجلال، لأن الديك لم يسقط إلا بعد أن اصطدم بجذع شجرة زيزفون.

نادراً ما كان توماس يقوم برحلات صيد أخرى إلى النهر، ونادراً ما كان يركض لرؤية أطفال "أكونيس" — جزئياً بسبب "مجدلينا"، وجزئياً بسبب كتبه. بدت الأماكن الأكثر عزلة على طول نهر إيسا الآن محظورة. أما بالنسبة للصيد بالقوس والسهم، فلم يكن ليشاركه مع أحد رفاقه ويخاطر بالسخرية: لم يكن ذلك كريمًا كفايةً، ليس مثل الصيد أو نحت أنابيب القصب من الصفصاف. كانت هناك بعض الألعاب التي فضل ألا يراها أحد آخر — ألعاب ربما اعتُبرت صبيانية جدًا لصبي في سنه. إحداها كانت لعبة حرب بين جيشين من العصي مزروعين في الرمال، حيث كان توماس يتناوب على قصف جانب ثم الآخر بالحجارة.

20

في أوائل ذلك الشتاء، وصلت الجدة "ديلبين" من "دوربات"، إستونيا، ومارست الغرفة التي نامت فيها جاذبية قوية على توماس. لم تكن أطول منه بكثير، وبشرتها محمرة، كانت، على عكس الجدة "ميسيا"، منهمكة في شؤون الغير بحق. كانت ترتق جواربه وتصلح سرواله، وتدرسه، وتجعله يتلو تعاليمه الدينية. كانت، قبل كل شيء، مختلفة. كانت تدخن السجائر، من النوع الروسي ذي الطرف الطويل، وهي عادة اكتسبتها من القلق المستمر — كما كانت تقول — والتي كانت السجائر وسيلة لتخفيفها. من صندوقها أخرجت صندوق ملابس مسطحًا، كاشفة عن ثروة من العلب الصغيرة والحالات الخشبية، وطرود دقيقة مربوطة بشرائط، وحلي متنوعة ملفوفة بعناية في جرائد.

إن طقس إخراج الأمتعة، لمجرد أنه كان حدثًا نادرًا، حافظ على طابعه الاحتفالي. بالنسبة لتوماس، كان هناك دائمًا بعض الهدايا الصغيرة، بعض الأشياء الجديدة، مثل قطعة من الحبر الصيني الأصلي، شرحت له جدته الغرض منها، على الرغم من أنه كان مفتونًا أكثر بشكلها، ولونها الأسود العميق، وزواياها النظيفة.

منها تعلم، كما لم يحدث من قبل، شيئًا عن طرق العالم. بعد أن أمضت شبابها في "ريغا"، كان بإمكان جدته أن تروي له قصصًا عن الرحلات إلى "ماجورينهوف"، وعن السباحة في بحر البلطيق، وعن الوقت الذي كادت فيه أن تجرفها الأمواج إلى البحر؛ وعن والدها، جد توماس الأكبر، الدكتور "ريتر"، الذي كان يعالج الأطفال ويتنازل عن أتعابه إذا كان والداهم فقيرين؛ وعن شعبيته الكبيرة وسمعته كمخادع عملي، مشهور بتنكره وتقمصه لشخصيات مقنعة لدرجة أن والدته نفسها، وهي تأخذه على أنه متسول، ألقت له ذات مرة عملة معدنية في قبعته. سمع توماس أيضًا أحاديث عن المسرح والأوبرا، وعن بجعات كانت تطفو صعودًا وهبوطًا كأنها محمولة على الماء حقًا. اسم مطربة ــــ أديلينا باتي ــــ كان يُنطق دائمًا مع تنهيدة. كانت تتنهد أيضًا، وهي تسترجع ذكريات الحفلات في "ريغا"، وعن حشود الشباب، والألعاب، والغناء، واللوحات الحية. ناهيك عن الرحلات إلى الريف، إلى عزبة "إمبرودي"، بالقرب من "دونبورغ"، التي كانت تخص عائلة والدتها، آل "مول". وعن رحلات العربات عبر الغابات التي تعج باللصوص، والنزل المنعزلة وأصحابها المتآمرين. وعن "المقصلة" ــــ سرير كانت مظلته تسقط في الليل، فتقتل المسافر الغافل ثم تختفي مع الجثة عبر باب سري في الأرض. وعن كيف، عندما كانت عربة تُنقل بالعبّارة عبر النهر، كانت الخيول تصاب بالذعر وتغرق ركابها. ثم كانت هناك الخادمة في "إمبرودي" التي أخافها الفتيان ذات مرة، حيث وضعوا غلايين تبغ طويلة خلف المرآة ــــ حيث كانت مولعة بالوقوف أمامها ــــ ونفثوا نفثات كبيرة من الدخان في اتجاهها. وذات مرة، وهي نائمة، أخذوا سريرها ووضعوه في البحيرة؛ فاستيقظت لاحقًا وهي تصرخ. ورحلات القوارب على البحيرة، في القارب الشراعي الأبيض... من بين كل الأسماء والحوادث المذكورة، كانت هذه هي التي علقت في ذهن توماس.

كان عليه أيضًا أن يشكر جدته على حكايات "بيتوفْت" ومآثره الهزلية ــــ "بيتوفْت"، الشره غريب الأطوار الذي احتُفل به في جميع أنحاء ليتوانيا. في الصيف، كان "بيتوفْت" يجهز عربته، ويملأ مؤخرتها بعلف الخيل، ويرتدي عباءته، ويأخذ مكانه خلف السائق، وينطلق في رحلة تستمر عادة

عدة أشهر. كان يتنقل من قصر إلى قصر، حيث كان يُعامل دائمًا معاملة الملوك بسبب الخوف الذي يثيره لسانه الخبيث. كان يدخن السيجار وهو يركب، ويلقي بالأعقاب خلفه ـــ ذات مرة كاد ينجو بنفسه بعد أن أشعل النار في مؤخرة العربة. مرة أخرى، في سوق مفتوح في بلدة صغيرة، ذهب إلى بائع برتقال، يهودي. "كم برتقالة يمكن للرجل أن يلتهم في جلسة واحدة؟" اليهودي: "خمس". "بيتوفْت": "ستون!" اليهودي: "برتقال مجاني للرجل الذي يستطيع!" بينما كان "بيتوفْت" يبدأ في دزينة برتقاله الخامسة، صرخ اليهودي: "النجدة! لقد أكل الرجل العديد من دزينات البرتقال! سيموت بالتأكيد!" في المنزل، كان لديه طباخ من الدرجة الأولى، وكانا دائمًا يتشاجران. في المساء، كان "بيتوفْت" يستدعيه إلى غرفة نومه ويزمجر: "أيها الوغد! لقد انتهيت، لقد فعلتها مرة أخرى! طبخك جيد جدًا؛ أنا ممتلئ لدرجة أنني لا أستطيع النوم!" ولكن بعد ذلك كان يستدعيه مرة أخرى ويسأله عن قائمة طعام اليوم التالي.

تمكن توماس، من خلال الدردشة مع جدته، من التقاط القليل من التاريخ. كان نقش نحاسي للسيدة العذراء، أُخرج من صندوقها، معلقًا فوق سريرها؛ فوق منضدة الليل كانت هناك صورة لفتاة ـــ جميلة، عارية العنق، بياقة مفتوحة. كان اسم الفتاة "إميليا بلاتر"، وهي قريبة بعيدة لتوماس، من جهة "مول"، وكان من المفترض أن يكون ذلك مصدر فخر كبير، حيث كانت تُذكر كبطلة في الثورة البولندية. في عام ١٨٣١، امتطت حصانًا وتولت قيادة مفرزة من المتمردين في الغابة. توفيت لاحقًا متأثرة بجراح أصيبت بها في معركة ضد الروس. أما بالنسبة للنقش النحاسي، فقد كان ذات يوم ملكًا لجده "آرثر ديلبين"، الذي اختار في شبابه أيضًا الغابة. كان ذلك في عام ١٨٦٣ ("تذكر يا توماس ـــ ألف وثمانمئة وثلاثة وستون...."). صرخة المعركة للمتمردين، "من أجل حريتنا وحريتكم!" كانت تعني أنهم كانوا يقاتلون من أجل حرية الروس أيضًا؛ لكن القيصر كان قويًا جدًا وكانت أسلحتهم الوحيدة هي البنادق والسيوف. قائد جدّه، "سيراكوفسكي"، شنقه القيصر، لكن الجد نُفي إلى سيبيريا، ومن هناك عاد بعد سنوات عديدة وتزوج. حاليًا، كان والد توماس وعمه يخدمان في الجيش البولندي؛ هما أيضًا كانا يقاتلان ضد الروس.

في أرجاء المنزل، كانت الجدة "ديلبين" ترتدي ملابس على طراز المدينة، حتى مع دبوس من الكهرمان. تحتها ـــ كان توماس يتجسس عليها ـــ كانت ترتدي عدة تنانير صوفية وتشد خصرها بنوع من المشد المصنوع من عظم الحوت. كانت عيناها الزرقاوان الشاحبتان جاحظتين، وفمها يتخذ نظرة من

الاستياء الشديد كلما رفعت "ميسيا" تنورتها أمام الموقد المبلط. ما أثار حفيظتها هو طريقتها في السخرية من مشاعر الآخرين. وهي تتحدث عن شخص واقع في حب إحدى الفتيات المحليات، كانت تسأل، بلكنتها الليتوانية المعتادة، وهي تفرك مؤخرتها بالبلاط، "والآن، بالله عليك، ماذا عساه يرى فيها؟" مرارًا وتكرارًا: "ماذا، بالله عليك؟" ــــ كأن الشوق والحنين والمعاناة البشرية ليست كافية. كانت الجدة ترد بهزة كتف غاضبة، وتمتم بشيء عن كيف أن "العادات الوثنية بطيئة في الزوال" ــــ وهو ما كان صحيحًا بما فيه الكفاية؛ ومع ذلك نادرًا ما كان توماس ينحاز إليها سرًا، مستشعرًا فيها، على الرغم من طيبة قلبها، ضعفًا معينًا. بمجرد رؤيتها له كانت تفرك يديها في يأس، شاكية من أنه مهمل، رث الثياب، ومتوحش كالهمجي. وهل دللته قط؟ حتى ذلك الحين، لم يكن يفكر مرتين في خياطة أزراره بنفسه. ولكن الآن بعد أن أصبح لديه من يدلله، كان لا بد من خدمته باستمرار.

كان هناك شيء هش في انحناءة كتفي الجدة "ديلبين" المستديرين، في العروق حول صدغيها. وهو يختلس النظر إلى غرفتها في الخامسة أو السادسة صباحًا، كان يجدها جالسة في السرير، تصلي بصوت عال، ونظرة شاردة في عينيها، ووجنتاها تحملان آثار جدولين صغيرين رطبين. (أما "ميسيا"، من ناحيةٍ أخرى، فكانت تنام حتى العاشرة في الشتاء، وتستيقظ، وتتمطى بقناعة قططية). كانت خطوات الأقدام تدوي في غرفة "ديلبين" حتى وقت متأخر من المساء، وهي تسير جيئة وذهابًا، تدخن سيجارة تلو الأخرى. كان الصوت الرتيب لخطواتها المبطنة ينتقل عبر المنزل، ويهدئ توماس حتى ينام. ولكونها تعاني من نوبات دوار مزمنة، لم تكن تخرج في النهار للتنزه في الحديقة إلا بصحبة حفيدها؛ وكثيرًا ما كانت تتوقف في منتصف الممر، وتمد يديها، وتتوسل إليه أن يمسك بذراعها. ذات مرة خرجوا في العربة لزيارة الجيران؛ في المكان الذي كان فيه الطريق يحاذي جرفًا، أغمضت عينيها، وأبقت عليهما مغلقتين حتى تأكدت من زوال الخطر.

كان توماس يميل باستمرار إلى مضايقتها واختبارها. أحيانًا، عندما كانت تتوسل إليه أن يمسك بذراعها في إحدى نزهاتهما في الحديقة، كان يختبئ خلف شجرة، مستفزًا عمدًا ذلك المخلوق المستدير الوردي الصغير إلى توسلات دامعة.

ابنة "غراف فون مول" زُوجت للدكتور "ريتر"، ومن ذلك الزواج وُلدت ست بنات، أصغرهن، "برونيسلافا"، كان مقدرًا لها أن تصبح الجدة "ديلبين". من تلك الفترة من الدفء والحب والسعادة، التي استمرت حتى عيد ميلادها الثامن عشر، حُفظ عدد من دفاتر النسخ، منقوشة بخط دقيق، في صندوقها ـــ قصائد ألفتها وهي فتاة صغيرة. عدة زهور مجففة عاشت أطول من أقرب الناس إليها.

كان "قسطنطين" يعزف على البيانو ببراعة، ويغني بصوت باريتون، وكان مشهورًا بإلقائه للشعر الوطني في جميع حفلات "ريغا". لكن والديها عارضا بشدة: كان صغيرًا جدًا، غير عملي، والأسوأ من ذلك كله، مفلس. بعد فترة وجيزة من افتراقهما، كان هناك خاطب آخر، وعاشت "برونسيا"، كما كانت تُدعى اختصارًا، أولى لياليها من البكاء المنفرد، والرعب الذي صاحب ختم مصير المرء. "آرثر ديلبين"، الذي لم يعد في ريعان شبابه، وله سمعة بأنه رصين إلى حد ما في طرقه، كان محاطًا بهالة من الاستشهاد: لمشاركته في الانتفاضة، صودرت أملاكه، على الرغم من أن إدارته لممتلكات العائلة ضمنت له دخلاً ثابتًا. وُجد أنه مقبول، وتخلت "برونسيا" عن مدينة شبابها من أجل قرية ريفية نائية، من أجل حياة من الأعمال المنزلية ومسك الدفاتر في أمسيات هادئة، تحت نفس عاكس الضوء حيث كان "آرثر" يجلس يدخن غليونه.

صورة للرجل: جبهة عريضة، وجه ضيق، تعابير كبرياء وحشي؛ وجنتان غائرتان تبرزهما شارب أشقر كثيف، عريض المنكبين، رصين، ويده عالقة في حزام جلدي معقود. في القصر كان يحتفظ بقطيع من كلاب الصيد، مكرسًا كل وقت فراغه للصيد. كان لديه أيضًا شغف بسباق الأحصنة المربوطة، ذلك الاختبار للقوة بين السائق وخيوله، عندما يمكن لشد اللجام أن يمزق جلد يدي الرجل. كان رجلاً لطيفًا، متحفظًا، يدس المدفوعات لأمهات أطفاله غير الشرعيين حتى لا تعلم زوجته أبدًا. هؤلاء الأطفال كانوا، في معظمهم، من أيام عزوبيته. وكشاب طائش نُسب إليه الفضل في إنقاذ عائلة أرستقراطية معينة من الانقراض، بفضل زياراته لكونتيسة محلية متزوجة من زوج شيخوخة. مثل هذه الثرثرة لم تضره؛ وكلما مر بالكونت الشاب، كان يقيمه بنظرة خفية، ويمسح شاربه بموافقة.

ثم الاستقرار، وعبء المسؤولية. والأطفال. أغدقت "برونيسلافا" كل عاطفتها على أطفالها. عندما كان الابن الأكبر، "ثيودور"، في السابعة من عمره، أحضرته للصيف إلى "ماجورينهوف"، إلى شاطئ

البحر، على الرغم من أنها فشلت في استعادة الجمال الذي عرفته هناك ذات يوم. وُلد ابنهما الأصغر في نفس العام الذي توفي فيه "آرثر" بنزلة برد أصيب بها أثناء الصيد. سُمي "قسطنطين."

مهما بحث المرء في تاريخ عائلات "ديلبين" و"ريتر" و"مول"، لم يكن "قسطنطين" يشبه أيًا من أسلافه جسديًا. عينان سوداوان، شعر أسود فاحم يزحف على جبهة منخفضة، أنف معقوف؛ بشرة داكنة لرجل من الجنوب. نحيل ومضطرب، كان طفلاً جذابًا بقلب من ذهب: اطلب منه شيئًا ــــ أي شيء ــــ وكان مستعدًا لتسليم ما يملكه، حتى معطفه وسترته. كما أظهر علامات على موهبة استثنائية. ولكن عندما انتقلت "برونيسلافا" لاحقًا إلى "فيلنو" حتى يتمكن ابناها من الحصول على تعليم مناسب ــــ وهو ما، متروكًا لمواردها الخاصة، لم يكن بالمهمة السهلة ــــ أظهر "قسطنطين" إحجامًا عن التعلم. أدنى جهد كان يرهقه. توسلت إليه والدته، وركعت على ركبتيها، ووعدته بالهدايا، وتملقته. لكنه كان يعرفها أفضل من أن يصدق تهديداتها بالتخويف، أما بالنسبة للهدايا، فقد كان يعلم أنه لا يوجد شيء ستنكره عليه والدته. سرعان ما وقع في صحبة سيئة، يتسكع مع المقامرين وأصحاب الأخلاق السيئة، ويشرب، ويثقل نفسه بالديون، وبدأ في مواعدة الفتيات من الأندية. انتهى تعليمه فجأة عندما طُرد من المدرسة الثانوية في عامه الرابع.

شقيقه الأكبر، "ثيودور"، درس الطب البيطري في "دوربات"، وبعد تخرجه، بدأ في إعالة كل من والدته وشقيقه. وريثًا لبنية والده وملامح وجهه، كان أكثر هدوءًا وميلاً إلى أحلام رومانسية. مثقلاً بإحساسه بالمسؤولية والصدق، شعر بالرغبة في السفر، في البحث عن المغامرة ــــ كان كل آل "ديلبين" مغامرين إلى حد ما، أحدهم خدم في جيش نابليون، مشاركًا في الحملتين الإيطالية والإسبانية. تزوج "ثيودور" من "تيكلا سوركونت"، التي التقى بها أثناء إجازته في منزل ابن عمه، بالقرب من "غينه". وأصبح لاحقًا والد توماس. رحب باندلاع الحرب كبشير للتغيير، كتلك "حرب الأمم" التي تنبأت بها قبل ما يقرب من قرن من الزمان ووعدت بتدمير قوة الطاغية الشمالي.

دموع "برونيسلافا"، على الرغم من أنها كانت تُبتلع سرًا في البداية، كانت تتدفق أكثر فأكثر علانية على خديها، وكانت تصلي إلى الله أن يرحم "قسطنطين" وأن يغفر لها خطاياها إذا كانت هي سبب معاناته. ارتفعت توسلاتها في الساعات الأولى من الصباح ــــ ذات مرة، بعد أن اكتشفت أنه زور توقيع شقيقه على بعض الشيكات، ولاحقًا، عندما تم تجنيده في الجيش الروسي أُلحق بمدرسة ضباط صف ومن هناك نُقل إلى الجبهة. ارتعدت من أجل سلامته عندما رأت القتال على الجبهة، ولكن ليس

من أجل "ثيودور"، الذي كان، كرجل محترف، يتمركز في الغالب في الخلف. أخيرًا تلقت خبرًا بأنه أصيب وأُسر. منذ ذلك الحين، كانت الطرود مصنوعة من الخشب الرقائقي، مربوطة بالقماش، وموجهة إلى الصليب الأحمر، تصله في وجهة غير معروفة في ألمانيا. كانت تعد الأيام من طرد إلى آخر، وتخيط أكياسًا صغيرة للسكر والكاكاو، وتبتكر طرقًا لحشر أكبر قدر ممكن في الطرد. فعلت هذا حتى عام ١٩١٨، حتى اليوم الذي تلقت فيه رسالة منه يخبرها بأن جرح الشظية قد التأم، ولم يترك سوى ندبة في الصدر، وأنه قُبض عليه وهو يحاول حفر نفق للخروج من معسكر أسرى الحرب، لكنه الآن حر والتحق بسلاح الفرسان البولندي.

كانت لا تزال هناك حرب قائمة، هذه المرة بين بولندا وروسيا، وكان القيصر قد اغتيل. "ثيودور"، بصحبة زوجته، زار "برونيسلافا" في "دوربات"، متوقفًا في طريقه جنوبًا، من مكان ما حول "بسكوف"، للوفاء بواجبه الوطني. وهي تداعب حبات مسبحتها، حاولت أن تتخيل المسيرات الليلية، وابنها "قسطنطين" منحنيًا على سرجه في المطر والجليد، والهجمات بالسيوف المرفوعة؛ وصدره، الذي أصيب مرة واحدة، مستعدًا لإيقاف رصاصة. كانت تطاردها رؤى الجثث ـــ الألمان، في احتلالهم لـ"دوربات"، أعدموا عددًا من المفوضين البلاشفة، وألقوا بجثثهم في الساحة وتركوها هناك، مغطاة بالصقيع، حتى صدرت الأوامر أخيرًا بدفنها.

صلت لكي تنجو حياة "قسطنطين". ولكن خلال ساعات ما قبل الفجر كانت تستولي عليها خوف آخر، رعب الزمن، من الماضي والمستقبل على حد سواء. كل الأكاذيب التي قالها، التسلل إلى درج مكتب "ثيودور"، الأوراق النقدية المسروقة خلسة؛ ارتجافها وهي تواجهه بها. والطريقة التي احمر بها، وأشفق عليها، ثم تلك اللحظة الرهيبة عندما ألقى برأسه إلى الوراء واتخذ تعابير تحد، مؤمنًا حتى بأكاذيبه ـــ كان ذلك، بالنسبة لها، الجزء الأكثر إيلامًا. كان يسكنه عجز عن تجربة العالم كما هو حقًا، والحاجة إلى تزيينه بمخططات خيالية، واثقًا دائمًا من اكتشاف تذكرة نجاح جديدة تبرر هذه الخيانات العرضية. كانت تعلم أن الأوان قد فات عليه لإصلاح طرقه. لم تكن توسلاتها من أجل عودته نقية تمامًا. كان عقلها يعج باستمرار بصور عواقب ضعفه، وافتقاره إلى المثابرة والمهنة. أوكار المدن الكبيرة الرخيصة، محترفو الورق مع عاهراتهم المتملقات ـــ وهناك، بينهم، "قسطنطينها" الصغير. لا، لم تكن تعاويذها نقية، وهذا جعلها تشعر بالذنب، وهذا جعلها ترفع صوتها وتتأرجح جيئة وذهابًا وهي تتلو كلمات الدعاء، وهي لفتة كانت تأمل من خلالها أن تطرد

حزنها. هكذا كان القصد من عبارات مثل "يا برج العاج"، "يا فلك العهد" التي سمعها توماس من خلال الباب.

خطاياها؟ أي خطايا ارتكبتها، لن يعرف أحد أبدًا. ربما في أعماقها، في نبضات دمها، في أعماق كيانها الجسدي، الذي لا يمكن لأي لسان أن ينقله أبدًا، اكتشفت الخلل، البقايا المذنبة لوجودها، لإنجابها للأطفال. ربما. ومنها، على الأرجح، ورث توماس ضميره الموسوس، والميل إلى لوم نفسه على كل شيء، وكانت مضايقته لها انتقامًا للشعور بالذنب الذي أثارته فيه رثاءاتها "أوي، أوي."

22

كان الربيع في الهواء. كان الجليد على البركة يذوب، وآثار شفرات توماس تمحى ببطء حيث كان قبل وقت قصير فقط يتزلج أو يسلي نفسه بدوس قدميه على الألواح الخضراء المليئة بالحشرات والطحالب. مظهرًا علامات الإرهاق، كان الثلج يقطر من أسطح المنازل في فترة ما بعد الظهيرة، والقطرات تحفر خطوطًا منقطة صغيرة على طول جوانب المنزل. في المساء، كان اللون الوردي الباستيل الساطع على التلال البيضاء يثخن إلى أصفر وقرمزي، وآثار الحيوانات والناس تغمق بالرطوبة.

توماس، بتشجيع من مخزون جدته "ديلبين" من المجلات الألمانية المصورة، اكتسب شغفًا بالرسم. كان ملهمًا بشكل خاص بصور المدفعية والدبابات، وطائرته المفضلة جدًا ـــ "تاوبه". حلقت "تاوبه" مرتين فوق "غينه"، ولكن على ارتفاع عالٍ، مما تسبب في تجمع الناس والإشارة إلى السماء، مصدر... الطنين المزعج. الآن، في المجلات، كان بإمكان توماس رؤية كيف تبدو في العمل. أظهرت رسوماته جنودًا يهاجمون (كانت الأرجل المتحركة تُصور بسهولة بخطوط منحنية عند الركبة) ويسقطون على الأرض؛ والبنادق تطلق حزمًا من الخطوط المستقيمة، مكسورة لتمييز الرصاص. وهي تحلق فوق الرأس ـــ "تاوبه."

قبل الانتقال إلى الحادثة التي ترتبط بطريقة ما بهذه المشاهد، يجب أن نصف أولاً مخطط المنزل. في الشتاء، كان يُشغل فقط الجناح المواجه للبستان؛ أي الجزء الذي يطل على الزاوية التي شكلها القصر القديم والملحق. أولاً جاءت غرفة النسيج (حيث كان "باكيناص" يعمل)، ثم لا شيء، ثم غرفة تخزين للصوف والبذور، ثم غرفة الجدة "ديلبين"، ثم غرفة توماس، تليها غرفة "ميسيا" الصغيرة، وفي

النهاية، غرفة الجد. مستيقظًا من البرد في الصباح الباكر، كان توماس يتكور على نفسه، لكن لم يكن هناك مفر من تيار الهواء. استدار حتى يواجه ظهره النافذة، وسحب البطانية حتى رقبته، وتأمل ضوء الشمس على الحائط. بعض الطحين، وُضع ليجف على قطعة قماش، كان ملقى على الأرض. وهو يترك عينيه تتجول بكسل على السطح، أثار فضوله رؤية شيء يتلألأ مثل الجليد أو بلورات الملح. قفز من السرير، وجثا، ولمسه بخفة: زجاج. في حيرة، استدار وألقى نظرة من النافذة. كانت اللوحة مثقوبة بثقب بحجم قبضتين، ومحيطها المسنن على شكل نجمة. ركض على الفور إلى غرفة "ميسيا"، صارخًا بأن أحدهم ألقى صخرة من الحديقة.

تبين أنه كان مخطئًا. بحثوا في كل مكان، حتى أخيرًا، تحت سرير توماس، في الزاوية ذاتها، أخرج الجد شيئًا أسود، حذر الجميع من لمسه. أرسلوا في طلب أحد القرويين، وهو جندي مخضرم. الشيء الأسود، الذي سنحت لتوماس لاحقًا فرصة لفحصه على مهل، كان له شكل بيضة كبيرة، ولكنه أثقل، مع شفة مسننة ملفوفة حول المنتصف. في البستان، أسفل النافذة، وجدوا آثار أحذية ودبوس قنبلة يدوية. تذكروا أيضًا كيف كان نباح الكلاب في تلك الليلة أشرس من المعتاد.

لم تنفجر القنبلة اليدوية، لكنها كانت قد تنفجر، وفي هذه الحالة كان توماس سيوارى الثرى تحت أشجار البلوط، على مرمى حجر من قبر "مجدلينا". كان العالم سيستمر كما كان؛ طيور السنونو واللقالق والزرازير كانت ستعود مجنحة من هجراتها السنوية وراء البحار؛ والدبابير والزنابير كانت ستستمر في امتصاص الكمثرى من أجل عصيرها الحلو. لماذا فشلت في الانفجار ليس لنا أن نحكم. لقد اصطدمت بجدار، وارتدت إلى الأرض، وتدحرجت إلى سرير توماس، حيث نضج قرار الانفجار أو عدم الانفجار بداخلها.

كان الجد حزينًا بشدة. عند سماع خبر هجوم على قصر آخر، مستوحى مما كان يحدث في الشرق الأقصى، كان ينحنح بهدوء ويحاول تحويل آخر مخاوفه إلى مزحة. حتى عندما كانت الغابة موبوءة بعصابات متجولة من أسرى الحرب الروس، لم يتخذ أي احتياطات خاصة. وأي من جيرانه كان لديه سبب لمهاجمته؟ لقد عرفوه منذ الطفولة. هل آذى أحدًا يومًا؟ حتى عن غير قصد؟ أما بالنسبة للعداوة التقليدية بين البولنديين والليتوانيين، ألم يكن هو من جادل بأن الليتوانيين لهم الحق في دولتهم الخاصة، وأن أولئك الذين يتحدثون البولندية هم من أصل ليتواني مثله تمامًا؟ ومع ذلك، كانت هناك ـــ القنبلة اليدوية. لقد ألقاها أحدهم. من؟ ولمن كانت موجهة؟ عدوا النوافذ: واحدة في

غرفة الجد، واثنتان في غرفة "ميسيا"، واثنتان في غرفة توماس. أي شخص على دراية جيدة بالمنزل لم يكن ليستهدف غرفة الصبي، لذلك كان إما شخصًا غريبًا أو شخصًا يعرف طريقه ولكنه أخطأ في الحساب ببساطة.

لم تكن الجدة "ميسيا" منزعجة على الإطلاق من أنها كان يمكن أن تكون هدفًا لمثل هذا العداء. كالعادة، تركت الأمر للجد، وألقت باللوم على تعاطفه الليتواني والفلاحي. كما أنها لم تكن قلقة على سلامتها الشخصية، على الرغم من أن الحماية، في حالتها، كانت ستكون صعبة: كانت مصاريع غرفتها الخشبية تُغلق من الخارج. ليس الأمر كذلك مع الجدة "ديلبين"، التي أصيبت بالذعر، لدرجة أنه كان لا بد من قفل نوافذها. بعد نجاة توماس بأعجوبة، دللته أكثر من أي وقت مضى، وأخذت من صندوقها —— الذي بدا أنه يحتوي على مخزون لا ينضب من الكنوز —— صندوقًا رفيعًا من الألوان المائية وفرشاة رسم. كانت أولى لوحاته لطائر الحسون، والسبب هو أن طيور الحسون —— كانت دائمًا تقشر البذور في الأدغال بجانب المنزل —— كانت بقعة حمراء كبيرة، مشوبة بخطوط من الأزرق والرمادي والأسود. طيور الحسون ونقار الخشب المرقط ذو الرأس الأحمر، الذي كان نقره يسقط بقعًا بيضاء من الثلج من أعلى الأشجار، كانت من بين أعظم مفاجآت الشتاء.

فشلت قضية القنبلة اليدوية في الدخول إلى عالم خيالات توماس العسكرية والرحلية. على الرغم من أن الآثار في الثلج ألهمت رؤى الأحذية الطويلة، والسترات المشدودة، والمداولات الهامسة، إلا أن جنوده وقراصنته لم يكونوا قوة خفية، ولم يكن لديهم شيء من ظلام الليل. أصبح مشبوهًا، يرتجف كلما التقى بأي من عمال المزارع المحليين، الذين أضفت عليهم الحرب جوًا من التهديد إلى حد ما. بدأ الأمر في الصيف السابق، مع تسلل توماس بأسلوب هندي إلى نهر إيسا بسبب طريقة جلوسهم في الأدغال، والصفير، وإطلاق صيحات القطط، وإطلاق بنادقهم العسكرية بحيث كانت الرصاصات تقفز عبر الماء كالحصى. لم يكونوا يتمتعون بشعبية كبيرة في القرية، وكانوا يلتزمون بأنفسهم. اعتاد "أكونيس" أن يهددهم بقبضته ويدعوهم "سجناء" لأنهم أخافوا الأسماك. ذات مرة، عندما ذهبوا إلى حد صيد الأسماك بالقنابل اليدوية، أثاروا سخطًا واسع النطاق: كان ذلك سهلاً للغاية، وانتهاكًا للقانون.

من باب الأمان، وُضع سرير في غرفة النسيج، حيث اتخذ "باكيناص"، الذي نُقل الآن من صومعة الغلال، مسكنًا له. ليس لأنه قدم أي حماية حقيقية؛ في الواقع، كان لديه سمعة بأنه جبان رهيب،

ربما يعود تاريخها إلى هروبه الصاخب من شبح الراعي. تُعزز الافتراضات من هذا النوع عمومًا من خلال ملامح الشخص، في حالة "باكيناص" من خلال زوج من العيون المنتفخة الشبيهة بعيون جراد البحر. إلى جانب عصاه المعقودة، كان لدى "باكيناص" أيضًا مسدس قديم، كانت رصاصاته، للأسف، مفقودة.

23

صعد "جوزيف الأسود" الطريق المؤدي من القرية وكان أحيانًا يتورط في الوحل الثلجي الممزوج بروث الخيل. تسرب الماء في أخاديد العربات التي صقلتها زلاجات الزلاجات. فك أزرار سترته الرمادية الخشنة، وعندما مر بجانب صليب الطريق، خلع قبعته وضيّق عينيه من الوهج الذي ألقاه المنحدر الأبيض، وفي الأعلى، عند حافة الحديقة، جدار صومعة الغلال الأبيض. في الأسفل، في إحدى خلجان نهر إيسا الداخلية، حلقت الغربان فوق غابة "بوريك"، وكان نعيقها نذير ربيع.

بدلاً من الانعطاف إلى الممر، تجاوز المخرج، وتجاوز البستان، وتوجه نحو الأكواخ. في يوم من الأيام، كانت هذه الأكواخ التي تصطف على الطريق يشغلها عمال مزارع يعملون في العزبة. لم يكن يسكن الآن سوى عدد قليل منها، والباقي غزاه العمال المتجولون. رد "جوزيف" بأدب عندما حُيي، لكنه كان في عجلة من أمره للتوقف. بعد الأكواخ، بالقرب من الصليب تحت السقيفة ذات السقف الصفيح، انحرف إلى اليمين في اتجاه "بوجيراي" وحدود الغابة المظلمة.

كانت "بوجيراي" قرية طويلة، تمتد لأكثر من كيلومتر، بشارع رئيسي واحد وشارع متقاطع واحد. مزدهرة إلى حد ما، كانت تتميز بغياب أي أسقف من القش أو أكواخ بلا مداخن. كانت بساتينها وفيرة مثل تلك الموجودة في "غينه"، وكانت معروفة بمناحلها، وبالعسل الداكن الذي يُجمع من حقول الحنطة السوداء والبرسيم ومروج الغابات المفتوحة. عندما وصل إلى الكوخ الثالث بعد المزرعة الخضراء التي تخص "بالوديس"، الأمريكي، توقف "جوزيف" وألقى نظرة من فوق سياج خشبي. رجل عجوز يرتدي قفطانًا صوفيًا بنيًا ــــ الأغنام البنية والسوداء كانت من تخصص "بوجيراي" ــــ كان يشذب جذع شجرة. دفع "جوزيف" البوابة وفتحها، وبينما كانا يتصافحان، أثنى على الرجل لاختياره شجرة التنوب. أومأ الرجل العجوز برأسه وقال إنها لتدعيم المذود. لا شك أن الشجرة شقت

طريقها إلى هناك بفضل "بالتازار"، لكن "جوزيف" كان لديه أمور أخرى في ذهنه غير الصيد غير المشروع.

في تلك اللحظة، زحف "واكونيس" الأصغر، المثقل بالنوم، من مكان ما. مرر أصابعه في شعره ليمشط القش والريش، وبخجل إلى حد ما، وهو ينظر إليه بعصبية، قدم لـ"جوزيف" احترامه. كان يرتدي سروالاً كحليًا وسترة عسكرية. تحول وجهه العريض إلى متجهم عندما قال "جوزيف" إن لديه مسألة صغيرة ليناقشها معه.

واضعًا كوبه الصفيح ومسح شاربه بظهر يده، حدق "جوزيف" فيه في صمت. أخيرًا سند مرفقيه على الطاولة وقال: "نعم، نعم ـــ أعرف."

جالسًا على طرف المقعد، رفرف "واكونيس" بجفونه، ثم خفضها بنعاس. هزة من كتفيه. "لا شيء لأعرفه."

"ربما هناك وربما لا يوجد. اخترتك لأنك أحمق. تذكر من علمك القراءة؟ أم نسيت؟"
"أنت فعلت".
"حسنًا، الآن، هل هذا سبب لتبدأ في إلقاء القنابل اليدوية على الناس؟"

رفع "واكونيس" جفونه. كان وجهه الآن وجه رجل ناضج ـــ جاد، صارم. "وماذا لو كنت أنا؟ هؤلاء ليسوا أناسًا ـــ إنهم نبلاء".

وضع "جوزيف" علبة سعوط من خشب البتولا على الطاولة، ولف سيجارة، ووضعها في حامل، وأشعلها، وأخذ نفخة. "هل رأيتني يومًا أتحالف مع النبلاء؟"
"لا، لم أفعل قط. لكنني أفعل الآن".
"والدك، لن يخبرك، لكنني سأفعل. من الأفضل أن تستمع إلى أناس لديهم عقول أكثر منك".
طوى "واكونهس" ذراعيه على صدره؛ ارتعشت عضلات وجنتيه. "لقد استنزفنا النبلاء، لا نحتاج إلى نوعهم هنا. اقتل واحدًا، اثنين ـــ سيعودون إلى بولندا. ثم ستكون الأرض لنا".
هز "جوزيف" رأسه ساخرًا. "لا نحتاج إلى نبلاء في ليتوانيا، ستكون الأرض لنا. من أين أتيت بهذا؟ مني، هذا هو. والآن ستعلمني، هاه؟ تريد أن تتجول تذبح وتحرق مثل روسي؟"
"لم يعد لديهم قيصر".

"ليس الآن، ولكن يومًا ما سيعودون. أنت ليتواني. سنستعيدها يومًا ما".

"ومن سيعيدها؟"

"ليتوانيا. السلاف —— بولنديون أو روس، ما الفرق —— إنهم جميعًا أبناء زنى. عملت في السويد —— تلك هي الحياة لنا"!

"البولنديون هم أعداؤنا".

"آل سوركونت كانوا ليتوانيين لقرون".

ضحك "واكونيس". "كيف يمكن أن يكون سوركونت ليتوانيًا وهو سيد نبيل؟"

مد "جوزيف" يده إلى إبريق الجعة، وملأ كوبه، وسأل: "هل كان هو من كنت تستهدفه؟"

أفرغ وجه الشاب. "لا —— لم أكن أهتم كثيرًا بمن أصيب".

هز "جوزيف" رأسه مرة أخرى. "يا فتى، هذا رائع. يمكنك أن تشكر الرب أنها لم تنفجر. وهل تعرف من كادت أن تقتله؟ هل أخبروك؟"

"لا".

"الصبي —— توماس. وجدوه تحت سريره".

"ابن ديلبين؟"

"نعم".

صمت. والكوب لا يزال عند فمه، قال "واكونيس": "الجميع يعرف أين هو والده. كما الأب، كذلك الابن".

"أيها الأحمق! هل كنت تود أن تكون في جنازة الصبي؟"

"لماذا؟"

زم "جوزيف" شفتيه، كاشفًا عن أسنانه، واحمر وجهه. "اسمع هنا يا واكونيس. أعرف من حرضك على ذلك، وأعرف من كان يرافقك هناك في تلك الليلة. هؤلاء رفاقك، هؤلاء 'الذئاب الحديدية'، لا يخيفونني، هل تفهم؟ أوه، أنت تعرف كيف تقاتل، حسنًا —— ضد النساء والأطفال".

قفز "واكونيس" على قدميه. "ليس من شأنك اللعين من كانت فكرته"!

انحنى "جوزيف" إلى الوراء، وثبّت عليه نظرة، وسخر: "قيلت بكل غطرسة بولندي أصيل".

انكسر الجليد على نهر إيسا بصوت يشبه هدير مدفع. ثم جاءت الكتل الجليدية، محملة بالقش المتناثر، والألواح، والأغصان، والدجاج الميت ـــ والغربان، تتجول على الجليد بخطوة رقيقة. كان هذا أيضًا موسم الولادة، ولم تستطع الكلبة "داستي" إخفاء جراءها سرًا لفترة طويلة؛ عاجلاً أم آجلاً، كشفت الجراء النائحة عن أمرها. كان توماس يحب أن يشعر بدفئها اللحمي على وجهه، وأن يغمر نظره في عينيها الملفوفتين بغشاء أزرق بلون الصدأ، خليط بين ذئب وثعلب، وخطمها مبقع بالأسود، كانت "داستي" ترضخ بهدوء، تلهث ولسانها يتدلى.

حزم "باكيناص" الجراء في سلة وأغلق على "داستي" في سقيفة الحطب مع أحد جراءها، ألمعها وأسرعها. ركض توماس خلف "باكيناص" ولحق به عند الجرف المطل على النهر. كان الضفة شديدة الانحدار، صفراء زاهية بالطين، مليئة بأعشاش السنونو. تحركت الكتل الجليدية إلى أسفل النهر، تاركة دوامات صغيرة تدور في المياه المتورمة.

أمال "باكيناص" ذراعه وألقى بأحد الجراء. ارتطم بالماء، محدثًا دفقة، ثم لا شيء، سوى بركة صغيرة، سرعان ما تفككت وحملها التيار بعيدًا. بعد فترة وجيزة، طفا رأس في اتجاه مجرى النهر؛ وهو يجدف بكفيه الصغيرتين، اختفى الجرو مرة أخرى عن الأنظار، ليعاود الظهور عند منعطف النهر. منذ ذلك الحين، أخذ "باكيناص" اثنين في كل مرة من السلة؛ يرمي واحدًا، ويضم الآخر إلى صدره. غطس آخرهم، لكنه طفا بعد ثانية، يقاتل بشجاعة حتى جرفه التيار أيضًا إلى منتصف النهر، تتبعه نظرات توماس.

بانتقالهم من الدفء، من عالم من الأشياء لم يتعلموا بعد تمييزها، إلى الماء المتجمد، لم يكونوا حتى على دراية بوجود الماء. عاد توماس يمشي في ذهول. ممزوجًا بفضوله كان هناك ظل من حلمه عن "مجدلينا". فتح باب السقيفة وبدأ يداعب "داستي". أنّ الكلب، وشمه بريبة، ثم انطلق من بين يديه.

ثم جاءت أول موجة دفء: دجاج ينبش بجانب كومة الحطب، و"غريغوري" العجوز جالس على مقعده، يشذب الخشب... سكين "غريغوري"، المهترئ لدرجة أن نصله أصبح أشبه بمخرز صانع أحذية، يمكنه أن يقطع غصنًا بضربة واحدة ـــ في يد "غريغوري" العجوز بالطبع، ولكن ليس في يد توماس، الذي، حتى لو استخدم نفس السكين، كان عليه أولاً أن يحز جانبًا ثم الآخر قبل أن يتمكن من كسره.

جاءت السيدة "مالينوفسكي" لرؤية الجد بشأن تأجير البستان للصيف ـــ وهو ما يسمى "أريندا"، وهو ترتيب تذهب بموجبه نسبة معينة من المحصول إلى المالك. طلب غريب، لكنها قالت إنها تريد أن تجرب؛ ابنها، "دومينيك"، كان الآن في الرابعة عشرة، وكانت متأكدة من أنهما يستطيعان تدبر الأمر معًا. وعدها بالبستان، لكن المرأة لم تأتِ في وقت مبكر جدًا. بعد أيام قليلة، جاء "حاييم" يجرجر عربته إلى القصر ليقترح بعض أقاربه كمستأجرين. كان بإمكان "حاييم" أن يستشهد بضمانات مهنية، بالإضافة إلى العرف، حيث كان المستأجرون تقليديًا من اليهود. لكن الوعد وعد. انتهى المشهد بشد الشعر المعتاد، والنحيب، والقبضات المشدودة المرفوعة إلى السماء.

أرملة، كانت السيدة "مالينوفسكي" الأفقر في "غينه" كلها؛ بلا أرض تزرعها أو تحرثها، كان ملكها الوحيد كوخًا بجوار مرسى العبّارة. كانت امرأة قوية البنية، عريضة، وقمة منديلها ترتفع فوق جبهتها المنمشة كسقف بيت مدبب. شكلت زيارتها بداية صداقة جديدة لتوماس.

بعد عدة أشهر، بينما كان مشغولاً باستكشاف ذلك الجزء من البستان خلف خلايا النحل (كان الممر يمتد بجانب الخلايا، في نطاق هجوم النحل)، لمح سقيفة. كوخ حقيقي ـــ ليس من تلك الأكواخ التي يبنيها رعاة الخيل في الفسحات ـــ طويل بما يكفي في المنتصف ليقف فيه رجل منتصبًا، وسقفه من القش مثبت بأعمدة خشبية. كانت القمة، التي شكلتها الزاوية الحادة لحرف V مقلوب، مقواة بالمسامير. كانت نار صغيرة تشتعل بجانب المدخل، وبجانبها جلس صبي يشوي تفاحًا أخضر على عصا. أراه الصبي داخل السقيفة وحولها.

"دومينيك مالينوفسكي"، منمش الوجه مثل والدته ولكنه أطول، بشعر أحمر كثيف، سرعان ما جعل توماس، الذي كان امتياز مخاطبة شخص بالغ كأنه ند له مصدر إزعاج، بل وإحراج، تحت سيطرته. سمح له "دومينيك" بتدخين غليونه محلي الصنع ـــ خرطوشة بندقية مزودة بساق. توماس، الذي لم يدخن التبغ من قبل، حاول، على الرغم من أنه أثار حلقه، أن يبقي ورقة التبغ الملفوفة مشتعلة، مصممًا، حينها كما في وقت لاحق، على كسب استحسان تلك العيون الرمادية الباردة.

بينما كان يُسأل سابقًا عن مكان توماس، كانت "أنتونينا" تجيب: "عند أكونيس، أين غيره؟" الآن أصبح: "في السقيفة". السحر الذي لا يقاوم للدخان المتصاعد بين الأشجار، ورائحة القش والتفاح المتعفن، والساعات التي قُضيت بجانب نار المخيم. كان بإمكان "دومينيك" أن يبصق لأكثر من اثني عشر مترًا، وينفث الدخان من أنفه، ويضع فخاخًا للطيور والسمور (التي كانت تطارد السناجب

حول جذوع الزيزفون في الحديقة، على الرغم من أن الفخاخ كان لا بد من انتظار الشتاء) ويعلم توماس فن الشتم. وبما أنه كان أميًا ولديه افتتان دائم بكل شيء، فقد جعل توماس يخبره بما هو مكتوب في الكتب. في البداية كان توماس محرجًا ـــ بنفس الطريقة التي كان محرجًا بها من قرابته بالجدة "ديلبين" ـــ لأن المعرفة المكتسبة من حروف الأبجدية بدت له أدنى منزلة؛ لكن "دومينيك" كان مصرًا، يسأل "لماذا هذا؟" "كيف ذاك؟" "إذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟" ولكن كانت هناك بعض الأشياء، أشياء لم تخطر بباله من قبل، تقع خارج نطاق قدرته على الشرح.

انجذاب. خضوع. هل كان انجذابًا للخشونة، للممنوع؟ ظهر "دومينيك" ككاهن أعظم للحقيقة، لأن حس السخرية لديه، واستهزاءه الضمني، كان دحضًا لمعرفته السطحية، معرفة توماس، التي كان يعلم أنها تعج بشيء حقيقي تحتها. شيء تجاوز البزاقات الطويلة التي كانوا يجمعونها ويشوونها على الجمر ليجعلوها تتقلص؛ وتجاوز ذباب الخيل الذي كانوا يحشون بطونه بشفرات من القش ليجعلوه يطير كالطائرات؛ وتجاوز حتى الفأر الذي أطلقه "دومينيك" ذات مرة في نفق من الجمر المشتعل. أبعد من ذلك بكثير ـــ أبعد وأعمق. كل رحلة إلى السقيفة في البستان كانت تحمل وعدًا باكتشاف جديد.

أثبتت غرائزه صحتها، لأن "دومينيك" كان دائمًا متحفظًا في حضوره، لا يكشف أبدًا عن أكثر من جزء يسير من طبيعته. لم يكن بحاجة إلى أي تأكيد خارجي لقوته على توماس؛ لقد قبل بلطف، وبتنازل، الإجلال المقدم له. لقد أنقذه، في الواقع. لماذا؟ ربما نزعت ثقة توماس الساذجة سلاحه، أو ربما وجد أنه من الحكمة عدم تعريض علاقاته مع القصر للخطر. تردده، طريقته في لف ذراعيه حول ركبتيه كلما أصر توماس على دخول منطقة محظورة ـــ بدت مثل هذه الإيماءات مليئة بالتلميح حول الشيء ذاته الذي كان لدى توماس مثل هذه الرغبة فيه. إذا انهار تحفظه فجأة، فمن المؤكد أن ذلك كان خطأ الشياطين على طول نهر إيسا، أو غباء توماس نفسه ـــ لانتهاكه القاعدة التي تقضي بعدم التشبث دائمًا بمن نوقرهم. إذا كان عديم اللباقة، فذلك لأنه عاش مع خيالاته ولم يُنبذ أبدًا.

نادراً ما كانت السيدة "مالينوفسكي" تزور السقيفة. كانت تحضر العشاء لابنها في فترة ما بعد الظهيرة، ولكن ليس دائمًا، وفي تلك الأوقات كان "دومينيك" يغلي لنفسه دفعة من حساء الملفوف ويستخدم سكينه لقطع قطع ضخمة من رغيف من خبز الجاودار الأسود، يلتهمها مع قطع من لحم

الخنزير المقدد. ناهيك عن التفاح والكمثرى ــــ الكمثرى المتفحمة كانت لا مثيل لها في هذا العالم ــــ أو البطاطس، المشوية حتى تصبح مقرمشة، ونخزة بعصا حادة تشير إلى ما إذا كانت قد نضجت. من حين لآخر، كانت "أنتونينا" تأتي دون سابق إنذار وتجر توماس بعيدًا من قفاه. بين الحين والآخر، كانت تأتي بسلال من أجل "التفتيش" ــــ وهو المصطلح الذي يطلق على حصة المحصول المستحقة للقصر من أجل الأسرة ــــ وكانت مهمتهما المساعدة في الحمل. في بعض الأحيان، بطريقة مرحة ولكن لئيمة، كانت تخاطب "دومينيك" بكلمة مهينة تعني "أنت قريب لكل نوع يمكن تصوره من الضفادع."

25

"دومينيك"، إذا عُرفت الحقيقة، كان ملكًا متنكرًا، يحكم بواسطة رعب غير معلن، حرص على حمايته بعناية. لقد رُقي إلى منصب ملكي بفضل صلابته وموهبته في إعطاء الأوامر. أولئك الذين ذاقوا قبضته القاسية أطاعوه ولم يهمسوا بكلمة شكوى لوالديهم. كانت بلاطه، الذي كان ينتظره في مرعى القرية، يتألف، كما هو متوقع، من أقرب المقربين إليه، أو وزرائه، ومن المبتدئين العاديين، الذين كانوا يستخدمون لأداء مهام وضيعة مثل إبقاء الأبقار في الصف. لم يُسمح إلا لأقرب المقربين بالتجارب ذات الطابع الأكثر جدية.

عقل نقدي، لا يأخذ شيئًا على أنه مسلم به ويطالب بتفسير علمي لكل شيء، كان يهتم بدقة بكل ما يطير أو يقفز أو يزحف. بقطع أرجلها وأجنحتها، كان عازمًا على سبر أغوار آلات الحياة. ولم يُغفل البشر، مثل المرة التي أمر فيها وزراءه برفع عينة واحدة من ساقيها ــــ أي "فيرا" البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا. كان مفتونًا بنفس القدر بالاختراعات التكنولوجية، قادرًا على تكريس ساعات للتأمل في بناء طاحونة، لدرجة تركيب نسخة طبق الأصل بالضبط، مع تعديلاته الخاصة، وتركيبها على أحد الجداول التي تصب في نهر إيسا.

بفرض إرادته على الآخرين في سنه، انتقم "دومينيك" لنفسه من الإذلال الذي تحمله منذ الطفولة. فطالما يتذكر، كان هو ووالدته يعملان في ممتلكات الآخرين، معظمهم من المزارعين الأثرياء، وهؤلاء هم أسوأ سلالة، حيث تتراوح ممتلكاتهم من مائة إلى مائتي فدان. أن تضطر إلى النظر في أعينهم، وببهجة، وتملق، وتوقع كل نزوة لهم، وكل أمر؛ أن تعيش في خوف دائم من أن تُخدع في مكيال من

الجاودار الموعود أو زوج من الأحذية القديمة ـــ هذا هو ما ازدهرت عليه الكراهية، والشك في أن العالم كله قائم على كذبة.

في وقت سابق من ذلك الصيف نفسه، قبل أن ينتقل إلى السقيفة في البستان، حدث شيء مهم في حياة "دومينيك". لفترة طويلة كان راضيًا بالتملق، بفعل ما يطلبه الآخرون، حتى بدأ أحد قدامى المحاربين ذات يوم يسمح له بحمل بندقيته العسكرية ـــ وهذا مكافأة له على صمته بشأن أمور معينة.

الآن، تزامن الترتيب بشأن البندقية مع تفشي داء الكلب في القرية، واشتبه الناس في أن كلبًا واحدًا قد عُض من قبل حيوان مسعور. اتفق الجميع على أنه يجب تدميره، ومع ذلك لم يكن أحد متحمسًا للقيام بالمهمة ـــ حتى تطوع "دومينيك". سُلم الكلب، ولكن على مضض ـــ من يدري، ربما لم يكن الكلب مصابًا. الكلب ـــ كبير وأسود، وذيله منتصب، وشعيرات تنبت من خطمه ـــ بدأ يتملقه، سعيدًا بإطلاق العنان له، ليتبادل حياة من التثاؤب وصيد البراغيث بحرية الأماكن المفتوحة. "دومينيك"، بعد أن أعطى الكلب شيئًا ليأكله، أخرجه إلى مكان يطل على بركة صغيرة. تقع في منتصف شبه جزيرة شكلها منعطف في نهر إيسا، كانت البركة تُغذى بخندق موحل؛ في الربيع أصبحت مياهها الضحلة الدافئة مكانًا لوضع بيض سمك الكراكي، قبل أن تجف مرة أخرى في الصيف، وقاعها من الطمي مناسب كمسكن دائم فقط لسمك أبو شوكة. جدار سميك من القصب يمتد على طول الطريق، يصل ارتفاعه إلى ارتفاع رجل على ظهر حصان؛ على ضفة واحدة، تقع بين القصب، شجرة كمثرى.

ربط "دومينيك" الكلب بها بحبل سميك وجلس مع البندقية، على مسافة قصيرة. بعد ذلك، أزال رؤوس الرصاص من الخراطيش، وأدخل رؤوسًا خشبية، منحوتة خصيصًا لهذه المناسبة. هز الكلب ذيله بمرح ونبح فرحًا. أن يطلق النار أم لا. سند عقب البندقية على كتفه وتردد، أكثر ليستمتع بحرية الاختيار، حقيقة أن الكلب لم يشك في شيء، وأن القرار يقع بالكامل في يديه، يدي "دومينيك". وذلك والمعرفة بأن حركة واحدة من إصبعه ستحوله إلى شيء آخر غير ما كان عليه. ولكن كيف؟ هل سيسقط مسطحًا، أم سيقفز في الهواء؟ ليس فقط الكلب بل المشهد بأكمله سيتغير. لا شيء مثل أن تُقتل برصاصة ـــ هدوء، صمت، كأنه خالٍ من الوجود البشري، وكل ذلك يتم بسهولة، ببرود، بمجرد كلمة بسيطة: "أطلق!" تنهد القصب، لسان أحمر رطب يتدلى من فم الكلب. انطبق الفم: لقد أمسك بذبابة. صوب "دومينيك" على الجلد اللامع.

أطلق! لثانية واحدة، تشنج الكلب بشيء يشبه الذهول المصدوم. فجأة اندفع إلى الأمام، وشد حبله، وهو يزمجر. غاضبًا من لفتة التحدي هذه، أطلق "دومينيك" طلقة ثانية. انقلب الكلب إلى الوراء، ونهض مرة أخرى على قدميه ـــ وفهم فجأة. وجلده ينتفش، تراجع عن رؤية مروعة. استمر في تلقي الرصاص، الذي جاء على فترات ـــ لإطالة اللحظة ـــ كل منها له تأثير مختلف، وبلغت ذروتها في جر الأرباع الخلفية، وأنين، وتلويح متشنج بالكفوف والجنب على الأرض.

جالسًا مع توماس بجانب نار المخيم في البستان، بدأ "دومينيك" في التفكير في أفكار ذات طبيعة لاهوتية، مستوحاة من ذكريات الفعل الذي ارتكبه للتو. إذا كان متفوقًا على الكلب، وحكمًا على مصيره، ألم يكن الله بنفس القدر حكمًا على مصير الإنسان؟ شعر بالمرارة تجاه الله. حمله ضده عدم حساسيته لأخلص التوسلات. ذات مرة، قبل عيد الميلاد مباشرة، عندما لم يكن هناك ما يكفي من الخبز في المنزل، وعندما كانت والدته تركع أمام الصورة المقدسة، تبكي وتصلي، تمنى معجزة. زحف إلى العلية، وركع على ركبتيه، ورسم علامة الصليب، وبكلماته الخاصة، قال: "لا يمكن أنك لا ترى كم هي قلقة أمي. اصنع معجزة، وسأضحي بنفسي لك. اقتلني، طالما أنك تصنع معجزة." واثقًا من النجاح، قفز من على السلم، وجلس على المقعد، وانتظر بهدوء. لكن الله استجاب بلامبالاة مطلقة، وفي تلك الليلة ذهبوا إلى الفراش جائعين.

الله، الله الذي يمسك بالرعد ـــ الرعد، بعد كل شيء، كان سلاحًا أفضل من البندقية ـــ فضل المنافقين بوضوح. كل يوم أحد، كانوا هناك، يرتدون أحدث الأزياء، والنساء في صدريات مخملية خضراء، ومناديل رأس مزركشة مربوطة تحت ذقونهن. كن يغنين في الجوقة، ويلوين أعينهن إلى السماء، ويطوين أيديهن بتقوى. ولكن احذر عندما يصلن إلى المنزل! يمكنك أن تفقد وعيك على عتبة بابهن الأمامية قبل أن يتنازلن عن مشاركة فطائر الجبن المغموسة في الكريمة والدهن. وكن يعرفن تمامًا أين يستخدمن الحزام ـــ خلف صومعة الغلال، بعيدًا عن متناول السمع. كن يكرهن بعضهن البعض ويحببن النميمة؛ حمقاوات وشريرات، مرة في الأسبوع كن يتخذن مظهر الفضيلة والتقوى. القصاص الإلهي؟ كيف، عندما منح الله أعظم ثروة لرجل نام مع ابنته ـــ لقد تجسس عليهما من خلال شق: ركبتا الفتاة العاريتان، والرجل العجوز اللاهث، وأنين الفتاة الغرامي...

أرشدهم الكاهن في دروس المحبة. ولكن بالنسبة للرجال، ليس أقل من الحيوانات، كان الدرس الوحيد هو: اقتل أو تُقتل. عندما كان أصغر سنًا، كان كبش فداء للجميع. ولم يبدأوا في احترامه إلا عندما أصبح أكبر وأقوى بما يكفي لإراقة الدماء. رأى الله أن يزدهر القوي ويعاني الضعيف.

لو أنه فقط استطاع أن يطير إلى السماء ويمسك به من لحيته! لقد اخترعوا آلات طائرة، فلماذا لا تكون طائرة خارقة؟ كان "دومينيك" يتخبط في متاهة من التعقيدات. من ذهب إلى الجحيم، على أي حال؟ ربما كان الله يتظاهر فقط بأن لا شيء يزعجه، ربما كان من النوع الماكر، مثل قطة تنظر في الاتجاه الآخر ثم تنقض. لولا الخوف من الجحيم ـــ يا فتى، يا لها من نزهة! وإذا اعترض أي شخص ـــ اصفعه! ـــ دعه يتلقاها بالبندقية. وهو يشبك ركبتيه ويستمع بتنازل إلى تفسيرات توماس المتشعبة، بحث عن مخرج من المتاهة. ذات مرة خطرت له فكرة عبقرية. ماذا لو كان الكهنة يختلقون كل هذا، ماذا لو كان الله لا يهتم حقًا بالعالم؟ بالطبع كان لا بد من وجود جحيم، ولكن ذلك كان شيئًا بين الناس والشياطين ـــ أرواح، مثل الساحرة غير المرئية، "لوم"، غيرت مظهرها حسب الرغبة وذهبت وراء أولئك الأغبياء بما يكفي لمغازلتهم. ربما لم يكن هناك إله، ربما لم يعش أحد في السماء. ولكن كيف تكون متأكدًا؟

"دومينيك"، الذي، كما لوحظ بالفعل، كان لديه نوع العقل الذي يقدر قيمة التجارب، صاغ تدريجيًا الاقتراح المنطقي التالي: إذا كان الإنسان بالنسبة للكلب ما هو الله بالنسبة للإنسان، فعندما يعض كلب إنسانًا ويصل الأخير إلى عصا، كان ذلك هو نفسه عندما يجرح إنسان الله ويعاقبه. كانت الحيلة هي إيجاد شيء مسيء لدرجة إجبار الله على استخدام إحدى صواعقه. إذا لم يحدث شيء، فسيكون ذلك دليلاً.

26

مخرز حاد، من النوع الذي يستخدمه صانعو الأحذية. كان "دومينيك" يختبر النصل باستمرار بإصبعه، ويحمل الأداة في جيبه أينما ذهب.

في ذلك الأحد، أفسح شروق ضبابي الطريق لسماء صافية مزينة بخيوط مضيئة من الصيف الهندي. بجانب إحدى ضفاف نهر إيسا شديدة الانحدار وقفت صخرة مغطاة بالطحلب، بسطح مسطح يشبه المذبح. وزراء "دومينيك"، يرتدون الآن أحذية وقمصانًا نظيفة ـــ لقد عادوا للتو من القداس ـــ

جلسوا على العشب يواجهون الصخرة، يدخنون سيجارًا صغيرًا، ويحاول كل منهم الحفاظ على وجه جامد. قد تكون مخلوقات غير مرئية حضرت أيضًا، وأعناقها ممدودة ترقبًا للعرض.

"دومينيك"، في هذه الأثناء، وقف متأملاً على ضفة النهر، يقذف الحصى عبر الماء. لا يزال بإمكانه التراجع. وإذا كان ما قاله الكهنة صحيحًا؟ حينها سيصيبه البرق. نظر إلى السماء. لا سحابة؛ شمس الظهيرة عالية فوق رأسه. صاعقة من سماء زرقاء صافية ـــ كان سيعطي أي شيء لرؤيتها. ولكن بحلول ذلك الوقت سيكون الأوان قد فات. تلاحقت التموجات بعضها البعض في دوائر متسعة باستمرار، تهز الأوراق المسطحة على السطح، حتى انثنى أحدها وغمرته قشرته الخضراء. هل كان خائفًا، أم ماذا؟ ألقى حصاة عبر النهر، مستهدفًا شريط الظل على الضفة المقابلة، وضغط قبضتيه داخل جيوبه، وشعر بالمخرز.

توجه مباشرة نحو الصخرة. برؤيته يقترب، بدأ وزراؤه في الانسحاب، وراقبهم بازدراء وهم يبتعدون أكثر فأكثر. ثم أخرج من جيبه منديلاً أزرق مجعدًا، وفتحه بعناية، وسوّى زواياه على سطح الصخرة الخشن.

بعد انتهاء القداس، حاول توماس اللحاق به لكنه فقده من بصره في الحشد. قال أحدهم إنه رآه متجهًا إلى المرعى، وتوماس، وهو يلتقط الأثر، انطلق في نفس الاتجاه. كان تعقبه له كافيًا لإثارة غضب "دومينيك". ولكن أن يظهر في اللحظة الحاسمة، في اللحظة التي عبر فيها الطية العمودية بين حاجبيه عن ثبات إرادة ـــ كان ذلك لا يغتفر. لماذا كان على "دومينيك" أن يُشتت انتباهه عن غايته؟ صاح في وجه توماس شيئًا لم يفهمه، لكنه أدرك بطريقة ما عدم لياقة حضوره، وسخافة وجوده المؤلمة، كما انعكست على وجوه الآخرين. وبأمر من قائدهم، انقضوا عليه وقلبوه على الأرض، ووجهه للأسفل. قاوم، لكن أيديهم التي تفوح منها رائحة التبغ أبقته مثبتًا، جامدًا إلا من ذقنه المرفوع. أمروه ألا يصدر صوتًا.

وصلت الطاولة الحجرية إلى ما فوق خصر "دومينيك" بقليل. شيء مستدير وأبيض يلمع في منتصف المنديل ـــ القربان المقدس. لقد أحضره معه من المناولة، ويداه مطويتان على صدره، يوازنه على لسانه ثم يبصقه بخفة في منديله. الآن سيكتشف الحقيقة. أمسك بالمخرز وصوبه مباشرة إلى جسد المسيح. أنزله، ثم رفعه.

وغرزه فيه.

وبينما أبقى النصل في الجرح، تفحص السماء بحثًا عن أي علامة على القصاص. لم يحدث شيء. سرب من الطيور تلألأ فوق رأسه، محلقًا من اتجاه حقول القصب. لا سحابة ولا خيط من غيم في الأفق. انحنى ليرى ما إذا كانت الرقاقة، التي لا يزال نصل السكين يخترقها، تنزف. لا شيء. ثم بدأ يطعن ويطعن، ممزقًا القرص الأبيض الصغير إلى أشلاء.

في اللحظة التي تحرر فيها، انطلق توماس راكضًا، وحلقه يختلج. ركض وهو يشعر بأنه يفر من شر العالم المتعدد، وأنه قد تورط في تدنيس المقدسات؛ لم يكن الأمر مجرد الخوف من خطيئة مميتة محتملة. أدرك فجأة كم كان مستغنى عنه، وأدرك خداع النفس في كل تلك المرات التي تخيل فيها نفسه صديقًا لـ"دومينيك". في الحقيقة، لم يكن صديقًا لأحد. ركض لأبدية. في المنزل، تشبث بذراع الجدة "ديلبين" في يأس، مستنجدًا بها، وظلت تسأله ما الأمر، لكن كل ما استطاعت أن تخرجه منه كان انتحابًا متقطعًا. في تلك الليلة، وهو يصرخ من الخوف، توسل أن يُترك الضوء مضاءً في غرفته. كان يتمتم في نومه، واضطرت جدته عدة مرات إلى النهوض من سريرها ووضع يدها بقلق على جبهته.

الأب "مونكيفيتش"، الذي ذهب إليه على الفور للاعتراف، غير راغب في تأجيل الأمر حتى نهاية الأسبوع — بالكاد استطاع أن يجمع الكلمات لوصف الأمر — غضب من هذا الفعل المدنس الذي ارتكب في رعيته. وهو يتملق ويتودد، لكي يستأصل الشر بشكل أسرع، التوى وتلوى داخل كرسي الاعتراف. لكن توماس رفض خيانة صديقه السابق، على الرغم من إصرار الكاهن على أن من واجبه المسيحي أن يفعل ذلك. بطريقة ما، رفض الاسم أن يصعد إلى شفتيه. فقط عندما مُنح الغفران شعر ببعض الارتياح.

منذ ذلك الحين، وعلى الرغم من أن ذلك كان يعني تفويت الحصاد، وهو في ذروته، تجنب السقيفة في البستان، ولجأ إلى حيَل مختلفة عندما كانت "أنتونينا" تضع سلة في يديه. كان هذا في الوقت الذي بدأ فيه بالاختفاء، والاختباء عند مجرد لمحة من سروال قماشي خشن من خلال الأشجار. وعندما كان يتقاطع طريقه مع "دومينيك"، كان يخفض نظره، متظاهرًا بعدم ملاحظته.

في الواقع، إن تلك الطقوس التي أُجريت على ضفاف نهر إيسا لم تحسم شيئًا. فما أن انتهى الأمر، حتى جلس الفتيان الآخرون، غير قادرين على استيعاب الأهمية العلمية للتجربة، وشعروا بالخداع إلى حد ما ـــ كم كان الأمر مختلفًا لو حدث رعد، أو على الأقل قليل من الدم لإظهاره! ـــ ولعبوا لعبة ورق "البلاك جاك". بعد ذلك، تجدر الإشارة إلى أن "دومينيك" جمع فتات الرقاقة وأكلها: طعنها كان شيئًا، وإلقاؤها في الريح أو دهسها كان شيئًا آخر.

وهو يدلي ساقيه على حافة الجرف، كان يضرب كعبيه بالطين ويدخن غليونه المصنوع من خرطوشة بندقية. تغلبه شعور بالفراغ. أن يكون لديك أب متنمر، يلوح بالعصا ويضرب بقبضته، أفضل من ألا يكون لديك من تحاكمه. كان يثقله حزن اليتم، يتمه المزدوج. وحيدًا، وحيدًا تمامًا.

تراقص سطح نهر إيسا. ثعبان ماء كان يعبر إلى الضفة الأخرى، رافعًا رأسه العمودي عاليًا، وتموجات تشبه المجسات تتشكل بشكل مائل في أعقابه. قاس "دومينيك" المسافة بعينه وشعر في ذراعه بيقين إصابة الهدف. لكن ثعبان الماء كان كائنًا مقدسًا: من يقتله يفعل ذلك على مسؤولية إغواء القدر.

27

في كل خريف، كان توماس حاضرًا للمساعدة في الدرس. محرك المرجل: كان أفضل جزء هو الطريقة التي يبدأ بها أو ينفث البخار. فوق المرجل، بعيدًا قليلاً عن المركز، بالقرب من فرن يعمل بالحطب، كانت الكرتان الكبيرتان الدائرتان على قضبان معدنية تشبهان زوجًا من الأذرع الممدودة، منخفضتين بزاوية. هل امتدت الذراعان يومًا منتصبتين، تساءل. لم يكتشف ذلك أبدًا، فقد كان اهتمامه مكرسًا حصريًا لحركة الكرات. عند السرعة المنخفضة ـــ بررر-واك، بررر-واك ـــ كان من السهل تمييزها؛ ولكن عند السرعة العالية أصبحت دوامة تدور، ضبابًا غير مرئي تقريبًا: بففت-بففت-بففت... احتل زوج من المقاعد زاوية من السقيفة المطلية باللون الأصفر، التي اخترق مدخنة المرجل سقفها كمدخنة. توماس، جالسًا على أحد المقاعد، غالبًا ما كان ينضم إليه الرجال من الحظيرة أثناء استراحتهم من الدرس للتدخين. المقعد الآخر، المقابل، كان عادة ما يشغله "سيبنيفسكي" الشاب، ممددًا على جلد غنمه.

بصفته ابن شقيق "شاتيبيلكو"، كان "سيبنيفسكي" مسؤولاً عن المرجل. وهو يرفع ركبتيه، كان يستلقي هناك، ورأسه في حضن يده، يتأمل في ما لا يعرفه إلا هو. من وقت لآخر، كان ينزل من المقعد، ويفحص مقياس الضغط، ويفتح الباب الصغير، ويلقي بضعة جذوع بلوط في الحفرة المتقدة، أو يزيت المحرك بعلبة زيت، على الرغم من أن الحداد كان مسؤولاً عن صيانته.

بوجه متورد وأنف تشبع برائحة الشحم، كان توماس يخرج ليستنشق الهواء النقي الذي كان يداعب أوراق الحور. في الخارج، كان مفتونًا بشيء آخر: حزام النقل. بعرض يقارب المتر، ومصنوع من جلد سميك مبطن، كان الحزام يربط عجلة المرجل الكبيرة بعجلة أصغر مثبتة على آلة الدرس. ما الذي منع الحزام من الانزلاق عن العجلة الأكبر، تساءل توماس. كانت هناك أوقات، في الواقع، ينفلت فيها، بسبب ارتخاء في الدورات، محدثًا صرخات "ابعدوا!" ـــ لأنه عندما كان يسقط، كان ذلك بتحطم يسحق العظام. كان العمل يتوقف على الفور بينما يحاول "سيبنيفسكي" والحداد تخفيف الصدمة بالضغط على الحزام بأعمدة. وبحلول الوقت الذي يقفزان فيه إلى الوراء، كان ينزلق دون صوت. علامة أكيدة على أن الآلة تتباطأ كانت إذا أمكن رؤية الرقع على الحزام أثناء دورانه.

داخل الحظيرة: سحب غبار، اهتزازات، وحمى من النشاط. الأكياس، المعلقة على خطافات حديدية، كانت تنتفخ في لمح البصر. كان توماس يحب أن يغمس يده في تيارات الحبوب الباردة. واحدًا تلو الآخر، كان الحداد ينقل الأكياس الممتلئة، إلى شجرة الحور وعلى آلة الوزن. أرضية الدرس، التي تعج بالغبار اللاسع، كانت ضبابًا من المناديل البيضاء والوجوه المتعرقة. وصفت حزمة قمح قوسًا في نهاية مذراة؛ ابتلعتها آلة الدرس بـ"غررر"، والكفوف في الخلف، ولونها الأحمر الفاتح الآن وردي باهت، كانت تهتز بعصبية جيئة وذهابًا، وتغربل القش بينها.

كانت هناك حاجة إلى عدة فرق من الخيول لتحريك محرك المرجل أو آلة الدرس. في بعض الأحيان، وإن كان نادرًا، كان يُنقل إلى إحدى المزارع المجاورة، مصحوبًا بالكثير من الصياح وقرقعة السياط ووضع الأغصان تحت العجلات. المرجل الآخر الوحيد في المنطقة كان يخص "بالوديس"، الأمريكي، في "بوجيراي"؛ في أماكن أخرى، كان الدرس يتم يدويًا، بالمدارس. قد تُعار آلة الدرس لأي شخص، باستثناء أولئك الذين يعيشون في الأسفل بجوار النهر: كان النزول سهلاً، لكن الصعود كان قاسيًا جدًا على الخيول.

في السابق، وهو في وطنه بين الدارسين، شعر توماس لأول مرة، بعد الحادثة مع "دومينيك"، أن وجوده غير مرحب به إلى حد ما ـــ من خلال أحاديث الرجال، ومن خلال الطريقة التي تجاهلوه بها أو بصقوا تبغهم بتكاسل. "سيبنيفسكي" الكئيب؛ والنساء، يطردنه بعيدًا عن أرضية الدرس؛ والأطفال الآخرون في سنه، الذين كُلفوا بمهام خاصة، مثل انتشال القماش المشمع المستخدم لالتقاط القشر من تحت آلة الدرس ـــ كل ذلك جعله يشعر وكأنه غريب.

اتخذت المضايقات الصغيرة الأخرى معنى جديدًا. نظرات الرضا المتعالية عندما جرب يده في منجل أو محراث، على سبيل المثال، أو "البارابان" ـــ قطعة معدنية مشدودة على أسلاك، كان "شاتيبيلكو" يقرعها في الصباح عندما يحين وقت الذهاب إلى العمل، ولاحقًا في المساء عند وقت الانصراف (خلال موسم الدرس، كانت الإشارات تأتي من صافرة المرجل، وهي صفعة حادة لدرجة أنها تجعل الناس يسدون آذانهم). كان لقرع "شاتيبيلكو" نغمة محددة، وكان الناس يضحكون لأنه بدا وكأنه يقول "بوبي-بوس، بوبي-بوس". كانوا يضحكون بطيبة خاطر، لكن ذلك كان مؤلمًا مع ذلك.

في مساكن الخدم، كانت "أنتونينا" والنساء يثرثرن عن أسيادهن، عنهم وعن أسلافهم، سائقي العبيد القدامى. هواية قديمة واحدة كانت تثير فضول توماس بشكل خاص: كانت فتاة تُجبر على تسلق شجرة وتصدر صوت الوقواق بينما كان الرجال يطلقون عليها النار. كان توماس يحب ذلك عندما كانت الفتيات يتسلقن الأشجار في وقت قطف التفاح والكرز ـــ فقد سمح له ذلك بإلقاء نظرة على الظلام تحت فساتينهن (لم تكن السراويل الداخلية معروفة في "غينه"). كن يضحكن ويناديه بأسماء، لكن المتعة كانت مكتوبة على وجوههن كلها. فماذا فعلوا هم، أولئك العظماء من الماضي؟ أطلقوا النار من الأسفل؟ في تنهدات "أنتونينا" لم يلحظ فقط حقدًا كئيبًا بل أيضًا شعورًا بالتفوق ـــ عليه، هو الذي كان، بعد كل شيء، واحدًا منهم.

لهذه الأسباب وغيرها، بدأ يلجأ إلى صحبة جده. وهو يومئ برأسه، وذراعاه متشابكتان، كان يستمع إلى محاضرات عن النباتات ـــ كيف يُستنشق النيتروجين ويُزفر الأكسجين، وكيف كانت الغابات تُحرق كل عام وتُزرع الحبوب، حتى تصبح التربة قاحلة، وكيف أُدخل نظام الحقول الثلاثة لاحقًا. مع مرور الوقت، أصبح الجد رفيقه الرئيسي؛ الآن، عندما كان توماس يقلب صفحات كتب جده، كان يفعل ذلك وهو يطالب بتفسيرات. دخل مملكة النباتات الخضراء في ذلك الوقت من العام الذي تتحول

فيه الأوراق إلى اللون الأصفر وتسقط على الأرض، مملكة بعيدة عن الواقع. كان هذا ملاذًا له؛ لم تكن النباتات لئيمة أو شرسة، لم تجرح أو تستبعد.

كما لم يكن هناك أي شيء مهدد في الجد. دائمًا صبور، لا يشتته أبدًا شؤون الكبار لدرجة إهمال احتياجات توماس، كان يتحدث إليه بجدية، دائمًا بأسلوبه المتردد ــــ وهي علامة تدل على كل من التسلية والعاطفة. حتى وهو يغسل، ويمشط شعره، أو يمشط بقعة صلعه، كان دائمًا مستعدًا للإجابة على الأسئلة. فرك توماس يديه ذات مرة بالدهان ــــ وهو معجون يشبه الصابون جاء في أنبوب ورقي صغير ــــ وشمه. اغتسل الجد بماء دافئ، وبمنشفة ملفوفة حول خصره، كاشفًا عن صدر وبطن مغطيين بطبقة رقيقة من الفضة المائلة للرمادي.

أعربت الجدة "ديلبين" علنًا عن استيائها من نقص تعليم توماس المدرسي المناسب. ولعدم ثقتها في "جوزيف"، بدأت في تدريسه بنفسها، على الرغم من أن الكثير قد تغير منذ أن كانت تلميذة. وعدت أنه عندما تعود والدته ستأخذهما معها، لكن ذلك اليوم كان يُؤجل باستمرار. وما تعلمه لم يكن موزعًا بالتساوي. إذا كان يقرأ جيدًا، فذلك فقط بسبب فضوله. كان يكتب بخط دجاجة ويتحدث باللهجة المحلية، ويلقي بتعابير ليتوانية عشوائيًا (وهو ما سبب له لاحقًا إحراجًا كبيرًا في المدرسة). مع تحوله المفاجئ إلى الجد، بدأ في علم النبات، وأصبح على دراية إلى حد ما بالنسبة لسنه، وكان جده مبتهجًا بأنه بدلاً من أن يكبر ليصبح جنديًا أو قرصانًا قد يصبح يومًا ما مزارعًا.

لم تبقَ أي صور لتوماس من هذه الفترة، لسبب بسيط هو أنه لم يتم التقاط أي منها. في الآونة الأخيرة اكتشف المرآة، على الرغم من أنه لا يزال لا يعرف كيف ينظر إلى نفسه مقارنة بالآخرين. لم يفكر قط في استخدام مشط أو فرشاة. خصلة شعر كثيفة من الشعر الأشقر الداكن غير المروض كانت تنسدل على جبهته. خدود ممتلئة، عينان رماديتان؛ الأنف القصير المرفوع لخنزير بري صغير ــــ أنف مطابق للأنف في صورة جدته الكبرى "مول" ذات اللون الليلكي. طويل بالنسبة لسنه.

"تومي له وجه مثل مؤخرة تتري"، سمع ذات مرة صبيًا من "كوريفا" يهمس للآخر. أضافت الملاحظة إهانة إلى جرح. كان الصبيان، ابنا "كوريفا"، وهو جار من عبر نهر إيسا، قد توقفا في "غينه" مع والديهما. لقد تحكموا فيه، وأملوه مللاً بألعابهم، وآذوا مشاعره بدفعهم المستمر في الأضلاع والمضايقة.

نشأ الشك في أنه ورث عدم القدرة على تكوين صداقات. هل كان ذلك من الجدة "سوركونت" وميلها إلى الاستقلال العنيد؟ أم من خجل الجدة "ديلبين"؟ أم كان ببساطة بسبب قلة الخبرة؟ أخذه أجداده ذات مرة في زيارة اجتماعية. لم يقتصر الأمر على أنه نظر إلى ابنة المضيف بريبة، بل ارتجف عندما أخذته من يده وأرته الحديقة، متصلبًا جسده كله وهو يحبس أنفاسه خوفًا من أن تلامسه مرفقيها العاريتان النحيلتان. وهو يقف على جسر فوق جدول، وظهرهما إلى درابزين من خشب البتولا، شعر بهالة من التوقع، لكنه كان صامتًا. تذكر "أونوتي"، ورحلاتهما المتبادلة، وشعر بالإهانة.

أخلاقه الاجتماعية: كان يحمر وجهه ويجر قدميه في الصحبة. كان قد ذهب إلى المدينة عدة مرات، لكن ذلك بالكاد كان يعني ألفة مع العالم بأسره. في يوم السوق كان يبقى في العربة، ويساعد "أنتونينا" في عرض التفاح للبيع. كانت بعض المنازل في المدينة قريبة جدًا من حافة النهر لدرجة أنها كادت تلامس خط الماء ـــ اتسع نهر إيسا هنا، لدرجة أنه كاد لا يُعرف ـــ وكانت الشوارع مرصوفة بحصى كبيرة بما يكفي لالتواء الكاحل، وكان أصحاب المتاجر اليهود يقفون على الدرجات الخشبية لمتاجرهم، يشيرون إلى الزبائن. أطول وأكبر مبنى في المدينة كان قصرًا أبيض ـــ يطل على برك مغطاة بعدس الماء ـــ كان يخص ذات يوم عائلة أميرية ولكنه الآن في طور التحويل إلى مدرسة أو مستشفى. تقع محطة السكك الحديدية في الضواحي، ولهذا السبب كان يفضل الطريق الأطول ولكن الأكثر سلاسة إلى المنزل الذي يقطع عبر المسارات، لأنه حينها تتاح له فرصة رؤية قطار حقيقي. كان يتطلع إلى الرحلة. كانت "أنتونينا" تسلمه اللجام وكان يقرقع السوط. إذا كانا يسافران بمفردهما، كانت تجعلهما يربطان أبطأ الخيول ـــ كانت السيارات خطرًا دائمًا. لمنعها من الجمود، كان توماس يزيل البطانية التي تغطي مقعد القش، ويقفز إلى الأسفل، ويدور حول المقدمة، ويغطي رؤوس الخيول.

مع جده، متحررًا من الأعراف والإكراه الذي يأتي من التواجد بين الناس، كان يتجول في بلاد العجائب للبذور التي تنبت تحت الأرض ـــ من البراعم والتيجان والبتلات والمدقات والأسدية. قرر أن يتعلم الأنواع المختلفة من النباتات، بما يكفي لبدء معشبة في الصيف التالي.

28

حين كان رضيعًا، كثيرًا ما وُضِعَ على جلد دبٍ، فتحلّ عليه سكينةٌ مقدسةٌ؛ كان يجلس بلا حراك، نصف خائفٍ ونصف مفتونٍ، رافعًا يديه كي لا يلمس ذلك الوحش الأشعث. كان الجلد باليًا، قد أكلته

العثة، وهو من بقية آخر دبٍ في المنطقة، صيْدَ منذ زمن بعيد في طفولة جده. ورغم أنه لم يعرف الدببة إلا من خلال البساط والصور، إلا أنها أثارت في نفس توماس مشاعرَ مودةٍ عظيمة. ولم يكن الوحيد في ذلك، إذا حكمنا من خلال ذكريات كبار السن.

في الأزمنة الغابرة، كانت الدببة تُربَّى في الضياع الإقطاعية وتُدرَّب على أداء بعض الأعمال، كإدارة الطواحين اليدوية أو جرِّ الأخشاب. وقد حُكيت عنها نوادر لا تُحصى. ولا يزال أهل قرية "جيني" يذكرون دبًا أبيًا معتزًا بنفسه، كان مغرمًا بالإجاص الحلو لدرجة أنه إذا دعاه سيد المنزل للجلوس إلى المائدة، وجب عليه توخي الحذر في قسمة كل شيء بالعدل والإنصاف، فإذا كانت حصته من الإجاص لينة أكثر من اللازم أو فجة، زأر الدب غضبًا.

كان توماس ينتصب في كرسيه ويصغي بكل جوارحه حين تُروى حكايات أحد الدببة. هذا الدب، الذي اعتاد خنق الدجاج وكان لا بد من تقييده بسلسلة، أظهر مكرًا عظيمًا: كان يجلس على قوائمه الخلفية وينثر الرمل حوله بقائمتيه الأماميتين، وحين تقترب الدجاجات الساذجة إلى مدى السلسلة، يضربها بضربة قاضية يفقدها وعيها، ثم يخفي فريسته تحته متظاهرًا ببراءة ورعة.

لكن قصته المفضلة، وبطل أروع المغامرات على الإطلاق – وقد روتها الجدة ديلبين – كانت عن الدب الذي رأى عربة فارغة تقف أمام شرفة إحدى المزارع، فصعد إليها. نفرت الخيول، لكن الدب الذي أصابه الذعر هو الآخر، تجمد في مقعده. وصلت العربة الهاربة وراكبها الغريب إلى الطريق العام. وعند مفترق طرق كان ينتصب صليب؛ انحرفت العربة إلى جانب، فتشبث الدب بالصليب، وبينما لا تزال قائمته الأخرى ممسكة بمقعد السائق، تمكن من اقتلاعه من الأرض، وهكذا مزينًا دخل شارع القرية، مرعبًا القرويين، فقد بدا المشهد كأنه من عمل الشيطان.

وتُروى حكاية أن أحد الإقطاعيين الأرستقراطيين استخدم الدببة ليُظهر ازدراءه للروس. فقد زاره الحاكم العام، وهو روسي، ذات مرة، وهذا ما رآه وهو يقترب من القصر: دبَّان يقفان أمام الرواق، يحمل كل منهما حربة، وفي الأسفل على الدرج، يرتدي الإقطاعي قميص فلاح روسي وهو ينحني حتى الأرض. فسر الحاكم العام ذلك على أنه يعني: "نحن، رعايا الإمبراطور المتوحشون، نصف وحوش ونصف بشر، نرحب بكم تحت سقفنا"، فكزَّ على أسنانه وأمر بالعودة.

في كل هذه الحكايات، ظهرت الدببة كمخلوقات تتمتع بذكاء شبه بشري، مما جعل معاملتها في أكاديمية "سمورجون" للتدريب، كما وصفها جده، أكثر قسوة. كانت الدببة، وهي تنتعل قباقيب خشبية، تُساق على أرضية من الصفائح المعدنية تُسخَّن بنار من أسفل؛ ومع اشتداد حرارة الأرضية، تُعزف الموسيقى، وسرعان ما كانت الدببة المسكينة تجلس على قوائمها الخلفية – أما القوائم الأمامية فكانت تُترك عارية عمدًا. وفيما بعد، كانت الموسيقى دائمًا ما تذكرها بالمعدن المحرق فتبدأ في الرقص.

وأن تمتلك حيوانات ضخمة وقوية كهذه طبيعة خيرة، بل وجبانة، لم يزد المرء إلا تعاطفًا. وقد شهد على جبنها فلاح معين، في زمن كانت الدببة لا تزال فيه وفيرة في الغابات. كان الفلاح قد فقد بقرة – شاردة، معتادة على الابتعاد عن القطيع؛ وفي نوبة غضب، أمسك الفلاح بعصا، وحين وجد الشاردة ترقد في رقعة من توت العليق، بدأ يضربها. فأخبره زئير بأنه قد أخطأ. فر الرجل في اتجاه، والدب في اتجاه آخر، من شدة خوفه لوَّث الرقعة بأكملها. حتى أن الإسهال في تلك الأنحاء يُشار إليه بـ "مرض الدب."

كان الجد يذكر كيف أن الدب – الذي ورَّث جلده – قد دُخِّن لحمه بعد قتله، وكيف تعرفت كلاب الصيد على اللحم من رائحته، وكيف وقفت جلودها من مجرد رائحته.

في الشتاء، كانت "ميسيا" تفرش جلد أيل بجوار سريرها، إذ كان الأيل يُقدَّر لجلده المدبوغ، السميك والناعم الملمس. وحين بلي نعل حذاء توماس، أخذت جدته قطعة من الجلد من الخزانة، وقاست قسمًا، ثم قصت الجزء المحدد بالقلم الرصاص بالمقص. كان هذا أيضًا من بقايا الماضي، حيث أصبحت الأيائل الآن نادرة، ولم يتبق منها سوى القليل تحت رحمة الصيادين في غابة تقع على بعد حوالي عشرين كيلومترًا من "جيني."

ارتبط جلد الدب بإحدى حب توماس الأول. في أحد أيام الخريف، ظهر "بلتازار" في القصر وأعلن أن لديه هدية لتوماس في العربة. وهناك، ممددًا على فراش من القش، كان هناك قفص بقضبان خشبية، وداخل القفص – بومة نسرية.

وافقت الجدة "سوركونت"، وإن لم يكن ذلك دون تذمر من أن الطائر لا بد أن يثير الفوضى في المنزل. بقي البوم. كان "بلتازار" قد أمسكه ورباه قبل أن يتعلم الطيران؛ وكان أليفًا تمامًا، يسمح بأن يُمسك

من بطنه، وهو يصرخ بصوت حاد يشبه صوت الدجاج، ولهذا السبب أطلق عليه توماس اسم "صقّاق". كان صوتًا غير متوقع على الإطلاق. وعلى الرغم من أنه لم يكن أكبر من دجاجة، إلا أن جناحيه، عند فردهما، كانا أطول من ذراعي توماس الممدودتين بالكامل؛ كان له منقار معقوف، وقبضة قوية، ومخالب قاتل. ثم بدأت حقبة جديدة: انتزاع الفئران من كل أنواع الفخاخ التي يمكن تصورها. كان "صقّاق" يأكل هكذا: يمسك اللحم بين مخالبه ويمزقه بمنقاره. وكان قادرًا تمامًا على نقر يد إذا اقتربت من القضبان، لكنه لم يقترب من إصبع قط.

عند الغسق، كان توماس يطلقه من قفصه. طيران صامت، واندفاع هواء - وفجأة، في منتصف الطيران، كان يسقط كومة، ملطخًا الأرضية (وهو تصرف كان توماس ينظفه على الفور، لتجنب إغضاب الكبار)، ثم، من أعلى الموقد المبلط، يطلق صوت بوم حقيقي. وبعد انتهاء تمرين الطيران، كان يُعاد إلى قفصه.

نعومة ريشه، وعيناه الذهبيتان المحمرتان، وطريقة إيماءته، كشخص بعيد النظر يكافح لفك رموز شيء مطبوع بخط دقيق... زاد تعلق توماس به، لدرجة أنه كان يستطيع التنبؤ ببعض عاداته. عندما كان البوم يوضع على جلد الأيل، كان يتصرف بصخب: كان جسده كله يرتجف، وتتقلص مخالبه، ثم يبدأ في حفر الجلد، محولاً وزنه من ساق إلى أخرى. كانت لمسة واحدة من جلد الأيل القصير كافية لإثارة ذكريات أسلافه الذين كانوا يفترسون الغزلان والأرانب البرية. أما جلد الدب، من ناحية أخرى، فلم يبد أنه يزعجه.

بالنسبة لتوماس، على الرغم من أنه كان سيشعر بالحرج الشديد من الاعتراف بذلك، كان للشعر دلالات غامضة كثيرة وكان قريبًا من أن يكون هوسًا. لماذا رفع يديه عندما وُضع على جلد الفرو المنفوش؟ ولماذا كان يُعتقد أن الدببة لطيفة ووديعة إلى هذا الحد؟ هل لأنها كانت كثيفة الشعر؟ وماجدالينا تلك المرة في النهر. والبوم. ألم تكن تشنجاته وليدة نفس الشيء الذي شعر به توماس، في حلمه، كرعشة؟ من خلال التماهي مع البوم، من خلال تجسيد نفسه فيه وهو يخدش جلد الأيل، كان على وشك أن يسأل عما إذا لم يكن قد شعر برغبة في خدش ماجدالينا، أو ما إذا كان السكر الحلو قد جاء من معرفة أنها ماتت بالفعل. لكنه لم يسأل، وكان ذلك أفضل.

تصرخ الدجاجات، ولكن هذه هي طبيعتها. أما البوم، من ناحية أخرى، فكان بطبيعته ذا شخصية مزدوجة: واثق، أعزل، قلبه ينبض تحت أصابعك، ساقاه متدليتان، بلا رشاقة، يغطي عينيه بجفونه السفلية عندما يُحك خلف أذنه، ورعب الغابة ليلاً. ولكن هل كان حقًا خارجًا على القانون كما صُوِّر؟ إذا كان كذلك، فلا يبدو أن ذلك يؤثر على طبيعته الداخلية. أم أن كل شر يحمل في طياته ضعفًا خفيًا، شكًا، بصيص شك ضئيلاً؟

بمجرد وصول العمة "هيلين" ووقوع عينيها على البوم، بدأت هي والجدة "سوركونت" في التآمر. واتُخذ القرار: سيبيعانه. فالبوم النسري كان يباع بسعر جيد بين الصيادين، الذين كانوا يضعونه على أعمدة كطعم، ويختبئون في مخابئ ويطلقون النار على مهاجمي البوم. قبل توماس حكمهما بطاعة، وكأنه يشعر بأنه لا ينبغي لأي حب أن يتجاوز حدوده أبدًا. أما بالنسبة للمال الذي وُعِد به، فلم ير منه فلسًا واحدًا.

29

كلما دخل توماس المكتبة، كان عليه أن يرتدي معطفه الصغير من جلد الخراف ليتقي البرد؛ فالغرفة لم تكن تُدفأ أبدًا، وكانت يداه تزرقّان وهو يقلب صفحات الرقّ على أمل أن يعثر على شيء عن النبات أو الحيوان. وكثيرًا ما كان يتناول بضعة مجلدات ويلوذ بركن أكثر دفئًا من المنزل. أحد المجلدات التي اختلسها بهذه الطريقة حمل عنوانًا وجد صعوبة في فك حروفه الملتوية كالأفاعي: "في وظيفة حملة السيف...". ولما عجز عن فهم البقية، لجأ إلى جده ليشرح له محتواه. قرأ جده العنوان بصوت عال، ولكن ليس قبل أن يضع نظارته ذات المقبض: "عقائد كنيسة سيدنا يسوع المسيح/ القائمة في ليتوانيا/ ملخصة بإيجاز/ وفقًا للكتاب المقدس. دفاع عن الوظيفة المذكورة ضد كل خصومها بقلم شمعون بودني. في مسألة ما هو منصوص عليه بوضوح في الكتاب المقدس! أنه يجوز للمسيحي أن يمتلك رعايا، أحرارًا وعبيدًا! طالما عوملوا بتقوى الله. هذا في سنة 1583 بعد الميلاد".

وبينما ينقر بعلبة نظارته الجلدية على غلاف المجلد العفن، بدأ جده يقلب الصفحات. وبعد برهة، تنحنح قائلاً: "هذا ليس كتابًا كاثوليكيًا. أتعلم يا توماس، منذ زمن بعيد، عاش رجل اسمه هيرونيموس سوركونت. هذا الكتاب كان ملكه؛ لقد كان كالفينيًا".

كان توماس يعلم أن كلمة "كالفيني" تنطوي على شيء سيء، بل إنها كانت مصطلحًا ازدرائيًا. لكن أولئك، أولئك الكفار، الذين لم يذهبوا إلى "كنيسة" بل إلى"Kirche" ، انتموا إلى عالم المدن والسكك الحديدية والآلات البعيد. بروتستانت؟ هنا في "جيني"؟ اعتبرها شرفًا أن يُطلَع على مثل هذا السر المخزي.

"زنديق؟"

أعاد الجد نظارته إلى علبتها بأصابعه. نظر من النافذة وحدق في الثلج. "همم؟ نعم، نعم، زنديق"...

"وهذا الهيرونيموس سوركونت كان يعيش هنا؟"

انتعش الجد فجأة. "هل عاش هنا؟ ربما، لكننا لا نعرف عنه سوى القليل جدًا. لقد قضى معظم وقته في كيداينياي، في بلاط الأمير رادجيفل. هناك كان للكالفينيين أبرشيتهم ومدرستهم".

شعر توماس ببعض التحفظ من جانب جده، نوعًا من المقاومة، ذلك الغموض المتعمد الذي يستخدمه الكبار عندما يتحدثون عن أفراد معينين من العائلة بأصوات خافتة، ويصمتون في اللحظة التي يدخل فيها أي شخص الغرفة. وجوه هؤلاء المنبوذين، التي يستحيل تصورها، تختفي في الخلفية المظلمة كما في صورة فوتوغرافية باهتة، دون أن يترك أثر لحاجب أو شائبة في الوجه تذكيرًا بهم. وأيًا كانت الخطايا التي ارتكبوها - خطيرة بما يكفي لتجلب العار على أحفادهم - فإن العصر الذي عاشوا فيه، ودرجة القرابة، تذوب في همسات أو توبيخات لطيفة موجهة إلى المتطفل. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا.

"هناك جانب ألماني في عائلة سوركونت. كلهم من نسل هيرونيموس. منذ ما يقرب من ثلاثمائة عام، في عام 1655، غزا السويديون أرضنا. انحاز هيرونيموس إلى جانب الملك السويدي، كارل غوستاف".

"إذًا كان خائنًا؟"

كان الجد يحب أن يقرص طرف أنفه ذي العروق الأرجوانية، وينفخ منخريه، ثم يطلقهما فجأة، محدثًا صوت "بفف-بفف."

"لقد كان كذلك" - بفف-بفف - "ولكن لو حارب ضد السويديين، لكان قد خان الأمير الذي خدمه. في كلتا الحالتين، كان سيكون خائنًا".

قطب توماس حاجبيه وهو يتأمل تعقيدات المعضلة. "إذًا كان خطأ الأمير رادجيفل،" أعلن أخيرًا.

قال جده: "لقد كان رجلاً طموحًا". "اعتقد أنه بمجرد أن يجعله كارل غوستاف دوقًا أكبر، لن يعود تابعًا للملك البولندي. وبصفته حاكمًا لليتوانيا، يمكنه عندئذ إجبار الجميع على اعتناق مذهبه".

قال توماس: "ولو فعل ذلك، لكنا جميعًا كالفينيين، أليس كذلك؟"

"على الأرجح." دقق في وجه حفيده، مبتسمًا بطريقة توحي بأنه يرى ما وراء أسئلة الصبي، إلى الوعي الذي بدأ يتشكل تدريجيًا: لماذا نحن ما نحن عليه؟ من أو ماذا يقرر؟ ماذا كان سيصبح لو كان شخصًا آخر؟ "لكن هيرونيموس سوركونت لم يكن كالفينيًا تمامًا. لقد كان سوسينيًا، نوعًا آخر - آه - من أولئك الذين رفضوا الاعتراف بالبابا".

وبدأ يخبره عن السوسينيين، أو الآريوسيين كما كانوا يُدعون أيضًا، وعن المجموعة الجديدة من العقائد التي نشروها - عقائد تحرم، من بين أمور أخرى، تولي المناصب العامة، سواء كانت منصب الحاكم أو القاضي أو الجندي، وهي ممارسة أدانها المسيح صراحة؛ وملكية الأقنان. كانت هذه النقطة الأخيرة سببًا في الكثير من الخلاف، حيث جادل الكثيرون بأن الكتاب المقدس يقرها - وهو موقف الكتاب الذي أخذه من المكتبة. أما بالنسبة لهيرونيموس، فبعد طرد السويديين غادر البلاد ولم يعد إليها أبدًا، واستقر في النهاية في بروسيا، في مكان ما حول كونيغسبرغ.

وهكذا زُرعت البذرة، ولم يكن لدى جده طريقة لمعرفة كم من الوقت ستُغذى في سبات البذور النباتي الذي ينتظر وقته بصبر. زُرعت البذرة: احتوت على صرير الألواح الخشبية، وصوت خطوات تنزلق على طول أرفف الكتب والأوراق المرقمة التي تتوهج بين صفوف داكنة من التجليدات الجلدية: أكواع

مسندة على الطاولة في حلقة من الضوء يلقيها عاكس ضوء أخضر: قلم رصاص يرتفع ويهبط محاكيًا الفكر، الذي لا يكون في البداية سوى ضباب، غشاوة بلا شكل أو مخطط... لا أحد يعيش وحيدًا: إنه يتحدث مع أولئك الذين لم يعودوا موجودين، وحياتهم تتجسد فيه: إنه يتتبع خطواتهم، ويصعد درجات صرح التاريخ. آمالهم وهزائمهم، والعلامات التي تركوها وراءهم، ولو كانت حرفًا واحدًا منحوتًا في الحجر - هنا الطريق إلى السلام، إلى تخفيف الأحكام التي فرضها على نفسه. السعادة تُعطى لأولئك الذين لديهم الموهبة. لن يشعروا أبدًا وفي أي مكان بالوحدة، حيث تواسيهم ذكرى كل الذين كافحوا، مثلهم، من أجل شيء لا يمكن بلوغه.

وسواء كوفئ توماس أم لا، فإن لحظات كتلك التي قضاها بصحبة جده بقيت معه، مستبقة عصرًا تصبح فيه الأصوات التي أخرسها الزمن ثمينة.

30

استغرق الإسباني ميخائيل سيرفيتوس أكثر من ساعتين ليموت. ودام موته كل هذا الوقت لأن الحطب المكوَّم لم يكن كافيًا، ومن بين ألسنة اللهب راح يوبّخ مدينة جنيف على شحّها. "يا لبؤسي، لا يسعني حتى أن أموت ميتة لائقة! لا شك أن المائتي دوكات والسلسلة الذهبية التي صادروها كان ينبغي أن تشتري حطبًا كافيًا لحرقي حيًا"!

في تلك الأثناء، جلس كالفن في كرسيه بصلابة، يقرأ الكتاب المقدس في ضوء غرفته الخافت، بينما كان نائبه، غيوم فاريل، وعيناه تلذعان من الدخان، يصيح في وجه الزنديق المحترق: "آمن بيسوع المسيح، ابن الله الأزلي"!

هكذا كان مصير ميخائيل سيرفيتوس، بعد أن اختبأ بين البابويين في فرنسا عشرين عامًا —— مصير أراده له الرجل ذاته الذي تبادل معه الرسائل سرًا والتمس لديه الملاذ. لكن سيرفيتوس كان ذا روح لا تُقهر، فظل لسانه في فمه المتفحم يتململ، وصوته الواهن ما زال قادرًا على الشهادة للحقيقة الكفرية: "أؤمن أن المسيح كان ابن الله الحقيقي، ولكن ليس أنه كان أزليًا".

نجا منه صيتٌ ذاع من بلد إلى بلد، صيتٌ جعل ريش الإوز يصرُّ على الورق في بازل، وتوبنغن، وفيتنبرغ، وستراسبورغ، وكراكوف، وهم ينقلون أطروحاتٍ تهاجم الثالوث، حصلوا عليها سرًا من الأصدقاء. وحين اكتُشفت نسخ من كتابات سيرفيتوس المحظورة بحوزة بعض الطلاب البولنديين في توبنغن، سخر الأمير قائلاً: "هذيان!"، وارتجفت الجامعة وحاولت التعتيم على الأمر برمته. لم يُذكر اسم سيرفيتوس قط، وحتى بطرس غونيسيوس، الذي عاد لتوه من بادوفا لنشر العقيدة الجديدة بين الطوائف البروتستانتية في بولندا وليتوانيا، كان حريصًا على عدم النطق باسم سيده علنًا. لكن ميلانكثون لم يُخدع، فكتب: "لقد قرأت عملاً لليتوانيٍّ يعتزم استدعاء سيرفيتوس من الجحيم". وفي ترانسيلفانيا ومورافيا، في تلك الأثناء، كان جاكوب باليولوغوس يؤلف عمله العظيم "ضد كالفن دفاعًا عن سيرفيتوس" — كُتب بوضوح دفاعًا عن الإسباني. لكن الصندوق الذي يحتوي على مخطوطاته خُتم بيد محاكم التفتيش المقدسة، إثر اعتقاله وترحيله إلى روما، حيث مات ميتة الشهداء.

عند تدوين أي تاريخ، يُعاد بناء الأشخاص والأحداث من خلال تفاصيل ثانوية. والآن، من الخيانة للأمانة القول بأن هيرونيموس سوركونت كان رجلاً قصيرًا أو طويلاً، داكن الشعر أو أشقر، في حين لم ينجُ أي وصف مادي له، ولا حتى تاريخا ولادته ووفاته. هذا القدر كان مؤكدًا: أن روما كانت في نظره عرش المسيح الدجال؛ وأنه وهو يمتطي صهوة جواده مرتديًا سترة من جلد الأيل على طول الطريق المحاذي لنهر إيسا، كان يتأمل بحزن هذا الشعب العاجز عن اعتناق الإيمان الحقيقي. فمسيحيتهم كانت مسيحية زائفة تلائم الخرافات البابوية: فبعد ترتيل الترانيم في الكنيسة، كانت النساء يهرعن لتقديم القرابين للثعابين، مقتنعات بأنهن إن لم يفعلن فلن يكون رجالهن قادرين على أداء واجباتهم الزوجية. وحلّت الأساطير محل الكتاب المقدس، أساطير عن إله للماء وإله للريح يهزان العالم. والطقوس الوثنية، كتلك التي تُمارس عندما يجتمع الصيادون قبل الصيد. واللقاءات الخفية تحت أشجار السنديان.

ولكونه رجلاً فضوليًا، مدفوعًا بما لا بد أنه كان تعطشًا جارفًا للمعرفة، فمن المرجح أنه بحث عن أمثاله، ووجدهم في كيداينياي. لا بد أنه درس بجد واجتهاد ليشعر بالندية في تلك المناظرات التي كانت تُعقد على ضوء الشموع، داعمًا حججه باقتباسات من الكتاب المقدس: "استدلالك يا سيدي الفاضل مغلوط، والأحرى أن يُسمى سفسطة، لأن ذلك المقطع بالعبرية يمكن تفسيره على نحو آخر".

أو: "أيها الأخ الزميل، أليس القصد واضحًا جليًا في الشروح اليونانية واللاتينية؟". كان هذا في وقت كان فيه الثالوثيون، الذين ما زالوا موالين لكالفن، وثنائيو الألوهية، وحتى أولئك الذين رفضوا عبادة المسيح على غرار شمعون بودني، لا يزالون يتسامحون فيما بينهم، بفضل التأثير الملطف لرادجيفل، الذي، على الرغم من اتخاذه كنيسة جنيف نموذجًا له، امتنع عن حظر المناظرات اللاهوتية بل كان ميالاً إلى المستجدات. وقد وجد عدد غير قليل من الآريوسيين من بولندا ملاذًا في ضيعته، وإن كان ذلك بثمن ممارسة قدر من الحذر.

هل "غُطِّس" هيرونيموس سوركونت؛ أي، هل تُعمّد وهو راشد، بالطريقة التي نص عليها الإخوة، الذين عارضوا بشدة تعميد الرضع؟ لا سبيل إلى المعرفة، على الرغم من أنه من المعروف أنه كف عن كونه ثالوثيًا، وبقي مخلصًا لذكرى سيرفيتوس، بعد ما يقرب من مائة عام على موت ذلك الشهيد. وقد اعتبر بديهيًا أن استبدال الإله الواحد بسيربيروس ذي الرؤوس الثلاثة كان إهانة شنيعة للعقل. تبنى الأطروحة الثورية القائلة بأن الله واحد، كما أن الكتاب المقدس واحد، واضح لا لبس فيه ولا يتطلب أي تفسير رسمي؛ وما على المرء إلا أن يقرأ الأناجيل، ليعود إلى عصر الرسل، وليجتاز قرونًا سعت خلالها الفلسفة المدرسية إلى طمس الكلمات البسيطة للأنبياء والمسيح. لم يقطع كالفن سوى نصف الطريق، فقتل سيرفيتوس خوفًا من الحقيقة. ومن لم يدمر سيربيروس فلن يتحرر أبدًا بالكامل من كل الشعوذة، وصكوك الغفران، وقداديس الموتى، والتماس شفاعة القديسين، وكل الأمور الأخرى ذات الطبيعة السحرية.

يمكن للمرء أن يستنتج، من ندرة الحقائق المتاحة، أنه في ذلك الجدل الديني الذي قسم الإخوة لعقود عديدة، مال هيرونيموس سوركونت لصالح الإرث الذي خلفه بطرس غونيسيوس. فبينما يضع كل أمله في يسوع المسيح لخلاص روحه ("أنا دودة حقيرة في عيني ربي"، فك توماس رموزها في أحد كتبه)، كان ليجادل بأن المسيح لم يشارك الله في ألوهيته؛ وأن "الكلمة"، الكلمة غير المرئية والخالدة، صارت جسدًا في رحم العذراء؛ وبعبارة أخرى، أن المسيح قد حُبل به من "الكلمة". لقد اعتنق إنسانية المسيح بخشوع وامتنان وفرح، ولكن ليس مثل غير العابدين، الذين لم يميزوا بين إرميا وأشعياء ويسوع، والذين كانوا أميل إلى الاستشهاد بالعهد القديم أكثر من الجديد.

ولكن ماذا عن أفكاره بشأن كتاب غونيسيوس "في أسبقية الكنيسة المسيحية"، الذي لا بد أنه درسه، وعن أعمال تلاميذه؟ من الصعب أن يكون هيرونيموس سوركونت قد رفض حججهم في المجال العملي، وهي حجج تردد صداها طويلاً في مجامع ليتوانيا. فمطالبهم، في نهاية المطاف، منحتها الأناجيل مصداقية. ألم يُكتب: "ومن لطمك على خدك فاعرض له الآخر أيضًا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا". ألم يُكتب: "قال له يسوع: اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم". ألم يُكتب: "وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها، يُشبّه برجل جاهل، بنى بيته على الرمل: فنزل المطر، وجاءت الأنهار، وهبت الرياح، وصدمت ذلك البيت، فسقط، وكان سقوطه عظيمًا". اليهود، واليونانيون، والعبيد، والسادة متساوون؛ كلهم إخوة. المسيحي لا يسفك دمًا، بل يتجرد من السيف. يحرر أقنانه من العبودية، ويبيع ممتلكاته الأرضية، ويوزع ثروته على الفقراء. وهكذا فقط يصبح جديرًا بالخلاص؛ وهكذا فقط يميز نفسه عن المنافقين، الذين تكذب أفعالهم أقوالهم.

جاءت الفترة المعنية بعد أن رفضت مجامع ليتوانيا هذه المطالب المتصلبة، مما أدى إلى خلاف مرير بين الإخوة. شرع سوركونت في دحض حججهم بمساعدة العهد القديم، وكذلك بأمثلة مأخوذة من تجربته الخاصة. صحيح أن الأقنان عانوا من فقر وقمع شديدين —— ولكن تحريرهم من العبودية؟ كان ذلك ليدعو إلى الوثنية والهمجية واللصوصية. انظروا ماذا حدث أثناء التحرير في عهد ريكوت، حاكم ساموجيتيا: لجأ الأقنان إلى الغابات، ولم يخرجوا منها إلا للقتل والنهب. ثم، كان هناك أيضًا مثال ثورة فلاحيهم مع إحيائها للآلهة القديمة، مما شكل إنذارًا لملاك الأراضي الذين يقطنون وادي إيسا. أن يحل المرء حزام سيفه؟ لقد اختار تلاميذ غونيسيوس وقتًا سيئًا لاقتراح مثل هذا الإجراء الجذري: ففي الشرق، وراء نهر دنيبر، كانت الحروب مع إيفان الرهيب لا تزال مستعرة بلا هوادة. وبعد هزيمتهم في التصويت في المجامع، لم يتعافوا قط من هزيمتهم.

ثم جاء كارل غوستاف السويدي، مشهرًا السيف باسم إمبراطورية للبروتستانت. وهيرونيموس سوركونت؟ هل عانى من لحظات تردد؟ من حيرة؟ لقد رسم أميره رؤية قوية لليتوانيين يعيشون تحت حماية ملك سويدي؛ يجردون البابويين من الأراضي والأقنان، ليصبحوا حملة النور إلى الشرق والجنوب، وصولاً إلى أوكرانيا، حيثما نجح أصحاب الأردية السوداء، وأفواههم مليئة ببيزنطة المقدسة ولكنهم لا يعرفون كلمة يونانية بأنفسهم، في إبقاء الناس في جهل. لم يكن لديهم خيار: كانوا مهددين بغزو يسوعي —— اليسوعيون، بأساليبهم الماكرة في الإغواء، ومسارحهم، ومدارسهم،

يجذبون كل عام المزيد والمزيد من المؤمنين بعيدًا؛ تدنيس المعابد، ومهاجمة مواكب الجنازات من قبل حشود الطلاب... وقبل مضي وقت طويل، لن يتبقى شيء من الكنيسة الإصلاحية في ليتوانيا. لقد لعب الأمير ورقته الأخيرة، طاعةً لدعوته كحامٍ للإيمان. ولطموح آخر، يلوح في الأفق: التاج. ومن يدري، حتى رؤى الجيوش السويدية والليتوانية والبولندية تقف على أبواب موسكو.

يشك المرء في أنه لم يكن مدفوعًا فقط بولائه للأمير ولكن أيضًا بازدرائه للنبلاء المتغطرسين، الذين حرضهم الكهنة على حرب مقدسة ضد الزنادقة. لم يطبقوا قط العقل البارد، ولم يفتحوا الكتاب المقدس قط، مسترشدين فقط بغريزة عمياء بدائية.

مخلص حتى النهاية. ورعب كل ذلك: الانتكاسات الأولية، وتردد حتى أشد المؤمنين حماسة، وحرب أهلية، وبلاد خربت، واللامبالاة المشؤومة للحلفاء... جاء الموت إلى الأمير بينما كان البابويون يقتحمون القلعة، آخر معقل. ثم، بالنسبة لهيرونيموس، ساعة الحساب الأخيرة، الوقت الذي يكرر فيه كل إنسان بعد المسيح: "إلهي، لماذا تركتني"، التلاشي الأخير للكبرياء والإرادة.

يمكننا أن نفترض أنه وجد العزاء في الكتاب المقدس، أو في ذكرى شهيدهم المناهض للثالوث ـــ رأسه متوج بقش منقوع في الكبريت؛ جسده مقيد بالسلسلة إلى الخازوق؛ كتابه، ينتظر أول لعقة من اللهب، مربوط بقدمه. وقد نجت رواية مفصلة عن موت سيرفيتوس، بفضل رفاق هيرونيموس سوركونت في الدين من الطوائف البروتستانتية في بولندا وليتوانيا. هم الذين نسخوا المخطوطة، التي لم تكن لتوجد لولا ذلك، وتحمل عنوان "تاريخ سيرفيتوس وموته"، ومؤلفها هو بطرس هيبرفراغموس غاندافيوس. لا، لا يمكن مقارنة المنفى بالتعذيب الجسدي. ومع ذلك، تحمل سوركونت عذابًا روحيًا، ووصمة الخائن، وعبء الشك الذاتي الناجم عن عدم معرفة ما إذا كان قد اتخذ الخيار الصحيح. بين ولائه للملك، والجمهورية، ولأميره، الذي لم يحاسبه قط على خلافاتهما اللاهوتية. بين ازدرائه للبابويين ونفوره من الغزاة، الذين كان عليه أن يتمنى نجاحاتهم ـــ لا هزائمهم. زنديق في عيون الكاثوليك. منبوذ بالكاد يُحتمل بين البروتستانت. كل ما كان بوسعه فعله، في الواقع، هو أن يكرر: "أنا دودة حقيرة في نظر ربي".

وبمحض الصدفة، اكتُشف أن آخر سليل لهيرونيموس، وهو ملازم يُدعى يوهان فون سوركونت، طالب لاهوت، قُتل في عام 1915، في الفوج. إذا كان جسده يرقد على منحدر يواجه الشرق، حيث تنحدر صفوف كثيفة من الصلبان إلى وادي الراين، صلبان قد يخطئها المرء من بعيد فيحسبها كروم عنب، فإن العشب على قبره تداعبه الرياح الجافة القادمة من موطنه ليتوانيا.

31

في "جيني"، كانت "البِتني(bitni) "، أو النحّالة من الكلمة الليتوانية "bite" التي تعني "نحلة"، هي عمة توماس، هيلين يوخنيفيتش. وكأجرٍ لرعايتها خلايا النحل، كانت تُخصَص لها نسبة من العسل والشمع ـــ فرغم أنها فرد من العائلة، اقتضى العرف ذلك. كان وصولها يشير دائمًا إلى إخراج أدوات من خزانة خاصة وارتداء ألبسة مميزة. فتشمر عن سواعدها حتى المرفقين، وتضع قناعًا على رأسها، أشبه بسلة من الشاش الأخضر. ورغم أنها كثيرًا ما كانت تستغني عن القفازين، نادرًا ما كانت تُلسع.

أُنيطت بتوماس مهمة ملء المدخِّن (وهو من الصفيح وله مقبض خشبي) بجمر حي من المطبخ، مع الحاجة إلى خشب متعفن لجعل الجمر يشتعل ببطء. بقناعها، وسكين ودلو في يد، والمدخِّن المتصاعد دخانه في الأخرى، كانت تبدو ـــ حسنًا، ما كانت لأي استعارة أن توفيها حقها. كان توماس، بفم مفتوح، يلتهم بشغف ذلك الطيف وهو يسير في الممر باتجاه الخلايا. ولاحقًا، في المنزل، كانت تغرف بعض اللبن الرائب من وعاء وتضعه على مواضع اللسع. وعندما يحين وقت استخلاص العسل، كان توماس يتولى تشغيل "جهاز الطرد المركزي" ـــ وهو وعاء معدني يُدار يدويًا بعصا، فيدفع العسل خارج الأقراص.

كان للعمة هيلين نفس الأنف الكبير الهرمي الشكل والوجنتين الناتئتين كالتفاحتين اللتين تميزان الجدة "ميسيا"، والتي كانت تشبهها شبهًا جسديًا واضحًا، لولا أنها كانت أكبر حجمًا إلى حد ما وذات عينين زرقاوين. كانت لها ابتسامة معسولة ومظهر من التقوى، وهو ما كان يخدم مصلحتها بوضوح، مُغلِّفًا نزواتها بغلالة من البراءة. كان شغفها المهيمن هو الشُّح، الذي لم يكن يمليه الاقتصاد بقدر ما كان يمليه شيء متأصل في أعماقها، جوهري في كيانها، لدرجة أنه كثيرًا ما كان يبحث عن تبرير في أكثر الدوافع غرابة. فإذا اضطرت للذهاب إلى البلدة لقضاء حاجة ما، لم تكن تستقل العربة

أبدًا. "الطقس جميل جدًا ــــ أشعر برغبة في المشي اليوم"، وهكذا قائلة، كانت تقطع الكيلومترات العشرة إلى البلدة سيرًا على الأقدام، وتخلع حذاءها فور وصولها إلى الطريق، لأن "المشي حافية أصح"، على حد قولها. أما السبب الحقيقي، بالطبع، فكان تجنب دفع إكرامية للسائق والحفاظ على حذائها من الاهتراء. وعندما يتعلق الأمر بتقسيم العسل والدقيق، كانت تتأكد دائمًا من أن أفضل حصة تذهب للآخرين، إلا أن الحصة "الأفضل" كانت دائمًا تحتوي على عيب خفي. وإن صحت الشائعات، فلم تكن تترفع عن إطعام خدمها لحمًا فاسدًا، كلحم الخنزير الموبوء بالديدان مثلاً، رغم أنها بلا شك كانت تفخر بأنها لا تبقيهم على نظام غذائي نباتي حصريًا.

ورثت عن "ميسيا" بنية حديدية وقدرة على التحمل. لم تمرض قط ــــ ولكن ويلٌ لمن يستدعي لها طبيبًا لو مرضت! كانت مسافة عشرين كيلومترًا بالنسبة لها بمثابة نزهة ريفية، وإن كان بإمكانها بسهولة أن تقطع مائة كيلومتر بخطوتها الفلاحية السريعة. وبطبيعة الحال، لم تكن تتخلى عن الاستحمام في النهر إلا مع دخول شهر نوفمبر. لم يرها توماس قط وفي يديها كتاب، ولا حتى كتاب صلاة، وكأنها أقسمت ألا تلمس واحدًا، رغم أن الفرنسية القليلة التي كانت تعرفها تدل على أنها لا بد قد درست في وقت من الأوقات.

كان وصول زوجها، لوكاس يوخنيفيتش، مسرحيًا دائمًا، وكانت عدواه تنتقل إلى من حوله. فكان يصرخ ويهلل من عربته، ويرفع ذراعيه، ويقفز منها، ورفرفات عباءته تخفق خلفه، مستعدًا لعناق دافئ كعناق الدب، ويأتي راكضًا وهو يصرخ بصوت سوبرانو حاد: "ماما! أوه، أوه، أوه! كم أنا سعيد برؤيتك، يا لروعة هذا المشهد الذي يسرُّ العينين...!" ثم قبلات وهمهمات... لكن عامل الجذب الرئيسي كان وجه الرجل: مستدير، بخصلة شعر داكنة تتدلى على جبهته، وجه تغضن كله بالصدق والعاطفة. "لوك الطيب"، كانت تجيبه "ميسيا"، التي تكون قد اختنقت وابتلت من العناق، ثم تتنهد من خلف ظهره برحمة: "الأبله الطيب". أما بالنسبة للجدة ديلبين، فكان "لوك" دليلاً حيًا على أن هناك على الأقل ذرة من الحقيقة في المثل القديم: "لا يولد على ضفاف نهر إيسا سوى الحمقى والمجانين".

في ذلك الصيف، الصيف الذي بنى فيه توماس معشبته (بعد أن تمكن من تدبير بعض الورق المقوى من "باكيناز")، لم يعد شرفه كعالم طبيعة يسمح له بالابتعاد عن خلايا النحل، التي كانت محظورة

عليه حتى ذلك الحين؛ وبعد إلحاح كبير، استسلمت عمته أخيرًا ووافقت على اصطحابه معها إلى المنحل. لم يترك شيئًا للصدفة، فارتدى سروال جده الطويل مربوطًا عند الكاحلين، وقناعًا قديمًا بشبكة صدئة، وزوجًا من القفازات المطاطية. على الرغم من تقدير النحل لذكائه، ورغم أنه محاط بشاعرية العسل، إلا أنه اتخذ مظهرًا مختلفًا تمامًا في اللحظة التي فُتحت فيها خلاياه —— مظهرًا لا يتوافق تمامًا مع صورته وهو يطن في أغصان شجرة الزيزفون. رائحة لاذعة، وهيجان في الحركة، وتخمر مجنون، وصرامة القانون القاسية: من المؤكد أن "جيني" كانت إعدادًا سيئًا للحياة في المجتمع إذا كان توماس قد ارتعب من شيء قاسٍ وغامض كخلية النحل. راحت النحلات تهجم عليه بنية اللسع، وتحط على قفازه، وبطونها المقوسة تهتز تشنجيًا، وأقدامها الضئيلة تتشبث بالمطاط —— كل ذلك من أجل أداء ذلك الفعل المميت ثم الموت، بعجز وتشنج، في العشب. كانت عمته تعمل بوتيرة متمهلة، وتنفض مهاجميها بلامبالاة، محذرة إياه بين الحين والآخر: "رويدك يا توماس." لكن توماس تأثر بالجحيم الصاخب للخلية، بإيقاعها الخاص والمستمر، أكثر من تأثره بالألم. لم يستطع تحمل الأمر؛ بدأ يركض، والنحل في مطاردة حامية، ونبرة قتل في طنينه. صرخ ولوح بذراعيه —— وباختصار، انتهى المشروع برمته، حلمه بتحقيق شيء ذي قيمة في المجال العملي، بخزي وعار.

كانت النباتات أفضل، وأكثر هدوءًا. بعضها، بعد استشارة "دليل اقتصادي وتقني للمعشبة" ضخم، أغرى المرء بإعداد البوتقات والمداق —— صيدلية كاملة —— لشدة جاذبية الأوصاف لخصائصها الطبية. رؤى لمغليات مختلفة الألوان يجب مزجها وتصفيتها؛ ومستخلصات مغمورة في الكحول؛ ومربيات ومحفوظات مصنوعة من جذور كان يُعتقد شعبيًا أنها عديمة القيمة. كما في خزانة مؤن العائلة في "جيني"، انغمس الخيال في شبه ظل عطري. أما الآن، فقد اكتفى توماس بتكريس نفسه لعمل أقل عملية: جمع أنواع مختلفة.

كان لديه ضعف تجاه زهور الأوركيد، التي احتوت على كل سحر المخلوقات التي تسكن المناخات الأكثر دفئًا ورطوبة، كونها بالنسبة للمناطق الشمالية رسل الجنوب الاستوائي. أولاً كان هناك الساق، ولحم أجسادها الخضراء، المتصلة بأزهار تخفي شمعدانًا متعدد الفروع وتفوح منها رائحة خفيفة لشيء فاسد، بري، خفيفة لدرجة أنه كان يجب استنشاق عطرها طويلاً لتسميته —— ولكن للأسف، كان عصيًا على التسمية. في يونيو، كانت ترصع الأراضي العشبية على طول نهر إيسا، في ذلك الوقت من العام الذي يرتفع فيه البخار من مياه فيضان دلتا النهر، التي لا تزال غارقة في الطمي

وبقايا نبات البردي المتحللة، ليختلط بالازدهار الأخضر الفاتح. كان من الصعب الإمساك بالأوركيد المرقط، وهو مخروط أرجواني شاحب مرقط بالبنفسجي الداكن، في أوج تفتحه لأنه سرعان ما يلمسه صدأ العفن. كان توماس يركع ويحفر الأرض السوداء بسكين جيبه. (سكاكين الجيب، رغم ضياعها أحيانًا، انتمت إلى عالم الأشياء التي تميز مراحل مختلفة في حياته؛ كانت آخرها واحدة بمقبض خشبي، أما الحالية فكانت مسطحة ومصنوعة من معدن صلب.) بحذر، كان يرفع التربة ويسحب البصلة ببروزاتها الخشنة الشبيهة بالأصابع. كانت الأوركيد تنبثق من البصلة، وتندفع لملاقاة الشمس، ثم تبقى في الظلام حتى العام التالي. وعند ضغطها بين صفائح الورق المقوى، كانت الأوركيد تتخذ تدريجيًا لونًا صدئًا؛ وتبدأ البصلة في التسطح وتتخذ أغرب التكوينات.

كان للأوركيد الأبيض نقاء لون يشع في غسق الصيف كبياض النرجس. وفي ضباب المساء، كانت المروج المليئة بالأوركيد تصبح مروجًا تسكنها أطياف ضئيلة. ولكن عند تجفيفه، كان الأوركيد الأبيض يفقد كل سحره، محتفظًا فقط بتصميمه النحيل الضارب إلى الحمرة. وكان الأمر نفسه ينطبق على اللوف. وسرعان ما اكتشف أن النباتات التي تنمو في المناطق الجافة تُحفظ تمامًا، ولا تكاد تتغير ألوانها، رغم أنه شعر بجاذبية أكبر للنباتات الفاخرة التي تزدهر في الأماكن الرطبة. حتى الحشرات، المدرعة وسريعة الحركة، التي تعج في الرمال الحارة وفي خضم الجذور، كانت تفتقر إلى الأهمية. الأدغال ـــ ذاك هو المكان المناسب له! لماذا تؤدي وفرة النور المفرطة دائمًا إلى تضاؤل في الكينونة؟

من بين سكان الكثبان الرملية الكثيرين، لم يجمع توماس سوى نباتات البوصير، رغم أنها كانت أطول من أن تسعها المعشبة وكان لا بد من ثنيها بشكل متعرج. وغني عن القول، أنه كان يصطاد بشغف أكبر تلك الزهور التي وصفها دليله بأنها نادرة. ولأنها كانت نادرة جدًا، فقد اعتز بشكل خاص بزهرة الكرة (ترولیوس) ـــ من فصيلة الحوذان، تشبه وردة صفراء ـــ قطفها من بين بعض أشجار السنديان بجوار المقبرة.

كان يساعد جده في العناية بأحواض الزهور على طول الجدار، على يمين ويسار الرواق، فيزيل الأعشاب الضارة، وينقل الشتلات، ويحمل الماء من البركة. كانت درجات مدرّجة، معززة بأوتاد، تؤدي إلى الجسر الصغير عبر بوابة صغيرة ـــ ولماذا كانت البوابة هناك هو تخمين أي شخص ـــ

في سياج غير مرئي تحت أكوام من نبات الجنجل وعُليق الصباح. وبينما كان يغمس مرشة الماء في عدس الماء، كانت الضفادع الخضراء الكبيرة، المذعورة من تدخله، تقفز في هلع وتلجأ بين الحطام الطافي في وسط البركة. وعند عودته بالمرشة، لاهثًا من المشي الطويل، كان يراقب جده وهو يسقي، محاولاً التكهن مسبقًا بموعد رحلة أخرى إلى البركة. كانت الأمسيات تفوح برائحة نبات المنثور الليلي الصغير ذي اللون الرمادي المزرق المزروع على حواف الأحواض. كان المنثور، وزهور الجيلي (ببتلات لامعة مخملية)، والنجمية، التي تدوم حتى أواخر الخريف والصقيع الأول، هي زهور الحديقة التي أحب الجد زراعتها أكثر. وكانت المفضلة لدى توماس هي الرزيدا، لأنها، رغم بساطة مظهرها، مثل الأوركيد، كانت تثير رغبة في استنشاق دواخلها، ولكن أيضًا أسفًا لأنها كانت صغيرة جدًا. رزيدا بحجم رأس الملفوف — يا له من شيء يستحق الشم!

ولأن "ميسيا" كانت تؤمن بأن المرض من الأمور التي يُحصّن منها الناس العاديون، لم تُستغل الفضائل الطبية لعالم النبات قط. صحيح أن خزانة المؤن كانت لا تزال تسمى "الصيدلية"، وهي من بقايا الماضي، لكن الأدوية الموجودة في أدراجها لم تُحفظ، باستثناء زهور العطاس، المستخدمة لعلاج الكدمات، وتوت العليق المجفف، الذي استخدم الجد مستخلصه كمعرّق ضد نزلات البرد. كان توماس يعلم أن أوراق لسان الحمل هي أفضل علاج للجروح؛ أولاً تضع الورقة، ثم تلفها بضمادة قماشية. وإذا استمر الجرح دون التئام، كانت أنطونينا ترطب قطعة خبز باللعاب وتعجنها بشبكة عنكبوت — وهو علاج منزلي ناجع لا يخطئ. وكانت الجدة ديلبين هي من أدخلت استخدام اليود.

كان مقدرًا لشغف توماس النباتي ألا يدوم أكثر من موسم واحد. فأصبحت معشبته، التي وُضعت لها تصورات ضخمة، نادرًا ما تُثرى بعينة جديدة، وأصبحت الحاجة إلى الورق المقوى أقل إلحاحًا، حيث بدأ اهتمامه بالطيور والحيوانات في الانبعاث من جديد، وسرعان ما استبعد كل شيء آخر. لم تكن العمة هيلين سبب هذا الإحياء بقدر ما كان روموالد.

32

في ذلك الظهيرة، "روموالد بوكوفسكي"، مرتديًا قميص عمله وسروال عمله، أنهى جز البرسيم، وغرس منجله بجانب الخندق، وذهب ليسبح في النهر. جرد ملابسه بتمهل، وواقفًا حتى الركبة في

الماء، غسل نفسه، والخيط الأسود مع الميدالية المقدسة يتدلى في كل مرة ينحني فيها. بقناعة، غسل بطنه المسطح وفخذيه بالصابون؛ كان لا يزال رجلاً في ريعان شبابه. مبللاً، ارتدى ملابسه، والمنجل بأمان على كتفه، كان في طريقه إلى المنزل عبر البستان. قدمت له "بارباركا" وعاءً من اللبن الرائب من المبرد تحت الأرض، ودفعته بكوعها بقوة في أضلاعه أثناء ذلك (وهو شيء لم تفعله قط في الصحبة). على تصفيقه الصاخب على مؤخرتها، صرخت: "انتبه لا تسكب الحليب يا روم"!

تأوهت كلاب الصيد وتذمرت في حظيرتها. في معنويات عالية، مد يده إلى بوق الصيد على الحائط، الذي كان معلقًا تحت بندقية وسياط ركوب بمقابض من حافر الغزال. والبوق في يده، عاد إلى الشرفة وبدأ ينفخ، مما أثار عويل الكلاب ونباحها من أجل حريتها والصيد. لاحقًا، في مسكنه الأعزب، فتح خزانة أدوية وحلق أمام مرآة صغيرة —— نمو صلب، مزرق اللون —— ومشط سوالفه. وجه محروق بالشمس، بلون الطوب الأحمر، جلد مدبوغ، شارب أسود مشوب بالأبيض —— لا شيء يدعو للقلق.

ارتدى حذاءه اللامع الذي يصل إلى الركبة وأزرر ياقة سترته الكحلية. "إلى أين؟" استفسرت "باربارکا". "مصيدة دببة. أعدي للرجل شيئًا ليأكله وأمسكي لسانك." من كومة من الركاب في الزاوية، فك سرجين. "اذهبي وأحضري بيتروك ليسرج بلاكي وكستناء!" ظهر "بيتروك" ذو الوجه المنمش بعد فترة وجيزة، يحك فخذه من خلال ثقب في سرواله. تبعه "روموالد" ليتأكد من أن السرجين مشدودان بشكل صحيح. امتطى "بلاكي" برفق، ومهاميزه تقرقع، وقاد الحصان الذي لا راكب له باللجام إلى أسفل وادٍ صغير، ثم صعودًا على طول طريق صخري يمر عبر الغابة. كلما رفرف ديك خلنج، انحنى فوق عنق الحصان وتبعه بعينيه.

على إصبع "روموالد" كان هناك خاتم توقيع —— من نوع ما من المعدن، وليس من الذهب. كان يرتدي سترة من قماش خشن، مصبوغة باللون الأزرق الداكن. ابتداءً من القرن السادس عشر، استعمر وادي إيسا مستوطنون أغراهم أمراء رادزيفيل، وجاء آل بوكوفسكي من مملكة بولندا في عرباتهم المغطاة، عبر الغابات، وعبر المخاضات والبراري المجهولة، قبل أن يصلوا إلى وجهتهم في غابات ليتوانيا العذراء. سقط الكثيرون في ميادين القتال البعيدة —— في الحروب ضد السويديين والأتراك والروس. أصبح بعضهم فقراء، وقدروا لورثتهم حياة فلاح أو تاجر. لكن "روموالد" حافظ على تقليد العائلة. كان والده يدير مزرعة العائلة خارج "فينديغالا"؛ لاحقًا، بعد أن قُسمت العزبة، هاجروا إلى هنا. ليست ثروة، ولكن لا يهم: قيمة الرجل لا تقاس بالمال.

بعد مجموعة من الغابات، انخفض الطريق ونزل إلى مرعى، يمر عبر متاهة من الأسوار —— أوتاد مربوطة بأغصان جافة. رافعة بئر، أسقف شديدة الانحدار. بينما كان يمر بأحد المنازل، لمس كلا الرجلين —— الرجل على ظهر الحصان والرجل الذي يراقبه —— قبعتيهما. "ماسيوليس"، الساحر، جلس وظهره إلى جدار المزرعة، يدخن غليونه. لم يكونا على أفضل وفاق. ادعى الساحر أن لديه أرضًا بقدر ما لدى "روموالد"، لكنه كان فلاحًا —— فلاحًا ليتوانيًا. تبع "ماسيوليس" الفارس بعينين ضيقتين، وأخذ نفخة من غليونه، ونحنح، وبصق.

بقي وهج أرجواني خلف الأفق المسنن بالتنوب؛ قرص مستدير من القمر؛ الصدى البعيد لأغنية راعٍ تُعزف على بوق خشبي ملفوف بلحاء البتولا. ترك حصانه ينطلق في خبب، وأعجب بالأرض المتموجة، ولم يفكر في شيء، مبتهجًا بالحركة، وساقه على الدفء، ورشاقة الحيوان. ظهرت الآن أراضٍ عشبية مسطحة، تحفها شجيرات الحديقة؛ في الأفق، ملفوفة بضباب مزرق، تلوح قمم التلال وراءً وادي النهر.

على حافة الحديقة، على مقعد خشبي بلحى من الطحلب الرمادي، جلست "هيلين يوتشنيفيتش" تحدق في قمر يزداد سطوعًا باطراد. كانت قد خرجت لتستنشق هواء الصيف، وليس، للتأكيد، لركوب الخيل مع "رومالد بوكوفسكي"؛ وإلا لكانت قد ارتدت سروال ركوب. أن تكون قد وافقت بمزاح، بل وبخفة، على موعد قد غاب عن ذهنها تمامًا: لم تكن أي رغبات خاطئة قد قادت خطواتها. عندما أمن "رومالد" حصانه بشجرة في الأسفل بجانب الطريق، وصعد التل، واتجه نحو... المقعد، أطلقت صرخة مفاجئة "أوه!" حياها بفروسية، وانحنى وقبل أطراف أصابعها. تحدثا عن الطقس، وعن الزراعة؛ ألقى بضع نكات وضحكت. عندما دعاها لركوب الخيل، تمنعت، قائلة إنها خارج الممارسة وغير لائقة لذلك. في النهاية، وافقت، ووضعت قدمها في الركاب بكل رشاقة فارس محترف. "أي طريق؟" سألت. "لنجرب ذلك الطريق"، قال، مشيرًا إلى الأمام مباشرة.

من "غينه"، امتد الطريق المترب على طول نهر إيسا، صاعدًا باطراد إلى حيث انحدرت الأرض المدرجة بشكل أكثر حدة، متعرجة بين الخلجان والمروج، وملتجئة من كتلة المرتفعات في الصفصاف بجانب النهر، حتى أخيرًا، متجاوزًا قرية صغيرة ثم أخرى حيث كانت حزم طويلة من القصب المقطوع ملقاة أمام المنازل لتجف، تشعب الطريق: طريق واحد يؤدي عبر مخاضة إلى الضفة الأخرى، والآخر مباشرة إلى جانب جبل "فيلاينياي". قطع تيار النهر السريع عبر ضفاف رملية كثيفة بالصفصاف.

كانت المخاضة مريحة، وخط الماء أقل بكثير من المحاور، على الرغم من أنها خطيرة في الخريف، خلال موسم الأمطار، عندما كانت الخيول تشخر وتجمح في ذعر، تاركة الفارس يثق في غرائز الحصان. جبل "فيلاينياي"، كثيف بالصخور وشجيرات العرعر التي تثير صورًا ظلية شريرة، انحدر بشدة إلى وادي النهر. أتاحت القمة منظرًا رائعًا للشريط الأزرق المتعرج في الأسفل، وللجزر حول المخاضة، والتي لم تمنع الجبل، وهو الأكثر وعورة وخرابًا في المنطقة، من اكتساب اسم سيء. انبعثت رائحة الحليب الدافئ من حظائر الأبقار على طول طريقهما، وكان هدوء المساء يقطعه أحيانًا صوت الحليب وهو يتدفق في دلو، وشكوى امرأة مزارعة متذمرة أثارها ذيل يضربها في وجهها. عبر الشفق، عبر أشعة الضوء المنبعثة من أبواب الأكواخ المفتوحة، عبر نباح كلاب الصيد المحتجزة خلف الأسوار، ركبا. تحتهما، مخاضة لامعة، سطح متقشر. قعقعة... دقات الحوافر على الصخر عند سفح منحدر "فيلاينياي" الحاد جعلت "هيلين" تسحب لجام كستنائها. "يا له من مكان مخيف"، قالت. ابتسم. "ما المخيف فيه؟" "ليساعدك الله يا روموالد، إذا ذكرت اسمه." "أوه، هو! لدي طريقة للتعامل معه." "أي نوع من الطرق؟" "حسنًا، تتحدث معه، انظر، بأدب شديد، ثم تدعوه ليرافقك." "بصراحة، كيف يمكنك ذلك! أنا عائدة!" "تمهلي، كنت أمزح فقط." واصلا الصعود، والظلام يزداد كثافة باطراد، ونسيم خفيف يداعب عشب سفح الجبل. توقفا عند بقعة تطل على الوادي. تلألأ النهر بخفة عند أقدامهما. في الأسفل، صرخات حزينة لطائر في طيرانه.

جلسا بلا حراك في سرجيهما، ولجامهما يقرقع بهدوء. تنهدت "هيلين". هل كانت تنهيدة أملتها التقاليد، إحدى تلك الإيماءات التي تناسب المناسبة تمامًا؟ أم كانت تنهيدة شخص يتمنى لو كان الأمر قد سار بطريقة أخرى؟

درب التبانة، الذي يسمى في هذا الجزء من البلاد درب الطير، كان يرسم علاماته المضيئة في القبة السماوية.

33

عندما صعد "روموالد"، مرتديًا قبعته الكحلية ذات الواقي، وسوط صيده يتدلى من سرجه، إلى الشرفة، كانت لدى توماس رؤى لتمثال مظلم، عمودية متحركة على ظهر حصان. سرعان ما أصبحا أفضل الأصدقاء. على مائدة العشاء، بينما كانت العمة "هيلين" تغدق على ضيفهما بالحلويات، كان

"روموالد" والجد يتحدثان عن المحاصيل. ومع ذلك، فإن بعض العلامات غير المحسوسة الظاهرة في سلوك النساء الأكبر سنًا كانت تدل على وجود مسافة. "روموالد"، على الرغم من أنه كان ضيفًا مرحبًا به، كان من عالم مختلف. لم تنقص مثل هذه الفروق شيئًا من السحر القوي الذي مارسه حضوره، وبالنسبة لتوماس، فإن تلك الزيارات، تلك المحادثات المليئة بتقاليد الحيوانات، كانت تحمل وعدًا بعجائب جديدة.

على الرغم من أن "بوركوني" لم تكن تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات ونصف، إلا أن هذه كانت أول رحلة له إلى هناك ـــ الآن، وهو يرافق العمة "هيلين"، التي، بمحض الصدفة تحتاج إلى الاتصال برجل الطب من أجل دواء للأغنام، قررت أن تزور السيد "بوكوفسكي" زيارة اجتماعية. انعطاف حاد عند الصليب، أسفل الطريق من الكومونة، أخذ أحدهم إلى "بوجيراي"؛ انحراف طفيف إلى اليمين قبل الاستقامة تدريجيًا كان الطريق إلى "بالتازار"؛ الطريق الأيسر أدى إلى "بوركوني". أمامهما تلوح حدود الغابة، وخلف الصف الأول من الأشجار، عالم آخر: تلة تنحدر إلى وادٍ، مجموعة من الغابات، بقعة من المستنقع، متاهة من الدروب، ومجموعة من أخاديد العربات عبر باقات من الخضرة. خلف مجموعة من التنوب، في قاع الجوف تمامًا، ظهرت فجأة مزرعة "بوكوفسكي". كان المنزل الصغير ذو أعمدة شرفة خشبية مغطاة بالليلك الأرجواني، تحجب جزئيًا بستانًا، وأشجار ألدر متناثرة، وصفوفًا من الصنوبر بارتفاع متصاعد ـــ من الشتلات إلى الأشجار البالغة. كان داخل المنزل تفوح منه رائحة الجلد، والزوايا مكتظة بالركاب والسروج والأحزمة. متناثرة بين الأكوام وتزين الجدران كانت أشياء ذات طبيعة غير مألوفة: قرون، صفارات، أكياس، أحزمة خراطيش... انتقل توماس من شيء إلى آخر، راغبًا في معرفة الغرض من كل منها، وفي إحدى المرات أمسك ببندقية ـــ كان "رومولد" قد فتحها للتأكد تمامًا من أن الحجرات فارغة ـــ وسحب الزناد بصوت نقر أثار... "رومولد" على الفور. "لا ينبغي أن تفعل ذلك يا توماس. قد يتلف دبوس الإطلاق." كانت بندقية من عيار ١٦، متوسطة العيار (عيار ١٢، واسع الفوهة، كان للطرائد الكبيرة؛ وعيار ٢٠، للطيور الصغيرة). على الرغم من أنها قديمة ـــ ورث "رومولد" البندقية عن والده ـــ إلا أنها لا تزال تطلق النار بدقة. كان البرميل بأكمله مزخرفًا بزخرفة فضية تسمى الدمشقية.

وُضعت المائدة بمفرش وقدمت لهم الخدمة امرأة شابة ورأسها منحنٍ بتواضع. لم يستطع توماس، كما يقولون، أن يرفع عينيه عنها، مسحورًا بلا شك بمجموعة الألوان: بياض بشرة تدرج، بمهارة،

بدرجات، إلى حمرة الخدين؛ جديلة من الذهب الداكن؛ نظرة خاطفة مليئة ببريق أزرق غامض غامض. كان هناك شيء ودي في نظرتها، أو على الأقل هذا ما افترضه توماس، حتى، بينما كانوا يخرجون من الباب، سمعها تهمس، مما أثار استياءه الشديد، بكلمة "شوتاس" في أذن "روموالد"، هذا اللقب الليتواني المبتذل الذي كان من الواضح أنه على حسابه. أُفسدت الزيارة. ومع ذلك، منذ تلك اللحظة، وتقريبًا في تحدٍ، بدافع من الرغبة في إصلاح شيء ما، شعر بجاذبية غريبة تجاه "بوركوني."

صعد "روموالد" إلى "البريتسكا" معهم. لم يكن الأمر سوى مرمى حجر، كما قال، ووالدته ستكون مسرورة. "بوركوني": ثلاث مزارع بدون اسم، تقع بحيث كانت ممتلكات "ماسيوليس" محصورة بين ممتلكات والدة "روموالد" وممتلكاته الخاصة. بنيت على مرتفع، كانت الشرفة تطل على بحيرة صغيرة في قاع حوض مستنقعي. كانت "كاثرين بوكوفسكي" مهذبة ومعتذرة بغزارة. ولكن يا له من وجه! ثآليل خشنة تشبه الخصل، حواجب كثيفة من لون رمادي باهت —— جعلت مظهر "سكوكي" يبدو ساحرًا بالمقارنة. كان صوتها جهيرًا ذكوريًا عميقًا. كان ملامحها، لاحظ بسرعة، متوافقة تمامًا مع حكمها. كان يشرف على الزراعة ابنها "دينيس"، وهو عازب، الآن في ريعان شبابه. خاضعًا لأوامر والدته، كان لديه عادة الانكماش في كل مرة تصرخ فيه. رجل غير مميز —— على الأقل في عيني توماس —— باستثناء تفصيل واحد: زوج من الأحذية لم يصل إلى الركبتين بل أعلى، بسيقان جلدية ناعمة مربوطة بجلد الغزال وتغطي الفخذين كالكأس. ابن ثالث، "فيكتور"، مراهق على وشك الشباب، كان لديه عينان جاحظتان، وملامح خشنة، ويتلعثم بشدة لدرجة أنه حتى عندما كان يتلعثم بجملة كان يبتلع الكلمات جزئيًا، ويدير فقط حروف العلة، مع صوت حلقي يدل على هذا الحرف أو ذاك؛ لذا، على سبيل المثال، "لقد أُخذ القش"، قد تبدو وكأنها "جي جايز جين جوك جين."

مرة أخرى نفس طقوس إعداد المائدة، والتوصيات بالأكل، وشراب الميد الساخن محلي الصنع الذي يُمرر. "أنت رجل بما يكفي لتشرب يا فتى." و: "في صحتك!" رفع الأكواب، وقرقعة الزجاج. أخذ توماس رشفة وجعل المشروب الحارق عينيه تدمعان؛ لكن السيدة "بوكوفسكي" أفرغت كوبها في جرعة واحدة مدوية (كانت تذهب وتعود إلى الإبريق، اكتشف توماس لاحقًا، تتجول في الخزانة بحجة ما، عندما... غرغرة-غرغرة —— كانت تغلقها بقوة، ووجهها متوهج). سكب "دينيس" جولة بعد جولة، والعمة "هيلين" تجاريه، وتضيق عينيها وترشف شرابها بطريقتها الهادئة. ارتفعت الأصوات، وأصبحت النكات أكثر غموضًا؛ كان محاطًا بالكبار وسخافتهم، وقد أمله ذلك. بدأوا

يغنون الأغاني؛ توقفت السيدة "بوكوفسكي"، وركضت إلى الحائط، وأنزلت غيتارًا كان معلقًا على نسيج مطرز بهرة. وهي تقف في منتصف الغرفة، وتضبط الوقت بقدمها، بدأت بصوتها الجهوري الذكوري العميق في النحيب:

أوه، آني، يا عسل، يا آني الصغيرة الحلوة،
لماذا صفعتك أمي على مؤخرتك؟
هل كان من أجل القهوة، هل كان من أجل الطعام،
أم كان خوفًا من عذريتك؟
ليس من أجل القهوة، ليس من أجل الطعام،
وليس خوفًا من عذريتي.
أعطتني أمي مثل هذا الضرب
لأنني لا أستطيع التوقف عن الحب.

متحمسة بالتصفيق، جلست، وهي تدندن على أوتار غيتارها وترفع بياض عينيها في موجة من المشاعر، غنت عن "وورسيل". كانت أغنية معروفة جيدًا لتوماس —— كم مرة سمع "أنتونينا" تغنيها —— لكنها أغنية أجهدت المصداقية. كيف يمكن لشخص محبوب لمدة أربعين عامًا أن يظل "شابًا كالتوت"؟ لأن الكلمات كانت كالتالي:

أوه، وورسيل، وورسيل، لقد أحببتك بقوة،
أربعون عامًا طويلاً، بلا قلب وقسوة،
حياتي، حياتي كان عليك أن تحكمها.
أربعون عامًا طويلاً أو أكثر،
الكثير من الرسائل، مدفونة في الدرج.

لذا تزوج، إذا شئت.
عسى أن تُعقد العقدة في الجحيم،
وعسى أن يأخذ أمير يدي
لا أزال شابًا كالتوت
الذي ينمو في الوادي.

في فم السيدة "بوكوفسكي"، بدت هذه العاطفية كوميدية، ووصلت إلى حد الهزل الصريح عندما جاءت إلى أغنية "اربطوا الفريق، يجب أن أجد حبي"، مع لازمتها "يجب ــــ يجب ــــ يجب ــــ يجب". على الرغم من سوئها، فضل توماس هذا النوع من الترفيه على طقوس التهام الطعام والشراب. إذا استسلم له، فذلك لأنه فهم الحاجة إلى الصبر: لم يكن الكبار قادرين أبدًا على التركيز على شيء واحد لفترة طويلة. مرة واحدة فقط أُثير فضوله ــــ عندما روى "دينيس" أنه رأى ذئبًا في ذلك المساء، ذئبًا بالغًا، على حافة المستنقع، رهان آمن على وجود عرين في مكان قريب؛ ولكن في اللحظة التي بدأ فيها توماس في استجوابه للحصول على مزيد من التفاصيل، ضاعت محادثتهما في صخب الأصوات والقهقهات والأطباق المتقارعة. ومع ذلك، كان هناك الكثير لنتعلمه في "بوركوني". شعر بأنه أقل كبتًا هنا مما شعر به، على سبيل المثال، في القصور الأخرى. لم تكن آداب المائدة شيئًا يتطلب يقظة مستمرة. ما طمأنه، بلا شك، هو رؤية الأظافر ذات الحواف السوداء والأكف المتصلبة، ناهيك عن الاحترام الذي عومل به هو وعمته.

من بين مزرعتي "بوركوني"، كانت مزرعة "روموالد" هي الأكثر إثارة للاهتمام إلى حد بعيد. فبينما كان الحديث في مزرعة والدة "روموالد" يدور في الغالب حول غلات المحاصيل والزراعة وسعر السوق للكتان، كان الأمر في مزرعة "روموالد" كله خيولاً وكلاب صيد وبنادق. بالكاد كان توماس يستطيع الانتظار للعودة، والأكثر من ذلك بسبب ذكرى مزعجة. فما الخطأ في نظرة إعجاب واحدة ــــ أم كان المرء ملزمًا بالتظاهر بأن الانجذاب غير موجود؟

بدأوا في العودة بعد غروب الشمس، وعمته تقود الخيول باللجام، ومعنوياتها عالية، لكنها لم تظهر أي علامة خارجية على أنها في حالة سكر. تميز غروب الشمس هنا بالأصوات التي لا تعد ولا تحصى التي تهاجمه من جانبي الدرب، وتتواصل في العديد من الأصوات من الأدغال ومن المستنقع الرطب. ذلك النقيق هناك، وذلك النقيق ــــ هل كانت تلك الضفادع، أم البط البري، أم نوع آخر من الطيور؟ قطعت بعض طيور الماعز مجال رؤيته بشكل مائل. لقد أذهله ذلك ــــ مليئًا بالرهبة والخشوع لهذا الصخب في الظلام، لهذا التكاثر من المخلوقات التي تتطلب دراسة وتتبع عاداتها ومهامها الروتينية، السرية الآن. كان تقسيم الأرض عمل رجال أغبياء. السفر بين الحقول المفتوحة يعني تفويت جمالها. لو كان الأمر بيده، لجعل الحرث جريمة. فلتكن هناك أراضٍ مشجرة حيث يمكن للحيوانات أن تركض بحرية! غارقًا في مثل هذه الأفكار ــــ في مثل هذه الأحلام ــــ تعهد بأنه عندما يكبر سيؤسس

مملكة ـــــ مملكة غابة، بالطبع ـــــ لن يُسمح فيها إلا لعدد قليل مختار بالدخول. مثل من؟ أناس مثل "روموالد"، على سبيل المثال.

34

مشروع أدمن عليه توماس بشغف في "بوركوني" ـــــ هذا بعد أن حصل على موافقة لقضاء بضعة أيام هناك ـــــ ربما بدا غريبًا للبعض. هناك مخلوقات محمية بنوع من الخوف الذي يكون البشر عرضة له في وجودها، خوف أو نفور لا ينبع بالضرورة من أي خطر صريح، بل هو بالأحرى الآثار المتبقية من الأعراف والطقوس القديمة الضمنية. تحدي هذا المجال الذي يتحدى الكلمات علانية كان جديرًا بالثناء، أو ربما ليس كذلك تمامًا، ولكنه تم فقط بشرط عدم وجود خطر من أي انتقام غير متوقع. توماس، بعد أن سيطر على خوفه، رأى نفسه فارسًا أقسم على إبادة الشر.

نحن نفكر في الأفاعي. كانت "بوركوني" تعج بها، جريئة لدرجة أنها كانت تزحف مباشرة إلى الشرفة الأمامية، حتى داخل المنزل ـــــ قفز "روموالد" ذات مرة على واحدة تحت سريره. كان لها موطنان. بجانب الدرب المؤدي إلى الجدول كانت هناك مجموعة صغيرة من أشجار البتولا، كثيفة الأشجار ومغطاة بأوراق جافة. وفر الفراش المورق غطاءً ممتازًا؛ بمجرد دخولها، لم يكن هناك من يجدها. كان الدرب شرفة التشمس الخاصة بهم، وعلى الأرجح الطريق الذي استخدموه عندما خرجوا لصيد فئران الحقل. كانت مدينتهم الثانية على شريط من المستنقع، حيث عزلوا أنفسهم في الجزر الطحلبية تحت شجيرات الصنوبر. للوصول إلى هذه، كان على توماس أن يرتدي حذاء "روموالد" الطويل ويغامر بالدخول إلى أراضي العدو، وقلبه يخفق وهو يمر بالكتل الطحلبية التي كانت تقف تقريبًا على ارتفاع وجهه.

الأفعى، المعروفة تصنيفيًا باسم "فايبرابيروس"، كانت تفرز سمًا يسبب مرضًا خطيرًا وأحيانًا الموت. كانت أشهر العلاجات ضد لدغات الأفاعي هي التعاويذ، وكي الجرح بحديدة محمّاة، والكحول الذي يُستهلك لدرجة الهذيان، ويفضل الثلاثة معًا في آن واحد. كانت أفاعي "بوركوني" رمادية اللون، مع شريط أسود متموج على الظهر، على الرغم من أن الغابة كانت تسكنها أنواع أخرى، أصغر في الطول، يمكن تمييزها بلونها الأسمر وشريطها البني الداكن المتعرج. شرح "روموالد" كيف أن الأفعى، بدلاً من وضع بيضها مثل الزواحف الأخرى، كانت تحمل صغارها معلقين من غصن، ورأسها مستعد

لالتهام نسلها، ولكن كيف كانوا بفضل تعرجهم الفطري يهربون دائمًا إلى العشب في الوقت المناسب. على الرغم من أنها ليست متسلقة أشجار بطبيعتها، إلا أنها كانت معروفة بمهاجمة الناس من الأشجار ـــ عُضت فتاة في وجهها أثناء قطف الجوز. كانت آفة حقيقية في "بوركوني"، لذلك لم يكن من المستغرب أن يطمح توماس إلى دور المبيد.

من "روموالد" سمع أحاديث عن ثعابين أخرى. على بعد حوالي عشرين كيلومترًا، في عمق الغابة، امتدت مستنقعات ضخمة لا يمكن للإنسان الوصول إليها (كانت الثعابين التي تعج بها رادعًا كافيًا). سوداء الجسد، برأس أحمر، كانت أول من يهاجم، دون سابق إنذار، وتستهدف دائمًا الوجه أو اليدين. جاء الموت على الفور، قبل أن يتمكن المرء من أن يلهج "يا يسوع المقدس!" شعر توماس بالانجذاب إلى المكان ـــ ولو فقط ليعرف ما هي الحيوانات التي يمكن أن تعيش هناك. يقولون إنه كان الملجأ المفضل للأيل عندما يُطارد.

عندما كان الطقس حارًا، اعتاد "روموالد" النوم في الحظيرة، ليس هربًا من الحرارة بقدر ما ـــ كان المنزل مظللاً جيدًا بالشجيرات ـــ بل حبًا لها، ووفرة الهواء النقي. استغرق توماس بعض الوقت، عدة ليالٍ من الحكة والخدش، قبل أن يعتاد على كل البعوض والحشرات الصغيرة. للتعويض عن ذلك، كانت هناك رائحة القش المجزوز حديثًا، والتي سرعان ما جعلته يشعر بالنعاس. والصباحات! أن تستيقظ على ثرثرة الطيور المشرقة، تغزو نومك أولاً، ثم تزداد قوة، والشمس تخترق الألواح الخشبية حيةً بصوت خدش المخالب الدقيقة، ورفرفة الريش... ولعبة التخمين: هل هي مجرد سنونو، كان يتساءل، أم شيء أكبر مثل... حمام بري؟ ثم ينهض باكرًا في الصباح وينطلق إلى البئر مع "روموالد". أمامه: بهجة يوم صيفي طويل. وبعد إفطار من خبز القمح الكامل المغسول بالحليب الطازج، وبعد ارتداء حذائه (من باب الاحتياط)، كان مستعدًا، وعصا البندق في يده، للصيد.

كان صيد الثعابين فنًا، يتطلب اقترابًا خفيًا لمنع الفريسة، بمجرد مفاجأتها، من الانزلاق إلى غابة البتولا. عادة ما كان يلمح القليل منها من مسافة ـــ مستلقية كالسياط الممدودة، تتشمس ـــ ثم كان الهجوم، على عجل، يضرب بالعصا، مستهدفًا الرأس دائمًا، وأجسادها تقفز، تلتوي، تتلوى، تجهد من أجل الخلاص في الأحراش، وهو يحاول قطع طريق تراجعها. بعصا أخرى ـــ متشعبة في أحد طرفيها، وغصن صغير محشور في الشوكة ـــ كان يضغط على رأس الثعبان، ثم ينزع الغصن. وهكذا يُشوك الثعبان، ويُحمل عائدًا إلى المنزل، وهو يتلوى في تشنجات: كانت الثعابين معروفة

بقدرتها على التحمل. ثم يُعلّق الثعبان ليجف على نفس العصا. كانت الثعابين المجففة مطلوبة بشدة كعلاج لأمراض الأبقار المختلفة، خاصة بين سكان النهر، حيث لم تكن الأفعى مستوطنة في تلك المنطقة.

الصيد في المستنقع، حيث قد تخفي كل شجيرة عنب الدب أو إكليل الجبل أفعى، كان يتطلب قدرًا أكبر من التخفي — والمهارة، لأن الغطاء الطحلبي الناعم كان يمتص كل ضربة من العصا. لاحقًا (ليس في ذلك الصيف، بل في الصيف التالي)، وهو بمفرده مع البندقية، قفز على ثعبان ملتف على بعد حوالي ثمانية أقدام من حيث كان يقف. أطلق برميلاً وحدث أغرب شيء: اختفى الثعبان في الهواء، والأمر الأكثر إثارة للدهشة، أنه على مسافة قريبة، بالكاد تناثرت طلقات الرصاص.

لم تكن حرب توماس مع الأفاعي تعني أنه كان خاليًا من التحيز، من الإحساس المروع الذي يثيره ذلك العرض غير المتوقع للطاقة. تموج الطاقة الذي يشنج أجسادها الشبيهة بالحبال، والتجعد اللزج الذي يبطن بطونها، والميل العمودي للبؤبؤ — يا له من انحراف غريب في مملكة الحيوان! إذا كان صحيحًا أن الطيور كانت تصاب بالشلل بسبب شيء متأصل في تقدمها، فمن السهل فهم ذلك، لأن قوتها بدت وكأنها تكمن خارجها، كما لو كانت مجرد ملحق، أداة لشيء آخر.

في الربيع التالي، في الغابات المحيطة بـ"بوركوني"، حظي توماس بمشاهدة مشهد نادر: طقوس تزاوج الأفاعي. توقف في مساره ليس بسبب ملاحظة شيء معين. لا، كان الأمر أشبه بالاهتزاز، تفريغ كهربائي، رقصة من خطوط البرق على الأرض. بحلول الوقت الذي أدرك فيه ما كان عليه، كانت قد اختفت.

في ذلك الصيف، أول صيف من صداقته مع "روموالد"، أصبح بارعًا في أكثر من مجرد صيد الثعابين. مُنح — تحت إشراف "روموالد"، بالطبع — امتياز إطلاق النار من البندقية ذات الماسورتين. أولاً على جانب الحظيرة — للتعود على ارتداد البندقية — ثم على هدف حي. قيق يصيح، إصبع صامت، تسلل على أطراف الأصابع. الطائر، شاب ومتهور، بدلاً من الاختباء، جلس على غصن مكشوف. طلقة. جاء توماس راكضًا، وهو يصرخ. ولكن بينما التقطه من قدميه، وبينما انتشرت الأجنحة وظهرت قطرة دم على منقار القيق، شعر بخيبة أمل لم يكن حريصًا على الاعتراف بها. لكن كان على المرء أن يكون رجوليًا، وأن يخنق أي اشمئزاز، إذا أراد أن يكسب لقب صياد وعالم طبيعة.

سرعان ما بدأ في ورشة الصياد. كان يزن الطلقات بمقياس معدني كلما صنع "روموالد" خراطيش، وينظف المواسير بصوف صلب منقوع في الزيت حتى تتخذ بريقًا يشبه المرآة عند النظر من خلالها —— كما لو كان من خلال منظار —— تحت الضوء. أتقن أيضًا فن سلخ الطيور.

كانت الدجاجات مهددة باستمرار من قبل صقور الباز، التي كانت هجماتها تُعلن بصرخات "باربارِكا" المحمومة "طائر! طائر!" (وصفها لأي طائر جارح). صقر واحد، بعد أن طُرد، تراجع إلى أقرب شجرة ألدر، ليتفحص الفناء من هناك: سرعان ما أصبح صقرًا ميتًا. عليه، قضى توماس فترة تدريبه. أولاً جاء الشق في المنتصف، فوق الصدر والبطن؛ ثم فُصل الجلد عن الجانبين، بسكين جيب لقطع النسيج الذي يربط الجلد باللحم. حتى الآن، كل شيء على ما يرام؛ جاء التحدي الحقيقي أولاً مع الذيل (كان يجب ترك ريش الذيل سليمًا)، ثم الأرجل (كان يجب تقشير المخالب مع الجلد). بمجرد التغلب على هذه العقبات، كان الجلد يُنزع كجورب، وتُفرغ الجمجمة الصغيرة من العينين والدماغ —— وهي عملية دقيقة لأن أي انزلاق للسكين، أي حركة متشنجة، كانت تفسد الجفون الرقيقة. بعد أن فُرك بالرماد وحُشي بالنسالة، تُرك الجلد ليجف. كانت هناك حاجة إلى أسلاك وعيون زجاجية لحشو الطائر في وضعية الجلوس.

المرة الأولى التي كان فيها توماس متفرجًا على نوع المكر الذي يمارسه الرجال في مطاردة الطرائد البرية كانت عندما جاء إلى "بوركوني" لبضعة أيام للمساعدة في قطف الفطر. صباحات معتدلة، سماء زرقاء شاحبة، بقع من الندى البارد والصقيع المبكر يغطي العشب. في بستان الصنوبر، المجاور للمنزل، كان هناك ما يكفي من أكواب حليب الزعفران في أرضية الطحلب لملء السلال. وقف "روموالد" في مكان قريب، وسلة معلقة على ذراع واحدة، ويده الأخرى تمسك بحزام بندقيته؛ وفي جيب معطفه، صافرة طيور صغيرة من العظم على خيط —— "لا يمكن التنبؤ أبدًا"، قال، "قد تكون مفيدة". كانت صفارات الطيور تُنحت عادة من جناح بومة، وأحيانًا من عظم أرنب، وهذا الأخير أقل نقاءً في النغمة. كان العظم الواحد جيدًا في تقليد زقزقة ديك الخلنج، والذي لا يمكن تمييزه لولا ذلك عن لحاء الصنوبر، ملاذه المفضل في أوقات الخطر. عند إشارة معينة، وقف توماس ساكنًا تمامًا، وسكينه الصغير متوازنًا على جذع فطر، بينما اخترقت صافرة مرتعشة صمت إبر الصنوبر المتساقطة. ببطء، وبهدوء، انزلقا إلى الأدغال الظليلة. مرة أخرى وضع "روموالد" صافرة الطيور على شفتيه؛ نفخ بهدوء، بخبرة، وأصابعه تلعب على ثقوب الأنبوب. صمت. خشي توماس أن يكشف

قلبه الخافق عن مكانهما. ثم جاء رد ـــ ديك خلنج، وآخر، أقرب. رفرفة ريشية، وهناك، أمامهم مباشرة في الإضاءة الكستنائية، مرسومًا على غصن شجرة تنوب، ميز توماس ظلاً يدير رأسه، باحثًا عن رفيقه. ثم تحول الذراع إلى الأعلى، ولكن بسرعة لدرجة أن الطلقة والتقرير بدا وكأنهما يتزامنان؛ وعندما انقشع الدخان (عندما يتعلق الأمر بالبارود، أقسم "روموالد" بالمدخن فقط، بدلاً من النوع غير المدخن)، كان ديك الخلنج يرقد بلا حياة تحت شجرة، بالكاد يمكن تمييزه عن فراش الإبر الجافة.

كان "روموالد" جديرًا بالقبول في المملكة التي حُرم منها البشر العاديون. كان جديرًا لأن وجود الحيوانات البرية أثاره، وجعل عضلات وجنتيه ترتعش، وجعله يقظة متجسدة، غافلاً تمامًا عن كل شيء آخر. مدبرة منزله، "بارباركا"، من ناحية أخرى، كانت تنتمي إلى عالم الكبار، والأمر المؤسف أكثر لأنها كانت جميلة جدًا، طفولية في المظهر. آلمه أن يفكر في أن هناك بالفعل أناسًا يتجولون عميانًا عن الأشياء الأكثر أهمية. كم يجب أن يكونوا ملولين. لكي نكون منصفين، قضت "بارباركا" الكثير من وقتها في رعاية حديقة الزهور ـــ ويا لها من زهور رائعة؛ أسرة كاملة من الريسيدا العطرة، والختمية العملاقة، والسذاب، الذي كانت تعرف كيف تحافظ عليه أخضر طوال فصل الشتاء، وتثبته في شعرها، مثل الفتيات الأخريات، قبل الذهاب إلى الكنيسة. لكن تلك النظرة اللامعة لها، المليئة بالفضول والتدقيق والدافع الخفي... لا، لقد كشفت عن شيء غريب، ناضج. أوه، لقد غفر لها توماس الإهانة منذ زمن طويل، متظاهرًا باللامبالاة منذ ذلك الحين؛ ومع ذلك، فقد أزعجه، ذلك... التنازل في طريقتها، الطريقة التي كانت تجعل بها كل ما يلمسه ـــ مثل تنظيف مواسير البنادق ـــ يبدو تافهًا. لو أنه فقط، لمرة واحدة، استطاع أن يستدرج منها بعض علامات الإعجاب، والاحترام... لكن لا؛ على جوائزه التي حملها عائدًا من صيد الثعابين، تفاعلت باشمئزاز "فوي!"، وزمّت زوايا فمها في نوع من السخرية، كما لو أن المشروع برمته يتاخم الفحش.

35

كان لدى "روموالد" أربعة كلاب: ثلاثة كلاب صيد ومؤشر. "زاجراي"، ذو اللون الدخاني، وحواجب صفراء، كان ينبح بصوت جهوري عميق. بالغًا، كان يُقدّر لمثابرته وقدرته على التحمل، وهي فضائل تعوض عن حاسة شم بالكاد تفوق المتوسط. عند فقدان الرائحة، لم يكن يتجول بلا هدف، بل كان يتحرك في دوائر، عمدًا، وفقًا لخطة. "دوناي"، تينور، نسخة طبق الأصل من الآخر، ولكنه أنحف،

كان حالمًا، وبالتالي يفتقر إلى أي هالة من الاحترام. يومًا يستحق الثناء واليوم التالي لا قيمة له، كان يترك تفانيه تمليه مزاجه، وغالبًا ما كان يتظاهر بالتقلب، كأنه يقول: "يمكنني أن أنبح مع أفضلهم، ولكن دع الآخرين يتتبعون اليوم — لدي صداع". الكلب الذي يجمع بين قلب عظيم وحاسة شم لا تخطئ كان الكلبة الصفراء "لوتنيا"، المنحدرة من سلالة كلاب صيد "كوستروما". وعيناها الذهبيتان الخالصتان تومضان باللون البنفسجي-الأزرق، كانت تسند كفيها الوسيمتين بعاطفة على صدر "روموالد" عندما كانت تلعق وجهه. كان الثلاثة يُبقون مقيدين في الصيف، لأنه بمجرد إطلاق سراحهم كانوا يميلون إلى تنظيم صيدهم الخاص، ويطاردون الطرائد بينهم. وعد خيط العنكبوت على الدروب بالتحرير، على الرغم من أن الخريف، بالنسبة للمؤشر "كارو"، كان وقتًا... للتأمل بجانب الموقد، وقتًا لوضع أنفه تحت ذيله وتقييم رائحته.

طوال الأسبوع، كان توماس يعد الأيام حتى يوم الأحد. يوم السبت، ركب مع عمته، التي عادت في نفس المساء، تاركة توماس ليقضي الليلة في "بوركوني". متوترًا من الإثارة، التوى واستدار، وركل أغطيته، وظل القش يوخزه، لكنه سرعان ما غرق في نوم عميق، دافئًا بوزن معطفه من جلد الغنم، الذي كان أحدهم قد ألقاه عليه. استيقظ في الظلام، حوالي الفجر، على طرق على النافذة. وجهان، وجه "دينيس" و"فيكتور"، كانا ملتصقين بالزجاج. دخلا، يتثاءبان. "بارباركا" النعسانة، وشعرها غير الممشط ينسدل على كتفيها، أحضرت فانوسًا بمدخنة ملطخة، وأشعلت نارًا في المطبخ، وأعدت بعض فطائر البطاطس. من خلال الضباب في الخارج جاء صوت قطرات سميكة تتساقط من الأغصان التي تلامس الشرفة.

شرب الأخوان جولة واحدة في الإفطار. "باجاجا، جو جوس جو جني"، أصر "فيكتور"، وهو ما تُرجم إلى "بارباركا، أرنا ركبتك" — علامة على حظ الصياد الجيد — والتي ردت عليها مدبرة المنزل بأنف مقلوب. هاجت الكلاب على مقاودها. أُعطي توماس مسؤولية "دوناي"، وكان عليه أن يشد إلى الوراء بكل ما أوتي من قوة لمنعه من الانطلاق في خبب. سلكوا الدرب المؤدي إلى الجدول، وعبروا الجسر الصغير، ودخلوا المحمية. كان حارس الغابة صديق "روموالد" وتركه — بعين واحدة مغلقة — يقوم بقدر لا بأس به من الصيد غير المشروع.

صمت هائل. بدأ ضباب الصباح في الانقشاع، ومع الانقشاع ظهرت أرضية غابة تعج بالعشب الرطب ومزينة بمسارات متشابكة بلون الصدأ. تردد صدى بوق "روموالد" بعيدًا وواسعًا، ووجنتاه

تنتفخان وعيناه تحمران من الجهد. بجهد، إذا عمل عليه، كان بإمكان توماس جعله يصدر أصواتًا، ولكن ليس شيئًا يشبه اللحن أبدًا.

روائح الخريف، أصلها، مزيجها الذي يتجاوز قدرته أو قدرة أي رجل آخر على الوصف: تعفن الأوراق والإبر؛ الرائحة النتنة للفطريات والخيوط البيضاء المضمنة في الأسود، تحت الوحل المتعفن، الحطام المتقشر. كانوا محاطين بأراضٍ صيد جيدة. فسحات تقطعها صفوف من الصنوبر تشبه الفرشاة، وممر يحاذي جانب الغابة، وآخر، مغطى بالطحلب، مبطن بالمسارات، قطريًا مقابله. كانت الطرائد البرية عبدًا للعادات القديمة. بعد أن تُطرد من مخبئها، كانت تحاول صد مهاجميها بوصف دائرة، مستهدفة مسارات وتقاطعات أكثر ألفة، ويكشف اتجاهها نباح كلاب الصيد. كان على الصياد فقط أن يخمن التقاطع الصحيح ويكون هناك في الوقت المناسب. مشتتًا بالكلاب من خلفه، غير مدرك لأي خطر أمامه، كان يندفع مباشرة إلى مرمى نيرانه.

لم يكن توماس يحمل بندقية؛ كان هناك كمتدرب متواضع. كانت تعليماته هي البقاء بالقرب من "روموالد". في اللحظة التي أُطلق سراحهم فيها، انطلقت الكلاب النائحة إلى الأحراش. عاد "زاجراي" مرة أخرى، وأنفه إلى الأرض، وتجول بنظرة فضولية. "دينيس، خذ الممر"، قال "روموالد". "فيك، اصعد إلى المرج الأحمر. سأبقى أنا وتومي هنا." تراجع الرجال في الأفق، ومواسير بنادقهم مربوطة بأكتافهم تتلاشى ببطء خلف الأشجار. "راقب "لوتنيا" وهي تطرده"، تنبأ "روموالد."

قعقعة نقار خشب فوق الرأس، خدش على اللحاء. فجأة، من بعيد، صوت كلب، رفيع وعالٍ. "آي، آي!" "ألم أقل لك؟ لوتنيا!" هدوء. ثم مرة أخرى: "آي، آي!" "لقد التقطت الرائحة، لكنها ضعيفة، سيتعين عليها العمل عليها." حينها، ولأول مرة في حياته، سمع توماس موسيقى كلاب الصيد. إلى "آرف، آرف، آرف، آرف" الثابت انضم صوت آخر. "دوناي!" صرخ "روموالد"، وهو ينقل البندقية من كتفه. جاء صوت "زاجراي" الجهوري القوي على فترات طويلة الآن. اندهش توماس من أن مثل هذه الموسيقى يمكن أن تأتي من حناجر الكلاب، جوقة مكتومة بالمسافة، يتردد صداها في عمق الغابة. "لقد قفزوا على أرنب. لكنه لن يخرج من هنا. هيا يا تومي ـــ اركض!" وطارد توماس "روموالد"، في البداية مواكبًا له، ثم تراجع، يلهث. تشعبا من الممر، وناورا عبر البندق، ونزلا إلى وادٍ، وتسلقا ضفة. "هناك ـــ" أشار "روموالد" إلى موقف توماس، شجرة تنوب صغيرة، بينما انتظر هو نفسه، مشدود العنق، والبندقية في يده، بلا حراك في المنتصف. تدرج التل، البني بالإبر، إلى وادٍ أخضر، يطل

على منظر مثالي له، مع شريط أسمر مؤطر بجدران الغابة. ارتفع النباح إلى يسارهم، مليئًا بالرغبة والشجاعة والوحشية ـــ ثم خفت. "آي، آي"، ناحت "لوتنيا"، لا تزال تحاول التقاط الرائحة.

لا شيء قادم في طريقهما... انتظر ـــ هناك كان! بدا ضخمًا، أحمر تقريبًا على خلفية الخضرة، وهو ينزلق إلى الجيب المقابل لهما. وفاهه مفتوح، سعيدًا في تلك اللحظة بأنه بدون بندقية، استولى على توماس حمى الصياد بينما كان الحيوان، ينمو في قامته، يتقدم؛ وعيناه مثبتتان، وفمه لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، هزه طلقة. ارتفع الأرنب مباشرة، والتوى في الهواء، ثم انتهى الأمر باستثناء ارتعاش متشنج للكفوف. كان توماس أول من وصل إلى هناك. وبندقيته على كتفه، تقدم "روموالد" بتمهل، مبتسمًا على طول الطريق. لكن الكلاب سبقته إليه. نظر "دوناي" إلى الصبي وفمه ملىء بالفراء. أخرج "روموالد" سكينه، وقطع الكفين الخلفيتين، وألقى بهما إلى كلاب الصيد، وأعطى "دوناي" ربتة أو اثنتين من الموافقة؛ ثم أشعل سيجارة. "ذلك دوناي! كان سيأكل الجرحى وهم أحياء".

حاول توماس أن يجعل "رومولد" يشرح له كيف عرف أين يتمركز. ضحك "رومولد". "عليك أن تلعبها بذكاء. إذا قفزوا عليه هناك" ـــ أشار إلى وادي البندق ـــ "وعاد في هذا الاتجاه" ـــ أشار إلى اليسار ـــ "فعليه أن يخرج من هنا. سيعود دائمًا إلى حيث يعيش".

لا أعلم قط لِمَ أفعلُ ما أفعل. ولا حتى لِمَ أرسلتُ الخاطباتِ في تلك المرة. أو ذلك الروسي. لم يكن عليَّ أن أقتله؛ كانَ بوسعي أن أمنحه فزعاً شَديداً. لا أذكر السببَ".

"آآآه...!" كانت صرخة بالتازار تلك الصرخة التي تنبع من الأعماق، والتي لا يمكن لقوة أن تكبتها أو تقهرها أو تجاريها. والجريمة في الأمر أننا نمضي، نمزق أوراق التقويم، وننتعل أحذيتنا، ونختبر عضلات أذرعنا، ونعيش... وذلك التذكر المؤرق لأفعال الماضي، دون تذكر دوافعها. إما أن تكون هذه الأفعال من صنيعنا، نابعة من كينونتنا ذاتها، ثابتة، تدل على عبء مقيت، ورائحة كريهة في الجلد، أو أنها من عمل فاعل مقنّع، والأمر أشد رعبًا لأن ذلك يعني أنها خارجة عن سيطرتنا، وأنها جزء من لعنة بشعة.

تنبأ بالتازار أن سوركونت سينجح. ومن فرط التعب، وعدم ثقته في طبيعته وفي كل تلك القوى الجوفاء التي تنتحل شخصيتنا، اختار اللامبالاة. فالجمود يقلل من أسباب الندم لاحقًا. إذا كانت حياته قد ساءت، فلماذا لا يسوء كل شيء. لبعض الوقت، أخذ يضرب زوجته، ثم توقف، وانزوى في

صمت كثيف وكئيب. كان الأمر الأكثر منطقية هو مغادرة المنزل، والتقدم بطلب للحصول على أرض في مكان آخر —— وهو ما أتاحه الآن قانون الإصلاح الزراعي —— ولكن هل كان الأمر يستحق حقًا البدء من جديد من الصفر، والخشونة في كوخ من جذوع الأشجار، وبناء المباني؟ من الأفضل ترك الأمور على حالها. تقسيم الأرض لا يعني أن آل يوتشنيفيتش على وشك بناء منزل في الغابة. وإذا حدث أي شيء لسوركونت، فإنها ملزمة بتولي المسؤولية، على أي حال.

ثم وُلد طفل ثالث، ابنة، لبالتازار. ولكن عندما أحضرت القابلة القروية من "بوجيراي" الطفلة ليتفحصها، لم يستطع أن يتذكر كيف تم الأمر، ولا أي ليلة، أو ما إذا كان قد شعر بالمتعة حتى. بدت كقطة صغيرة، نسخة طبق الأصل عن والدها. ولم يُخبر إلا في اليوم التالي لحفل التعميد، وهو ينهض من سريره —— وقد قيل الأمر كمزحة في ذلك الوقت —— أنه طارد شخصًا بسكين.

جلجلة الأجراس، وحمحمة حصان، وانزلاق الزلاجات الصامت، ومنظر طبيعي أبيض مُطَرَّز بالآثار. المربع المهتز دل على أرنب بري؛ والشكل المستطيل، أرنب بري يعدو. أثر ثعلب —— محاذ بدقة، مخلب خلف الآخر —— صعد مباشرة إلى تلة، حيث تلألأ الثلج في الشمس، قبل أن يختفي في غابة بتولا مغمورة باللون البنفسجي. كانت آثار الطيور هي الأسهل في التمييز: ثلاث شرطات متداخلة، غالبًا ما يرافقها لطخة ذيل أو الأثر الخافت لريش الجناح.

أبرز البردُ العروقَ على أنف العمة "هيلين" —— أحمر داكن على وجهها الوردي المتورد —— نافرة فوق ياقة معطفها من جلد الغنم. كان لون جلد غنمها الأصلي قد بهت، لكن معطف توماس كان جديدًا، لا يزال يحتفظ ببريقه الأسمر الذي يذكر بمعطف السنجاب الصيفي، ولأنه كان أسمرًا وناعمًا، أحب أن يفرك خده بكمه، ويدفع بصبر قبعة جده ذات أغطية الأذنين كلما هددت بالانزلاق على عينيه. ارتدت "هيلين" قبعة مستديرة من فرو الأستراخان الرمادي.

كانت مسارات الثلج حول المنزل في "بوركوني" ملطخة باللون الأصفر من المشي، والأرض منقطة ببقع ماء متجمدة وأكوام صغيرة من روث الخيل تعج بالعصافير. في الداخل، مرت "بارباركا" مسرعة بهما وهي ترتدي جوارب صوفية وقباقيب خشبية. قُدمت المرطبات، وجلس الثلاثة إلى المائدة؛ لكن توماس، الذي سئم بسرعة من حديث المائدة، نهض وتجول بين أدوات الصيد المعلقة على الحائط. نشأ نوع من الاتفاق بين "روموالد" و"هيلين"، وقد أزعجه ذلك. كان هذا "روموالد" مختلفًا يراه الآن، "روموالد" لا يليق بـ"روموالد" الحقيقي —— شريك للكبار، يزين حديثه بنكات تثير

ضحكات عمته الخافتة. دافع آخر للمغادرة بأسرع ما يمكن بأدب هو عبوس "بارباركا"، التي كشفت شفتاها اللاذعتان عن حقد غريب. عندما أُجبر على البقاء على المائدة، أصبح انطوائيًا بشكل مؤسف لدرجة أن أمر عمته "كل!" كان له أثر صادم، يكاد يوقظه. لكنها لم تخمن أبدًا أفكاره الحقيقية ـــ تلك الأفكار ذات الطبيعة غير اللائقة إلى حد ما.

الابتسامات، والتملق المستمر للأكل والشرب، كانت بالنسبة له علامة على التصنع. لماذا كل هذا التظاهر، التظاهر بأنك شيء آخر غير ما أنت عليه؟ لا علامة، لا تلميح لأنفسهم الحقيقية. في الخفاء، شيء؛ في الصحبة، شيء آخر. "روموالد"، "روموالد" الحقيقي، كان سيقول: "حان وقت قضاء الحاجة"، ويجلس القرفصاء بجانب شجرة، وبعد ذلك يمسح نفسه بورقة شجر، دون تثبيط، دون إخفاء؛ ولكن في حضرة عمة توماس، كان كله رقة وأخلاقًا رفيعة. كما لم تكن العمة "هيلين" فوق الجلوس القرفصاء والتبول من خلال ساقيها، ومع ذلك كم كانت سيدة، كم كانت محتشمة في تصرفاتها الآن، كما لو أنها بلا أي جزء خاص، أو تركته في مكان ما. حتى "بارباركا". لماذا "حتى"؟ لأن كيف يمكن لشخص جميل بشكل خارق أن يجلس القرفصاء، وبخدين محمرين، ويصنع بركة بجزءها المشعر؟ وهو ينظر إليها ويحاول أن يتخيلها في هذا الوضع، ارتجف: أميال تفصل بين نعومة جبينها، وبريق نظرتها الأزرق، وتلك المنطقة الأخرى في الأسفل. إذا كان كل منهما يعرف شؤون الآخر، فلماذا التظاهر بالجهل؟ لطالما كان يحتقر آداب الزيارة، تلك المناسبات الاجتماعية التي كان يُجبر فيها على أن يكون متفرجًا على أعرافها المملة، ولكن ليس بقدر ما كان عليه خلال تلك الزيارات الشتوية إلى "بوركوني". في هذه الأثناء، كان يستمتع برؤى لهم وهم يجلسون القرفصاء عراة، يعتنون بحاجاتهم الجسدية، كل منهم على مرأى من الآخر. هل كانوا، في ذلك الوضع، لا يزالون يشعرون بأنهم ملزمون بثرثرة نفس التفاهات، نفس العبارات المبتذلة التي، وحدهم، كانوا يخجلون من نطقها؟ المتعة المنحرفة التي كان يجدها في استحضار مثل هذه الرؤى كانت مشوبة برغبة واحدة: الانتصار على أقنعتهم، وتجريدهم من التظاهر. أقسم ألا يصبح مثلهم أبدًا. ومع ذلك، كانت "هيلين" هي التي تحملت وطأة احتجاجاته الصامتة ـــ لأنها أصابت "روموالد" بالعدوى، ولإقحامها له في كل هذه السخافة الاحتفالية.

عند الغسق، عندما كانت السماء مشبعة من الأسفل بلون أحمر صارخ، وعندما بدت أغصان الأشجار الرقيقة وكأنها تسبب برودة جليدية، كانت طيور ديك الخلنج تتجمع عند البتولا بجانب الجدول.

كان توماس يلاحظ ريش ذيلها في الطيران، والبطانة البيضاء لأجنحتها. على مسافة قريبة بما فيه الكفاية، كان السواد المعدني للريش يتخذ بريقًا متلألئًا؛ على مسافة بعيدة، كانت الطيور تصبح ظلالاً بين تيجان الأشجار. من الخزانة أخرج "روموالد" طُعمًا خشبيًا، نسخة طبق الأصل مخلصة لديك خلنج حقيقي كما نُحتت على الإطلاق. بتثبيته في نهاية عمود طويل، مع الطُعم مثبت ليبدو كديك جاثم، أقام العمود على جذع شجرة بتولا؛ معتقدة أنه أحد رفاقها، كانت طيور ديك الخلنج تنقض من السماء إلى مدى إطلاق النار. وعد "روموالد" بأخذه معه في إحدى رحلاته، لكن الوعد، لسبب أو لآخر، لم يُنفذ أبدًا. موجة برد سيئة أبقتهم في الداخل في ذلك الشتاء، والنتيجة أنهم لم يقوموا إلا بنزهة واحدة ممتعة في الغابة ـــ بصحبة "هيلين"، للأسف. أشار "روموالد" إلى أثر في الثلج ـــ أثر ذئب، كما قال، بعد أن فحصه بعناية. كيف عرف أنه أثر ذئب وليس كلب؟ همم، كان يجب أن يكون كلبًا كبيرًا جدًا، قال "روموالد"، مضيفًا أن الوسائد على مخلب الذئب، لأنها أكثر انتشارًا، تترك أثرًا أعمق وأنظف.

لم يكن "روموالد" من رواد الكنيسة كثيرًا، على الرغم من أنه كان يتوقف دائمًا في القصر عندما يذهب. لكن "باربراكا" كانت في الكنيسة كل يوم أحد، ورأسها منحنٍ على كتاب قداس سميك، وطية منديلها المثلثة تسقط بين كتفيها المنحنيتين، ولم يكن حضورها مخيفًا بالقدر نفسه. كان للكنيسة طريقة في التخفيف مما كان مخيفًا لولا ذلك؛ حتى "دومينيك"، الذي جعله شعره غير الممشط يبرز بين الرجال، بدا أليفًا، وأقل عدوانية. بالنسبة لتوماس، على الرغم من أنه تصالح مع الأمر، إلا أن حضور الكنيسة كان سببًا لبعض الإحباط. أثناء القداس، كان على مشاعر الشخص الداخلية أن تصعد مباشرة إلى الله؛ وإلا، كما كان يعتقد، فهو مذنب بالغش. غير راغب في الغش، كان يطبق عينيه ويحاول ـــ دون جدوى ـــ أن يترك عقله يحلق عبر السقف إلى السماء. لكنه لم ينجح أبدًا؛ كان الله مثل الهواء، يذوب في لا شيء، بغض النظر عن كيفية تصور العقل له. ثم يعود مرة أخرى، ذلك الفضول الأرضي الذي لا يقاوم حول من كان جالسًا بجانبه، وماذا يرتدي، وتعبيرات الوجه... وحتى عندما كان قادرًا على الانفصال عن نفسه والاندفاع إلى الفضاء، كان ذلك دائمًا ليحل محل الله، ليحدق من الأعلى في الكنيسة وفي كل المجتمعين. من خلال الأسقف والملابس التي أصبحت شفافة بأعجوبة، كان يتأملهم. أجزاؤهم المخزية، بينما كانت مخفية عن الآخرين، أصبحت الآن مكشوفة بالكامل؛ وعقولهم عارية. بأصابعه العملاقة كان يمد يده ويلتقط واحدًا عشوائيًا، ويضعه في راحة يده،

ويدرس حركاته. ومهما حارب ضد مثل هذه الخيالات، فقد أعادت تأكيد نفسها مع كل رحلة إلى السماوات.

أثر فيه كتاب واحد بعمق: كتاب عن المسيحيين الأوائل والإمبراطور نيرون (الكتاب الذي يظهر فيه وهو يصنع مشاعل حية من الناس في اللوحة المعلقة في غرفة الجد). يجب أن يُعزى إليه حلمه عن النقاء. الحلم: مجموعة من المسيحيين، وتوماس بينهم، يقفون يغنون في ساحة مدرج روماني. كانت الدموع تسيل على وجهه، لكنها كانت دموع فرح، فرحة استشهاد مقبول طواعية، يجلب معه تطهيرًا للروح حوله إلى نهر متدفق. ذات مرة — وحدث ذلك مرة واحدة فقط — بأوامر من جده، جُلد على مؤخرته بسبب مخالفة أكثر خطورة. أمسكت به "أنتونينا"، بينما كان أحد فتيان المزرعة يجلد مؤخرته العارية بمفتاح. على الرغم من ألم العقاب، إلا أن تذكره بقي ثمينًا بطريقة ما: خفة روح، ابتهاج، تكفير بهيج — نفس دموع الابتهاج والامتلاء التي صاحبت حلمه عن الموت.

تقدمت الأسود، وفكوكها المسننة تقترب أكثر فأكثر؛ وغرس الأنياب في اللحم النيء، وتدفق الدم، والإحساس بالبراءة المضيئة، والمصالحة الأبدية مع الخير.

لكن هذا كان مجرد حلم. في الواقع، في نفس الأسبوع — أسبوع حلمه — خلق مشهدًا فظيعًا عندما فقد الكتاب ذو الغلاف الأسود الذي كان ينسخ منه بجد الأسماء اللاتينية لطيوره. بحث في كل مكان، وأزعج الكبار بإلحاحه، لكن الكتاب لم يكن في أي مكان. ما حدث له؟ اكتشفه بالصدفة — في نفس الغرفة حيث كانت العمة "هيلين" تنام، بين بذور مجففة منثورة على ملاءات من القماش وأكوام من خيوط الصوف. كانت إحدى قوائم سريرها المقلوبة مفقودة؛ كان كتاب الطيور هناك في مكانه. صرخ، وصاح، وقبض على قبضتيه بتهديد بينما كانت عمته، في حالة صدمة، تطلب معرفة سبب هذه النوبة. امرأة حمقاء لعين! كتاب أم طوب، ماذا يهمها! ماذا كانت الطيور والحيوانات بالنسبة لها — هي التي لم تستطع التمييز بين عصفور ودرسة صفراء! البومة، نعم، البومة كانت مهمة، ولكن فقط بسبب المال الذي جلبته. لم تكن مهتمة أكثر مما كانت عليه بما قاله "روموالد" عن الصيد؛ كان كل ذلك تمثيلاً، خدعة، جزءًا من تصاميمها المغازلة. مثل هذا الحقد لا يليق بمسيحي. لكن توماس لم ينزعج من مثل هذه التحفظات. سعى احتقاره للانتقام؛ لقد ألهم رؤى العقاب، سواء لهذه الجريمة الأخيرة أو للغباء الفادح الذي جسدته. رؤى، على سبيل المثال، لتتبيل حساءها بجراد البيلادونا. لكن

الجراد الآن يرقد تحت ثلوج الشتاء العميقة، وبعد أيام قليلة خفت كراهيته. أي شخص أعمى عن الأشياء التي تستحق الحب لم يكن حتى جديرًا بأن يُسمم.

بنى توماس رجل ثلجه على المرج الأمامي، وهو يدحرج كرات الثلج في غطاء الثلج المتصاعد الذي أثارته حركته. ثلاث كتل، واحدة فوق الأخرى، الأصغر —— الرأس —— مثبتة بعيون من الفحم وغليون من غصين. ولكن بحلول الوقت الذي وقف فيه منتصبًا، كانت اليدان متجمدتين وانتهت المتعة بالفعل: لم يكن هناك الكثير مما يمكن للمرء فعله برجل ثلج. في صباحات الشتاء كان يساعد "أنتونينا" في إشعال النيران. من الردهة كانت خطواتها تدوي بوضوح في المنزل —— هادئة لدرجة أنها بدت وكأنها مغطاة بالقطن —— وهي تدخل، تسحب البرد خلفها وتلقي بالحطب المزجج على الأرض بقعقعة. ثم كان عليه أن يضع لحاء البتولا ويقيم خيمة صغيرة من الحطب —— حطام مجفف في الفجوة بين الموقد المبلط والجدار. اللحاء، الذي تلحسه الشعلة، كان سيتجعد إلى أبواق. لحظة من الترقب: هل سيلتقط أم لا؟ بعد ذلك، "أنتونينا"، وذراعاها مليئتان بالخشب، وتوماس يتبعها، كانت تسير إلى غرفة الجدة "ديلبين"، حيث كان كل شيء لا يزال ضبابيًا، وعلى الفور تفتح المصاريع، مما يجعل كل من توماس وجدته، المحشورين أمام وسادة مسنودة على اللوح الأمامي، يرمشان من وهج الضوء المفاجئ. على منضدة سريرها، بجانب كتاب صلاة سميك، ملأت زجاجات الدواء الغرفة بروائحها المريضة. ولعدم ميله إلى المكوث، كما كان يفعل أحيانًا في الخريف، لجأ إلى أي عذر للهروب من تضرعاتها الباكية. متأهبًا على حافة كرسيه بجانب سريرها، شعر بأنه ملزم بالبقاء، لكنه، غير قادر على تحمل الأمر لفترة طويلة، كان ينسل دائمًا، ولم يزد ذنبه سوءًا بهروبه: جدته، لأنها كانت مريضة وباكية، كانت تنتمي إلى تلك الأشياء التي تمنح نفسها للمراقبة غير العاطفية، حتى الانزعاج، ومن هذا الانفصال جاء كل من الرضا والخزي.

حدث مهم: في ذلك الشتاء حصل توماس على حذائه، الحذاء الذي كان يتمناه. مخيط يدويًا من قبل إسكافي من "بوجيراي"، كانا أكبر بمقاس واحد (للسماح بالنمو)، لكنهما لا يزالان مناسبين بشكل مريح. لمنع القدم من الانزلاق، يمكن شد الساق الناعمة بحزام في مشط القدم. حزام آخر، ملفوف عبر ثقوب، أبقى الساق مشدودة حول الركبة.

كان ذلك الربيع لا مثيل له عرفه توماس على الإطلاق. ليس فقط بسبب الذوبان المفاجئ وشدة الشمس. في ذلك العام، بدلاً من انتظار ظهور الأوراق بشكل سلبي، وتفتح مفاتيح القديس بطرس

الصفراء، وغناء العندليب في الأدغال، خرج لملاقاتها. بالكاد كانت الأرض العارية تتبخر في الضوء السحابي وهو، يصفر ويغني ويشهر عصاه، شق طريقه إلى "بوركوني". منذ اللحظة التي انزلق فيها إلى الغابة خلف المزرعة في تلك الظهيرة، شعر وكأنه يفقد نفسه فيها، مؤلمًا كان الانتفاخ من الداخل، عظيمًا كانت الرغبة في إعلان نشوته. لكنه كبح الرغبة، وخطا بهدوء كافٍ حتى لا يكسر غصينًا، ويتجمد في مساره عند أدنى حفيف. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لدخول المملكة، حيث كانت الطيور تصاب بالذعر ليس من رؤية رجل بقدر ما من حركته. تجولت طيور السمن المرقطة في مكان قريب، وكان يعرف كيف يميزها عن طيور الحقل من خلال ريش رأسها الرمادي-البني، بدلاً من المزرق. وهو يدور حول شجرة تنوب صغيرة، اكتشف عشًا جديدًا للعصافير؛ ولولا صراخها القلق، لكان قد فاته عش قيق، مموهًا جيدًا لدرجة أنه بالكاد يمكن اكتشافه من الأسفل. كانت شجرة التنوب الصغيرة، وأغصانها تحضن الأرض، سهلة التسلق في البداية؛ ولكن كلما صعد، أصبحت الإبر أكثر كثافة، وكان توماس مخدوشًا ومتعرقًا هو الذي ظهر أخيرًا في القمة، ورأسه مجاورًا للعش. تأرجح، متشبثًا بكلتا ذراعيه بالجذع النحيل، بينما هددت طيور القيق الهائجة بالهجوم من الأعلى، عازمة بوضوح على طعنه بمناقيرها، لتتراجع في ذعر فقط، وتستأنف أماكنها، وتجدد الهجوم. امتنع عن لمس البيض ـــ كان هناك أربعة، كلها زرقاء فاتحة ومنقطة باللون الصدأ. لماذا كان البيض المرقط شائعًا جدًا بين طيور الغابة؟ لم يتمكن أحد من إعطائه إجابة مرضية. طريقة الطبيعة، خمن. ولكن لماذا؟ انزلق عائدًا، راضيًا تمامًا عن إنجازه.

عاد، مبتهجًا بانطباعاته عن ربيع الغابة، الذي لم يستمد جماله من أي شيء معين بل من عدد لا يحصى من الأصوات التي تشكل جوقة من الوعد. من قمم الأشجار، التي أصبحت الآن سوداء على خلفية السماء الغربية، جاءت ألحان طيور السمن الطويلة ـــ "توردوس ميوزيكوس"، الذي لا يمكن إلا لجاحد أن يخطئه بـ"توردوس بيلاريس" أو "توردوس فيسيفوروس"؛ من الأعلى، صفير الشقنب في طيرانه، مثل ثغاء الحملان في الأفق، في مكان ما وراء مساحة الحرير الوردي-الأخضر. تظاهرت "أنتونينا" بأن هذه الأصوات كانت من عمل الساحرة "راجانا"، وهي تحث جبلها، الشيطان، الذي حولته إلى عنزة طائرة؛ لكن توماس كان يعلم أنها مجرد الريح التي تصفر في ريشها.

أهدى لـ"بارباركا" باقة من أزهار الدفنة ذات البتلات الوردية، التي تشبه رائحتها رائحة الياقوت، وقُبلت بامتنان. جلس "روموالد" في الشفق، وهو يرفع ماسورة بندقيته إلى ضوء المصباح للفحص.

سأل سؤالاً ترك توماس عاجزًا عن الكلام للحظة، بل وجعله شاحبًا قليلاً. سواء كان ذلك من الشفقة أو الاحترام لقدرة توماس على تجسيد أرواح الغابة، استفسر: "هل تريد أن تأتي؟"

لم يعكر صفو سعادته سوى العبء الذي فُرض عليه. كانت مطاردة ديك الخشب، مسترشدين فقط بأغنيته، إنجازًا معترفًا به. خطوة واحدة مهملة، وانتهى الصيد؛ ومع ذلك، وثق "روموالد" بما يكفي في قدراته ليدعوه. أجبره شرفه على عدم خيانة تلك الثقة.

توماس، الذي لم يكن غريبًا عن طرق ديك الخشب، لم يرَ واحدًا حيًا من قبل، حيث كان يلتزم بالداخل، بعيدًا عن مساكن البشر ــــ رمز الطيور للبرية. كان يُطارد خطوتين أو ثلاث خطوات في كل مرة، في نهاية كل أغنية، عندما يكون الطائر أصمًا عن أي حركة في الضوء الخافت ــــ كان يصفر فقط عند الفجر، في الفترة الفاصلة بين ذوبان الشتاء والخضرة الأولى.

كان ابتهاج توماس بتقاليد البرية، بأي شيء له علاقة بالطبيعة، خادعًا. هل كانت صورة الطائر نفسه ــــ بحجم الديك الرومي، طويل العنق، مروحي الذيل ــــ هي التي أثارت خياله، أم رؤى نفسه وهو يطارده في شبه الظلام؟ إثارة المغامرة، احتمال المشاركة كصياد حقيقي، يتحرك خلسة في الغابة، صامتًا ويقظًا، وأذنيه على نباح كلاب الصيد؟ لأنه كان قادرًا على تصوير ليس فقط التفاصيل، ليس فقط الزخارف، بل نفسه في فعل تسجيلها؛ لقد ابتهج، بعبارة أخرى، بالدور بقدر ما ابتهج بالشيء نفسه. كان تقوس القدم أثناء المطاردة، على سبيل المثال، علامة على كفاءته الخاصة، مدركًا بوعي شديد. وكان الكبار مخدوعين إذا افترضوا أنهم لا ينغمسون في ألعاب مماثلة. إذا كانوا صادقين، لاعترفوا بافتتان أكبر بدور العاشق من موضوع ذلك الحب؛ برغبتهم في تذوق الموقف، مصدر فخرهم. لا عجب أن كلماتهم وإيماءاتهم كانت مصطنعة؛ كانت تُؤدى، تحت الرقابة، نيابة عن بعض المثل العليا. كان على عواطفهم أن تكون متناسبة مع مثلهم الأعلى؛ وعندما كانت تفتقر إلى ذلك، كان لا بد من اختراعها وإعادة تأكيد إخلاصها باستمرار. كان التمثيل هو بضاعتهم: نصف انتحل شخصية شخص يعرف النصف الآخر أنها زائفة. وهكذا، يمكن قول الكثير في دفاع توماس.

التعصب الذي قسم به الناس إلى جديرين وغير جديرين، اعتمادًا على ما إذا كان يشعر فيهم بوجود أو غياب بعض الشغف، شهد على مطالب قلبه الباهظة. بمجرد أن اعترف بالطيور على أنها الجمال الأسمى، تعهد بالبقاء مخلصًا لها ولمهنته المختارة. يمكن قراءة عناده في سلوكه المثالي، في صرير أسنانه الثابت: "سأكون ما أختار أن أكون."

بعد ظهر اليوم التالي، انطلقا في عربة "روموالد" ذات الحصان الواحد. قطع الطريق الرملي، العميق الأخاديد، مباشرة عبر الغابة قبل أن يتلوى عبر المستنقعات، والمشهد القاحل يخفف من حدته بضع أشجار صنوبر متناثرة تُركت للبذور وبمجموعات من الشتلات صغيرة جدًا لدرجة أنها كانت شفافة تقريبًا، وكثير منها مجعد ومكسور بالفعل، كالعشب، بسبب الثلوج والرياح الشتوية. المستنقع، وجانبه القاحل في تناقض صارخ مع الخضرة المورقة على طول نهر إيسا أو حول "بوركوني"، أثار القليل من التعاطف في توماس. في الغابة المختلطة بعد النطاق، بحث "روموالد" عن درب قطع الأخشاب المستخدم كطريق مختصر. هنا كانت الأرض جافة بالفعل بما يكفي لعدم المخاطرة بمحور غارق؛ كانت الظلال تتردد الآن ثم تنعكس بقعقعة الحوافر على الثلج المتصلب. خرجا على طريق رئيسي مبطن بالخنادق، وبعد نصف ساعة ظهرت فسحة، والسماء فوقها متوجة بدخان المدخنة، في الأفق. "جوجيلي"، قال "رومولد". "في تلك القرية، الجميع صيادون غير شرعيين."

في ضوء المساء، بدت الأدغال، المغطاة بالضباب، زرقاء معدنية على خلفية خط الأشجار الأسود. بعد عبور جسر صغير مكتظ بشجر الألدر، صعدا جسرًا يؤدي إلى منزل حارس الغابة. عش لقلق على السطح، وسكانه عادوا حديثًا، يعج بالمناقير والريش. نبح كلب ومد أطرافه أمام الباب، حيث كانت امرأة كبيرة العظام، ترتدي تنورة خضراء داكنة، أبلغتهما أن زوجها يخيم في الغابة. دعتهما إلى الداخل، لكنهما، حريصان على الوصول إليه قبل حلول الظلام، لم يبقيا إلا لشرب بعض الحليب، الذي قُدم لهما في إبريق فخاري. باتباع توجيهاتها — يمينًا، ثم يسارًا بعد شجرة الصنوبر مع خلية النحل، ثم يمينًا آخر بجانب مستنقع الخث — التقطا الدرب، وهو مسار حصان مغطى برقائق الخشب وفراش من أغصان الصنوبر. كان الظلام قد حل الآن؛ جذوع الأشجار العارية من اللحاء تلمع بجانب الدرب. بعد فترة وجيزة، لمحا نارًا تشتعل في الأفق.

اتخذ المأوى المصنوع من الصنوبر المقطوع حديثًا بريقًا نحاسيًا داكنًا في ضوء نار المخيم، التي جلس حولها فلاحان على جلود غنمهما الممدودة. سارع توماس إلى لمح زوج من مواسير البنادق مسنودة على مأوى الصنوبر المائل. كان صياح البوم يقترب من ذروته — أخبرهما حارس الغابة وشريكه — ووعد شروق الشمس بطقس جيد، مع فرصة ضئيلة للمطر. "الفتى" — أومأ حارس الغابة إلى توماس. "هنا من أجل صيد ديك الخلنج؟" مسح شاربه الكثيف، وابتسامة ساخرة تلعب تحته، وهز رأسه، وحدق فيه صعودًا وهبوطًا. شعر توماس بعدم الارتياح تحت نظرته الفاحصة.

تطايرت الشرر وصعدت وتناثرت في السواد الناعم. مد توماس ساقيه نحو النار وشعر بالدفء السخي من خلال نعال حذائه. وهو مستلق على فراشه من التنوب، غطى نفسه بجلد غنمه واستمع إلى تنهد تيجان التنوب، وإلى صراخ بومة في مكان بعيد؛ وإلى أصوات الرجال المتمهلة، الذين جلسوا يتبادلون الثرثرة: حفل زفاف، دعوى قضائية، قضية رجل حرث ممتلكات شخص آخر عن طريق الخطأ... من حين لآخر، كان أحدهم ينهض ويختفي، ليعود من الظلام، ويسحب جذعًا جافًا، يلقيه على النار. مهدئًا بقعقعة نار المخيم، استدار توماس على جنبه وغرق في نعاس، والأصوات والقعقعة تصل إليه من خلال ذلك النصف نوم بين الحلم واليقظة.

استيقظ على شد في ذراعه. نار المخيم، التي انطفأت الآن، كانت محاطة بالرماد. القبة السماوية، التي كانت شاحبة قليلاً في نصف السماء، تلألأت فوق رأسه. ارتجف، بقدر ما من الترقب بقدر ما من البرد.

كان الظلام دامسًا —— صامتًا باستثناء اصطدام حذاء بجذر، واحتكاك ماسورة بغصن. مجموعة صيد من ثلاثة؛ الرابع، صديق حارس الغابة، ذهب ليجرب حظه في مواقف أخرى. ضاق المسار وبدأت رائحة إبر الصنوبر تفسح المجال ببطء لروائح المستنقع. تلألأت برك الماء في ضوء الفجر الرمادي. خاضوا في الماء، وداروا حوله، وعلقوا في أشجار البلسان، ثم توازنوا لاحقًا في طريقهم عبر جذوع لزجة وُضعت كجسر بين أشباح القصب الجاف، وشكلت شيئًا بين جسر وسد. إلى اليسار، وراء خندق يتردد فيه صدى نقيق ضفدع ثور، تلوح جدار من شجيرات الصنوبر؛ إلى اليمين، كثافة داكنة من غابة مستنقعية، ميز توماس في داخلها هنا وهناك جذعًا فاتح اللحاء، والجانب السفلي المتشابك لشجرة مقلوبة، وكتل من السعد والسرخس والقصب. كانت السماء أمامهم مشبعة باللون الوردي؛ وكلما طالت نظرة العين عليها، أصبح الظلام المحيط أكثر سوادًا.

توقفوا من حين لآخر، وآذانهم مرهفة. عند نقطة واحدة، ضغط "روموالد" على ذراع توماس. "ها هو"، قال في همس. لكن الأمر استغرق توماس بعض الوقت ليسجل الصوت —— نوع من التنهد المكتوم، لا يشبه أي صوت مخلوق آخر يعرفه. في بعض الأحيان كان يبدو غامضًا كطرق مطرقة، أو فك سدادة، ولكن لا —— لقد أفلت من التعريف. تصافحا مع حارس الغابة، الذي اختفى على الفور عن الأنظار.

"سنستمر بنفس الوتيرة لفترة"، تمتم "روموالد". "إنه بعيد جدًا عن متناول اليد الآن. ولكن لاحقًا ـــ انتبه لخطواتك".

وهو يمسك بندقيته بيد واحدة، ويحافظ على توازنه بالأخرى، خاض "روموالد" في الأحراش. تبعه توماس، وهو يجهد للحفاظ على الصمت. ولكن كيف يمكن تجنب إصدار أي أصوات تدل على وجوده عندما تلتقي القدم، حتى قبل أن تلمس الأرض، بسجادة من السيقان الجافة؟ وجد طريقة: قبل أن يضع قدمه، كان يغرز حذاءه أولاً في السجادة، أو يبحث عن الطحلب. كان ديك الخلنج بحاجة بالفعل إلى البرية كحماية. كانت حواجز من جذوع الأشجار المتساقطة تسد طريقهم من حين لآخر، وكان "روموالد" يناقش ما إذا كان سيزحف تحتها أم فوقها. كان الصياح يُسمع الآن بشكل أكثر وضوحًا ـــ متوترًا، متسارعًا تك-آب، تك-آب...

تبقى مثل هذه المشاهد ثابتة إلى الأبد في ذاكرة المرء: حور عملاق، جعله الإضاءة الرمادية اللؤلؤية بين الليل والنهار أكثر شموخًا، وأغصانه ممسوحة بإشراق يعلن شروق الشمس؛ جذور تشبه الزوائد العملاقة تتلمس الغسق الرطب؛ اندفاع السيقان العارية، ترتفع إلى الضوء؛ و"روموالد"، لا يزيد عن نملة بجانبها، يشق طريقه عبر الأدغال، وبندقيته مرفوعة عاليًا. وأغنية ديك الخلنج. فهم توماس الآن لماذا كان صيد ديك الخلنج يحتفل به كثيرًا. لم يكن بإمكان الطبيعة أن تخترع أغنية أفضل لتنقل وحشية الربيع. لا لحن ولا زقزقة رشيقة ـــ بل قرع إيقاعي، يسبب خفقانًا في الصدغين، واندماجًا بين أغنية ديك الخلنج ونبض القلب.

قلد توماس كل حركة وإيماءة لـ"روموالد". في اللحظة التي استدار فيها "روموالد" وأشار، توقف في مساره. لقد حان الوقت. منذ الآن، كان عليهما أن يخطوا خطوات قافزة. توقف الطائر. صمت. طيور صغيرة، تزقزق بحدة، تجمعت فوق رؤوسهم. ثم بدأ مرة أخرى. تك-آب... أسرع وأسرع، حتى انضم إلى الصياح صوت آخر، أشبه بصقل السكين؛ حينها قفز "روموالد" قفزته الأولى، تلتها قفزة ثانية، متوقفًا بلا حراك في الثالثة. خشي توماس أن يتحرك قبل أن يتأكد من توقيته. ولكن في اللحظة التي بدأ فيها ديك الخلنج سلسلة جديدة، كان مستعدًا؛ آخذًا إشارته من الشحذ، قفز مع "روموالد". واحد، اثنان، ثلاثة. عرف لماذا الفترة الفاصلة: كان الطائر أصمًا للحظات. يمكنهما المخاطرة بالضوضاء الآن، طالما أن الجسد مستعد ليصبح تمثالاً في لحظة.

واحد، اثنان، ثلاثة. ركز بالكامل على التمرين، وصلى: "أرجوك يا إلهي، اجعله ينجح. اجعله ينجح." بمجرد التنفيذ، لم يكن هناك تحسين لوضع المرء — تبقى حيث هبطت. ولكن بينما كانت ساقه تبحث عن جزيرة طحلبية، فقد توازنه في القفزة الثالثة وانزلق في الوحل بقرقعة عالية. كان بإمكانه أن يرفع نفسه بالتمسك بشتلة خلفه، لكنه خشي أن يكشفه الحفيف. في يأس، غرق في الوحل، بينما هز "روموالد" قبضته في وجهه.

فقد تسلسلاً واحدًا خلال الوقت الذي استغرقه لإخراج قدمه من المستنقع. سرعان ما كان يقفز جنبًا إلى جنب مع "روموالد"، وقلقه يتصاعد باطراد مع احتمال طرد الطائر، قريبًا كان الصياح الآن. وجد موطئ قدم آمنًا للسلسلة التالية، متأهبًا، لكن لم يحدث شيء. مرت دقائق. لقد انتهى الأمر. لقد هرب. مرعوبًا، توسل توماس إلى "روموالد" بعينيه أن يعيده.

ثم بدأ ديك الخلنج مرة أخرى، تمامًا كما كان من قبل، فقط أعلى قليلاً. هل غير مجرد مجثمه؟ من انحناء "روموالد" واستطلاعه المتكرر، خمن توماس أنه كان يخطط لأكثر الطرق خلسة. أشرقت السماء فوق سطح الغابة؛ أمامهما، مجموعة من أشجار الحور كانت ملونة بأشعة الشمس. "روموالد"، بخطوات واسعة، توجه في ذلك الاتجاه، مشيرًا إلى توماس ليتبعه.

جلس ديك الخلنج عاليًا في فجوة بين أشجار التنوب. راكعًا وممدًا عنقه، لاحظه توماس من خلف جذع شجرة. بدا صغيرًا بما يكفي ليكون طائرًا أسود. أجنحة منخفضة، ريش ذيل ينتفش بزاوية، رمادي مصفر على خلفية مجثمه من التنوب الأسود. "روموالد"، منحنٍ، انحنى تحت ستارة من الإبر: كان يحاول تطويقه.

طلقة. شاهد توماس ديك الخلنج، وأجنحته متوقفة، وهو يُسحب من الغصن؛ رأى مسار السقوط الطويل، وسمع الدوي، وصدى الطلقة المتموج. لعق شفتيه — فرحًا وممتنًا لله.

عندما أمسك بالطائر من رأسه — بريق معدني، جبين قرمزي، منقار عاجي — ورفعه إلى ارتفاع الكتف، تدلى إلى قدميه. لم يكن يعرف عالم البشر؛ مرة أو مرتين، ربما سمع أصوات رجال من بعيد. كان غافلاً عن العمة "هيلين"، والكتب، والأحذية، وشكل البندقية؛ غافلاً عن وجود "روموالد" وتوماس أيضًا. ولن يعرف أبدًا. مصعوقًا بصاعقة، مات على الفور. لكنه، توماس، لا يزال يقيم على هذا الجانب من الصاعقة؛ لقد التقيا بالطريقة الوحيدة الممكنة، وشعر بوخزة من الندم لأنه لا يمكن

أن يكون الأمر خلاف ذلك. الحقيقة هي أن توماس كان يتوق إلى نوع من التواصل المستحيل مع المخلوقات الحية. لماذا هذا الحاجز، ولماذا تصبح صيادًا إذا كنت تحب الطبيعة؟ كان الأمر نفسه مع البومة: لقد حلم سرًا باليوم الذي ستتوقف فيه البومة، بكلمة أو فعل، عن كونها بومة، ولو للحظة واحدة. لكن الحلم لم يتحقق أبدًا؛ فما الفائدة من إبقائها محبوسة في قفص؟ بما أنه لم يكن في مقدوره أن يتخذ شكلاً آخر —— شكل ديك خلنج، على سبيل المثال —— كل ما تبقى هو إعادة الطائر الميت، واستنشاق رائحته، رائحة داخل الغابة الوحشي.

أشرقت الشمس. حفر الأشجار والبقع المستنقعية المزدحمة بالشجيرات اتخذت الآن جانبًا أكثر دنيوية. سرعان ما عادا بجانب الخندق، الذي، لدهشته، بدا أقرب في ضوء النهار. كان لديه ميل لهذا المشي بجانب الخندق: فجر قاسٍ محاصر في فوضى من الصنوبر المائل المتداخل؛ هذا الرجل بشريطه الأسود من البندقية؛ إكليل أزرق من دخان السجائر، وهو نفسه، حامل الكأس.

أولئك الذين لم يخرجوا من المنزل عند بزوغ الفجر وسمعوا ثرثرة ديك الخلنج يجب أن يعيشوا حياة بائسة بالفعل، لأن مثل هؤلاء لم يعرفوا الربيع أبدًا. ولن يتمكنوا، في أوقات اليأس، من استحضار تلك الأعراس التي تُحتفل بها في أماكن بعيدة عما يصيبهم. ولكن هل كان الأمر مهمًا حقًا إذا لم يتمكنوا من تجربة مثل هذه النشوة، إذا كان بإمكان شخص آخر؟ ذلك الوقت عندما كانت أزهار الليلك، صفراء بودرة من الداخل، وسيقانها مغطاة بزغب مخملي، تولد بين الإبر؛ عندما كانت الديكة ترقص في الفسحات، تسحب أجنحتها على الأرض وتتباهى بريش ذيلها، بلون الحبر من الخارج، أبيض من الداخل، وحناجرها ممتلئة جدًا بالأغنية لدرجة أنها لا تستطيع سوى الانتفاخ من الفائض.

لم يصطد "رومالد" ديك الخلنج في "بوركوني" أبدًا، حريصًا على الحفاظ على الحياة البرية هناك. غابة البتولا نفسها التي وفرت ملاذًا للأفاعي كانت متاخمة لغابة صنوبر صغيرة؛ هنا اختارت طيور ديك الخلنج مكانًا لطقوس تزاوجها. على الرغم من أنها مشجرة بشكل متناثر، إلا أن الأشجار هناك كانت فاخرة، وأغصانها منحنية على الأرض، والأرضية تحتها تشبه الفسيفساء: جزر من الطحلب القصير، وبقع من الأشنة الرمادية، ومجموعات من عنب الدب الأحمر. كانت المخابئ، المصممة لتبدو كشجيرات، مفضلة للصيد؛ كان الصياد يختبئ فيها قبل الفجر وينتظر، ويطل على قاعة رقص طيور ديك الخلنج. اعتبر توماس أنه من باب الشرف أن يعتمد فقط على مكر عالم الطبيعة؛ أي أنه كان يصطاد بدون بندقية، وكان التحدي هو الاقتراب بما يكفي لدرجة أنه لو كان مسلحًا، لما أخطأ.

ضباب أبيض حليبي، سماء وردية باستيل لطفل. لم تكن مثل هذه الضباب غير شائعة في أي موسم، ولكن لم يكن هناك ما هو هادئ بشكل مذهل مثل هذا. في الضباب، على خلفية الندى الأبيض أو الصقيع، كانت طيور ديك الخلنج المضيئة تشبه الخنافس المطلية بالمعدن. كانت أراضي التزاوج، الموقع الذي اختاروه لألعاب حبهم، بالنسبة لتوماس حديقة مسحورة. وهو يزحف على أربع، كان يتجسس عليهم، وإن كان مرة واحدة فقط على مسافة قريبة. مرة أخرى، أذهلته نداء تزاوج ديك خلنج جاثم في شجرة صنوبر صغيرة. تشو-شي! قطرات شفافة تلمع وتتألق على أطراف الإبر، ومع ذلك كان الطائر هو النقطة المحورية في الفضاء، مساوٍ في الحجم لكوكب. طار الطائر بعيدًا من تلقاء نفسه، دون أن تدفعه أي حركة مهملة من جانبه. كم كان يتوق إلى قبعة الإخفاء من الحكاية الخرافية، على الرغم من أنه كانت هناك أوقات عرف فيها بالفعل كيف يجعل نفسه غير مرئي.

كان الربيع يزداد قوة: كرز الطيور على طول نهر إيسا، يغمر الحواس بعطره المر؛ فتيات صغيرات يمشين على أطراف أصابعهن لقطف باقات من الزهور الهشة لدرجة أنها تتناثر عند أدنى هزة؛ وتلك الأمسيات على مرج القرية، حيث كانت طبلة صغيرة وبوق يعزفان مرافقة للرقصة القروية الرتيبة المعروفة باسم "سوكتينيس". والمنزل في "غينه"، مدفون الآن فجأة في سحاب من الليلك.

في ذلك العام، لم تلمس يد توماس مرة واحدة الرمح ذي الأربع شعب الذي كان يستخدمه لصيد سمك الكراكي، سواء مع "باكيناص" أو "أكونيس"، والخط على صنارته تآكل بسبب خطافاتهم الصدئة. تركه هذا الإهمال لشغف الطفولة بضمير مذنب؛ لكن كان لديه الآن أشياء أخرى، أكثر إلحاحًا، تشغله، سواء في منزل "روموالد" أو في منزل السيدة "بوكوفسكي" العجوز في "بوركوني". ما جذبه هناك لم يكن لا المرأة العجوز ولا "دينيس" ولا "فيكتور"، بل بحيرة.

كانت بحيرة صغيرة، منعزلة عن الحقول والطرق، مما جعلها أكثر جاذبية. كانت محاطة بأرض مستنقعية، وعلى الرغم من أن دربًا كان يتيح الوصول إليها، إلا أنه كان على المرء أن يخوض في الماء حتى الكاحل قبل الوصول إلى الشاطئ. كانت البحيرة محاطة بكثافة بالقصب الطويل، لكن توماس اكتشف خليجًا صغيرًا بإطلالة بانورامية، وجذع شجرة ألدر، حيث كان يجلس لساعات في تأمل جامد. هدوء تام، صفحة من سماء أخرى تعبرها طيور مائية تخلف وراءها تجاعيد طويلة. كان للبحيرة سكانها الدائمون، وكان توماس يترصدهم باستمرار. كانت البطات تأتي طائرة من السماء، وتنزلق طويلاً ومنخفضًا فوق السطح، وأطراف أجنحتها المثلثة تلامس الماء في البداية، ثم تموجه

وترسل تموجات إلى الشاطئ. كانت البطات تفترسها الصقور النائحة من الأعلى، وشهد ذات مرة هجومًا في الجو؛ نجا الذكر باللجوء إلى القصب. لكن عادات طائر الغطاس أثارت اهتمامه أكثر من غيرها. في بعض الأحيان كانت تطفو في مكان قريب: منقار أحمر، عرف، سوالف كستنائية على عنق أبيض. كان محتارًا من احتفالاتها الغريبة، التي تُؤدى دائمًا في منتصف البحيرة. أعناقها الشبيهة بالثعابين تطول فجأة، وكانت تندفع عبر سطح الماء بسرعة هائلة، والأعناق الشبيهة بالثعابين مقوسة الآن ورؤوسها منخفضة. كان دفعها إلى الأمام مذهلاً أكثر من ذلك لأنها بالكاد كانت تلامس الماء ولم تطير. مثل الزوارق البخارية في مجلات الجدة "ديلبين" المصورة. كيف فعلوا ذلك، سأل "فيكتور" ذات مرة. "جي جيج جياج جوجل جوز جير جوجيد" ـــــ أي، "إنهم يطاردون بعضهم البعض لأنهم أغبياء"، وهو تفسير من غير المرجح أن يرضي عالمًا طبيعيًا.

"فيكتور"، بسبب تلعثمه الثقيل، لم يكن حقًا أفضل شركة. كان يحرث، ويمشط، ويرعى أحواض العلف، وحتى يحلب الأبقار مع الخادمة. مشغول دائمًا بالأعمال الوضيعة، نوعًا ما... من الأجراء. تلعثمه، بلا شك، كان أصله في رعب الأم. كانت المرأة العجوز معتادة على الجلوس وساقاها متباعدتان، وبطنها ضخم، وقبضتاها مشدودتان على ركبتيها، وهذا الوضع الكئيب كان من ترتيب مختلف تمامًا عن الترنيم والعيون المرفوعة التي صاحبت عزف الغيتار. كان توماس دائمًا مصدومًا لسماعها تغني، كما لو أن ثورًا كان يقلد عندليبًا.

ربت السيدة "بوكوفسكي" العديد من البط، وأثار جانب من سلوكها توقف توماس. كانت البطات تتجول حول المنزل، تقضم العشب، أو تسبح في حفرة، والتي، باستثناء بعد هطول المطر عندما يتجمع الماء في القاع، كانت إما حفرة طين أو حوضًا متصدعًا. "لماذا لا يذهبن إلى البحيرة؟" سأل. سخر "فيكتور"، وكان رده، أو على الأقل ما يمكن استخلاصه منه هو: "ها! لو عرفن فقط!" لم تكن تدرك أن جنة غواص قريبة، توفر مياهًا دافئة، وطحالب، ووسائد عائمة مترامية الأطراف على أعماق ناعسة، وملاذات بين القصب. وهو يتأمل مناقيرها المسطحة، ووجناتها المنتفخة، أشفق توماس على هذا الضعف الغريب لديها. ما الذي كان أسهل من الهجرة إلى البحيرة؟ رحلة عشر دقائق، على الأكثر. لم يكن توماس سيتابع هذه البصيرة الفلسفية، التي صيغت الآن بشكل غامض فقط، إلى نتيجتها المنطقية إلا بعد بضع سنوات. كانت البشرية مجموعة بائسة. لا تختلف عن تلك البطات.

جمال ذلك الربيع ــــ ربيعه الثاني عشر ــــ لم يجنب توماس قلقًا معينًا، وربما ساهم فيه. لأول مرة أدرك أن لديه نفسين، وأنهما ليستا متناسبتين تمامًا: النفس التي شعر بها في الداخل، والنفس الخارجية، نفسه الجسدية، التي وُلد بها، والتي لم يكن أي شيء منها ملكه حقًا. "باربارِكا"، لو علمت بإعجابه بها، لما جرحته أبدًا بدعوته "شوتاس". لقد حكمت عليه من خلال مظهره الخارجي، وهذا الولاء لوجهه ("تومي له وجه مثل مؤخرة تتري")، لإيماءاته الخاصة، التي كان مسؤولاً عنها، أثقل عليه. وماذا لو كان مصممًا بشكل مختلف عن الآخرين، ليس متناسبًا تمامًا؟ "روموالد"، على سبيل المثال، كان نحيلاً، رشيقًا في الوركين، وله ركبتان مستدقتان. توماس، وهو يقيس بيديه، وجد فخذيه كبيرين جدًا؛ وهو يقف جانبيًا أمام المرآة، كان يفحص مؤخرته البارزة، متظاهرًا، في اللحظة التي يسمع فيها خطوات تقترب، بأنه يمر مرور الكرام. تمكن الآخرون من فرق شعرهم في المنتصف، ولكن مهما مشط أو سرح، كان الأمر أشبه بمحاولة تمشيط جلد كلب ضد اتجاه الشعر.

نعيش داخل أنفسنا كما لو كنا في سجن. إذا سخر الناس منا، فذلك لأنهم لا يستطيعون الرؤية من خلالنا إلى ذواتنا الحقيقية. نحمل في داخلنا صورًا لأنفسنا الجسدية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأرواحنا، على الرغم من أن كل ما يتطلبه الأمر هو نظرة شخص آخر لفك ذلك الارتباط، ليرينا أننا لسنا على الإطلاق ما نتملق به أنفسنا. خاضعين، نتجول، موجودين داخل أنفسنا، مدركين لأنفسنا من الخارج بشكل مؤلم للغاية. هذا التناقض جعله يتوق أكثر فأكثر إلى مملكة الغابة، التي كانت خريطتها مقفلة في درج. بعد تفكير عميق، قرر أنه يجب منع النساء من دخول المملكة، سواء كن مثل "هيلين"، أو السيدة "بوكوفسكي"، أو "باربارِكا". الرجال أيضًا كانوا بارعين في التظاهر، لكن النساء كن بطريقة ما مسؤولات عن نظراتهن الباردة، الضيقة. الرجال الذين كانت عقولهم مثبتة على أهداف أسمى لم يكن عليهم أن يهتموا بمظهرهم.

أوراق الزيزفون حول القصر في "غينه" تكشفت لتصبح أيادي خضراء تخفي جرسًا صغيرًا كان معلقًا في مأوى نخره الدود في شوكة شجرة. لم يتذكر توماس أن أي شخص استخدم هذا الجرس قط؛ لم يكن هناك حبل مربوط به، وكان يقع عاليًا جدًا بحيث لا يمكن لأي شخص الوصول إليه. خلال شهر مايو، شهر العبادة للسيدة العذراء، سقط ضوء أصفر بعد الظهر عبر النوافذ إلى الكنيسة، ثقيلاً برائحة الزهور المتجمعة عند قدمي السيدة العذراء الزرقاء.

أمطار دافئة. تركت الأمطار المسارات مغمورة بضحال من الطمي، مزينة بجداول صغيرة تخترق الطين. إذا خطوت حافي القدمين في الوحل، فإن أصابع قدميك تفرز عجينة طرية. ثم يأتي الماء، ويتسرب مرة أخرى إلى الأثر ويملأ الطبعة التي خلفتها القدم العارية.

كانت نافذة غرفة الجدة "ديلبين" مفتوحة، وعلى الرغم من أن الضوء لا يزال ساطعًا في الخارج، إلا أن عندليبًا كان يغرد في الأحراش بجانب البركة. وهي تستيقظ من نوم ثقيل بالهواجس، شعرت بشخص يقف بجانب سريرها. "آرثر!" صرخت. ولكن لم يكن هناك أحد، ثم تذكرت أين هي، وتذكرت أن سنوات قد مرت، وأن الحروف الذهبية على شاهد القبر ربما تكون قد غسلتها الأمطار.

"برونيسلافا ريتر"، فتاة صغيرة بضفيرتين شقراوين كانت قد أمسكت للتو بفراشة وحررتها وهي عالقة على زجاج النافذة، حدقت في ظلال المساء المرسومة على السقف، وخصلتان من الشعر الرمادي ملتصقتان الآن بوسادتها المحشوة بالزغب. كانت جدران منزل عائلتها في "ريغا" حماية من الشر وتعدي الزمن. طفولة سعيدة جدًا، تلاها انحدار سريع في الحياة، تركتها غير راغبة في الاعتراف بحقيقتها، في الاعتراف بأن الضحك لن يتردد صداه مرة أخرى —— ضحك مشرق ومشمس لتبديد ما لا رجعة فيه. ما معنى كل هذا؟ الملعقة الصغيرة المستخدمة لتقديم المربى؛ ثوب الحرير المتلألئ الذي يخص والدتها؛ الأخت التي كانت تربط شريطها؛ رنين جرس الباب الأمامي؛ والأب، عائدًا من مرضاه، يضع حقيبته الطبية المربعة على طاولة الرصيف...؟ من بين كل الطرق الممكنة، لماذا هذا الطريق؟ من الصعب قبول أنه حدث، صعب ولكنه لا يمكن دحضه، حتى بدون التفكير فيه، مثل رواية دامعة يمكن تركها جانبًا، لا، لا يمكن تركها... لماذا أنا؟

النزول. بدأ في اليوم الذي عادت فيه هي و"آرثر" من الكنيسة، والثلج يذوب على رموشها. ضوء الشموع الخافت من الشمعدان، والأرضية الصارخة، والمنزل الذي سيصبح منزلها من ذلك اليوم فصاعدًا. "لا، لا!" كان الأمر أشبه باكتشاف الموت. السلاسل الورقية المستخدمة لتزيين شجرة عيد الميلاد، والترانيم، والزهور، ولف الطوق في الحديقة —— كلها متناثرة، مبعثرة، تاركة القسوة كواقع وحيد. "لا، لا!" نهاية أبدية. كان "آرثر" رجلاً صالحًا. وقد خضعت له، لذلك النظام الوحشي للعالم الذي كان في وطنه. رائحة التبغ وأحزمة الجلد عرّفتها على أرض لا يُحسب فيها للشخص أكثر من كونه شيئًا، أرض كُشف فيها عن أن تهذيب العادات الراقية مجرد تصنع، قناع ضعيف يغطي قسوة

القانون. ودائمًا نفس السؤال المحير: "هل كان هذا هو؟" أرض لم يتمرد فيها أحد، حيث كان كل شيء مقدسًا ومعترفًا به، حيث لا يمكن لكلمة أن تصالح، حيث لا يمكن تغيير شيء.

بالكاد عرفت الرجل، ولا حتى عندما برز شاربه على وجهه الشبيه بالشمع، عندما، وهي تعتني بالفتائل بجانب النعش، استسلمت للفكرة: "شيء". رجل يمكنه قمع طبيعته المندفعة بمجرد مص مصاصة غليون. رجل متحفظ، صامت عن الماضي. رجل يحمل ظهره ندوب السياط الروسية —— "لقيادة ثورة في المعسكر"، تمتم ذات مرة، على مضض. رجل سافر بالرنة في أرض الليل الأبدي والنهار الأبدي —— في تندرا سيبيريا؛ لجأ إلى الغابات أثناء الانتفاضة، طويل ونحيل في معطفه البولندي وحزامه المعقود. والفخر الذي كان يجده في براعته في الرماية... مثل المرة التي أطاح فيها بضابط روسي من السرج ببندقية خنزير بري. وكل الملاحظات وسندات الدين المتبقية: "خمسون روبلاً لماتيدا زيدونيس." "إلى ت.ك. —— عشرون روبلاً." على الرغم من أنها اشتبهت في أنه خانها، إلا أنها لم تظهر أي إشارة خارجية على ذلك. لاحقًا فقط، في وصيته، كانت هناك تلك الوصية الغامضة للفتيان في القرى المجاورة: أبناؤه.

دوامة من التواريخ، والشتاء، والربيع، والحوادث الصغيرة، والأمراض، والضيوف... وُلد "ثيودور" في عام ١٨٨٤ —— نعم، كانت بالكاد تبلغ التاسعة عشرة في ذلك الوقت. هل بكت في اليوم الذي تلقت فيه خبر غرق "قسطنطين" في حادث سباحة —— "قسطنطين"، رجل كان يمكن أن تكون سعيدة معه؟ لم تستطع التذكر. وهي تحدق بثبات، فحصت الماضي بعمق، مأسورة بالطريقة التي يمكن بها أن تُأسر نظرة المرء بدوامة أو شعلة. دفتر الرسم الذي يحتوي على رسوماته لا يزال في صندوقها، محفوظًا هناك حتى يومنا هذا.

صرخ العندليب، وأُجيب. تسربت الرطوبة من خلال النافذة. كل ما كان لا يمكن أن يدوم؛ إنه يتلاشى، ويومض، ويتناثر؛ رجل، يشك في أنه كان، لا يمكنه إلا أن يصلي. إذا كانت نجمة متوهجة في القبة السماوية الزرقاء-الخضراء على بعد ملايين الأميال، ووراءها نجوم أخرى، شموس أخرى؛ إذا كان كل ما وُلد قد مر دون أن يترك أثرًا، فإن الله وحده يمكنه إنقاذ الماضي من التفاهة. حتى ماضٍ مليء بالألم. أوه، لو أن المرء يستطيع فقط أن يقول بيقين إنه لم يكن حلمًا.

"أغلق النافذة يا تومي؛ الجو بارد".

صوتها الآن يصر كباب صدئ. سجل التغيير. لقد كان يدرسها لفترة طويلة: الأصابع المتشابكة، والوجنتان الممتلئتان ذات يوم ترهلتا، والأخاديد العميقة تفصلها عن الذقن، والرقبة النحيلة متجعدة بشكل مضاعف. أدارت وجهها نحوه، وعيناها، كالعادة، مشتتتان جزئيًا بشيء ما.

حفيدها. دم جيد أم سيء؟ هل ورث رجولة "آرثر"، وشغفه — أم خوفها هي من كل ما يهاجمنا على هذه الأرض؟ أم أن لديه دم أولئك — المتوحشين؟ كان خطأها أن "ثيودور" لم يكن مثل والده، وأنه كان لينًا وحتى ضعيفًا. كانت مسؤولة أيضًا عن "قسطنطين". إذا كان الصبي يشبهها، فقد يصبح جيدًا مثل "قسطنطين."

"أعاد شاتيبيلكو رسالة. انظر يا توماس، ها هي".

على زاوية واحدة من طاولة الدواء كانت هناك عدة أوراق من أدوات الكتابة، تخفي جزئيًا ظرفًا. كان خط اليد المائل، المتشنج، غير المقروء تقريبًا يخص والده. الخط الآخر، الذي كُتبت فيه بعض الحروف بشكل مضاعف، كما لو كان لضمان وضوحها، كان خط والدته.
"تكتب أمي أنها ستعود إلى المنزل قريبًا، في غضون بضعة أشهر على الأكثر".
"من أي طريق ستأتي؟"
"كل شيء مخطط له. أنت تعلم أن الحدود مغلقة، لا توجد طريقة للعبور بشكل قانوني. لكنها تكتب أنها تعرف بلدة صغيرة يسهل العبور منها".
"هل سنعود بنفس الطريقة، أم عن طريق ريغا؟"
بحثت جدته عن حبات مسبحتها. انحنى والتقطها من على الأرض.
"ستذهبان أنتما الاثنان. هذا كل ما يهمني".
"لماذا تقولين مثل هذه الأشياء يا جدتي؟" سرًا لم يسجل أي عاطفة، ولام نفسه على ذلك.
لم تقل شيئًا في الرد. وهي تئن، حاولت أن تنهض في السرير. انحنى وساعدها، وكتفاها المنحدران ملفوفان في سترة صباحية من قماش الفوستيان، وشريط من التجاعيد يمتد من مؤخرة عنقها إلى تحت شحمة أذنها.
"هذه الوسائد. انظر كيف تغوص. ربما يمكنك أن تسويها قليلاً".
كان شفقة توماس ناقصة إلى حد ما؛ تمنى لو كان بإمكانه أن يكون أكثر صدقًا، لكن ذلك كان سيعني إجبار نفسه، وقد تألم من هذا العجز عن الشعور بعاطفة حقيقية. في تلك اللحظة، بدت

جدته أقل... إزعاجًا من المعتاد، لسبب لم يعرفه ـــ أكثر انفتاحًا، ربما، خالية من براعتها المعتادة.

"الكثير من العندليب هذا العام ـــ أليس كذلك يا توماس؟"

"الكثير يا جدتي".

وبينما بدأت تتلمس حبات مسبحتها، لم يستطع أن يقرر ما إذا كان سيغادر أم سيبقى.

"مع كل القطط الموجودة"، قالت أخيرًا، "من العجب أن الطيور لا تخاف من الغناء".

من قال إنه لا يوجد شهود؟ العشب المورق، المداس تحت الأقدام، لم يتعافَ بعد بينما كانت الأقدام المنتعلة تدوس على المزيد من الأعشاب الضارة، وحفيف السيقان الخشنة على السيقان الجلدية، وطائر سمن خائف استأنف صيد اليرقات. كان زوجان يجلسان في قاع حفرة صغيرة ذات جدران مورقة، تحت سماء من الغيوم المنجرفة. ذراع داكنة كانت ملفوفة حول كتفين مغطيين ببلوزة بيضاء. نملة، مثقلة فجأة، كانت تحاول تحرير نفسها من عبئها غير المرغوب فيه.

كان هذا هو الوقت الذي كانت فيه أغنية الوقواق تتلاشى أكثر فأكثر في الضحك، قبل أن تسقط في صمت حتى الربيع التالي. ولكن لم يكن أحد يعد الزقزقات الآن ـــ عددها الذي كان نذيرًا بعدد السنوات المتبقية للشخص على قيد الحياة. سُمع همس على الأرضية الخضراء في الأسفل، مع قرقعة المهاميز الناعمة.

وهو يخطو بخفة، اقترب الساحر "ماسيوليس"، وحقيبة صغيرة من القماش، تُستخدم لجمع الأعشاب، معلقة على كتفه. وهو ينحني، وضع عصاه وحفر جذر نبتة بسكينه. صوت صوت بشري. اتخذ بضع خطوات، وفرق الستارة المورقة، ودون أن يلاحظه أحد، ضيق عينيه بسخرية. إيماءة المرأة... ـــ لقد أمسك بها للتو وهي تسوي فستانها ـــ قالت إن ما حدث لم يحدث أبدًا. الفعل مقطوع بشكل لا رجعة فيه، بدأت تتحدث عن أمور دنيوية، مرتاحة إلى حد ما، كأنها عادت للتو من مغامرات واجهتها في مملكة الليل. ترك الساحر الأغصان، وشق طريقه عائدًا إلى حافة الغابة، وجلس، وأشعل غليونه.

لم يكن "ماسيوليس" خاليًا من أهوائه. حكمته، على حد علم المرء، كانت من النوع الذي يغذيه السخرية والاحتقار. احتقار الطبيعة البشرية بشكل عام، وخاصة طبيعته هو. ألم يكن هو من أخبر أحدهم (لأي سبب، كان من الصعب القول): "الإنسان مثل خروف. ولكن فوق هذا الخروف بنى الله خروفًا آخر، هذا من الهواء، والخروف الحي لا يريد أبدًا أن يكون نفسه بل الآخر"؟ احتوت هذه

الحكاية على سر سحر "ماسيوليس" بأكمله. بالنظر إلى مثل هذه الرؤية للطبيعة البشرية، لم يكن هناك ما هو طبيعي أكثر من الرغبة في مساعدة تلك الخراف التي لا تستطيع أن تدعم نفسها في الهواء.

لم يكن هناك سبب لـ"ماسيوليس" أن يفكر بلطف في الزوجين في الغابة. رؤية أي زوجين كانت تسيء إليه بطريقة ما ــــ كيف كانا ينأيان بنفسيهما عن الآخرين، والهواء المميز الذي يتخذانه... ليس مسيئًا بقدر ما هو مسل، لدرجة إثارة سخريته، لنفس السبب الذي يلقي به الناس العصي على الكلاب لجعلها مشهدًا عامًا لشهوتها: ألسنتها المتدلية ونظراتها المليئة بالحب تنقل تهورًا، وتجاهلاً لمعرضها السخيف، لكل شيء سوى تذوق متعتها، التي تبدو وكأنها تُمنح لها فقط. "إيه، أيتها العجوز"، تذمر "ماسيوليس"، وقد أثار غضبه إيماءة "هيلين" المتواضعة.

بعد عدة أيام، بالصدفة، جاءت "بارباركا" لزيارة "ماسيوليس" طلبًا للمشورة، حيث لم يكن هناك من تلجأ إليه طلبًا للمشورة والدواء. على الأقل لم يسأل "ماسيوليس"، كما فعل الكاهن في كرسي الاعتراف، "كم مرة يا ابنتي؟" لكي نكون منصفين، الأب "مونكيفيتش"، بعد سماع اعترافات أبناء رعيته، لم يطلب منهم سوى توبة صادقة. التوبة تعني التوسل إلى الله أن يأخذ علمًا برغبتنا الشديدة في التخلص من كل رغبة خاطئة ــــ بحيث يكون رحيمًا بنا في المرة القادمة. بما أنه كلي العلم، فمن المؤكد أنه يرى أننا ملائكة، وأننا نستسلم لإغراءات الجسد ضد إرادتنا، دون موافقتنا، حتى مع الحزن على أننا خلقنا هكذا وليس غير ذلك. ما كادت تخرج من كرسي الاعتراف، ما كادت ترتاح من عبء واحد، حتى عرفت "بارباركا"، كما عرف كل من ذهبوا للاعتراف، أنها مستعدة لتحمل عبء آخر.

كانت هناك علاجات عريقة للتعامل مع معضلة "باربارك". كان يكفي، على سبيل المثال، إضافة جزء من دم الحيض إلى طعام الرجل لجعله يشعر بأنه مقيد بخيوط غير مرئية. لكن إما أن هذا العلاج قد خذلها أو أنها ببساطة استولت عليها رغبة في الاعتراف لشخص ما. الساحر، وهو يستقبلها بحرارة، تحدث مطولاً، حتى سقطت دموعها واحدة تلو الأخرى على أصابعها. كانت دموع ندم، ولكنها كانت أيضًا دموع خزي. لأنه لو علم "روموالد" بمجيئها، لكان قد ضربها، وبحق. لأن "ماسيوليس" كان يحرضها ضده ــــ حقده المتقيح على البولندي تفاقم بسبب الزوجين في الغابة. وبدلاً من إعطائها جرعة من عشبة الحب ــــ العلاج الموصوف، وهو مستخلص سائل يُضاف إلى طعام الرجل بجرعات

صغيرة — نصحها بالتوقف عن إهدار سحرها على شيخ فاسق، على ذلك الخائن من النبلاء الذي لم تكن عيناه إلا للسيدات.

وعيناها منتفختان، شقت "بارباركا" طريقها إلى المنزل. مكثت لبعض الوقت على درب الغابة، تمحو بتمهل آثار الخيل بقدمها العارية. "إيه، ماذا يعرف؟" هل عرف "روموالد"؟ ليس كما عرفته هي. عجوز؟ ولكن أي رجل في سنه...؟ وهي تجعد إصبع قدمها الكبير، غرفت الرمل والإبر. لا، كان يجب أن يتم الأمر بطريقتها.

كانت "بارباركا" تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا. رفرفت تنورتها ولامست فخذيها وخطواتها اكتسبت تدريجيًا ثقة. تبخترت الآن ورأسها مرفوع، وشفتاها مقبوضتان في ابتسامة ثقة. في المكان الذي ظهرت فيه مباني المزرعة، توقفت ومسحت أسطح المنازل، ورافعة البئر، والبستان، كما لو كانت تلاحظها جميعًا لأول مرة.

طريقتها. ولكن كيف؟ أعطها الوقت، ستأتي. في الوقت الحالي، كان يكفي أن لديها في رأسها الخطوط العريضة الغامضة لقرار. لا شيء مثل بكاء جيد لتغيير نظرة المرء إلى الأمور، لجعل المرء يرى مغالطة الخضوع بتواضع لمصير المرء. مغادرة "بوركوني"؟ أبدًا.

لم تكن زيارتها للساحر عبثًا، على الرغم من أن آثارها لم تكن بالضبط تلك التي توقعها "ماسيوليس". لقد استسلم لأهوائه، التي لم تكن مفيدة إلا عندما عززت الحكمة، وليس عندما تولت القيادة. لا، لقد تصرف بما يتعارض مع مهنته.

وقف "روموالد" أمام الحظيرة، يصلح المحراث بمطرقة. في المطبخ، غرفت "بارباركا" بعض الماء من دلو، ومسحت وجهها، ونظرت في المرآة. يجب ألا يظهر. مكر امرأة — نعم، ولكن دون وعي. ولعقت شفتيها لتجعلهما تبدوان أقل تشققًا.

"لوك يوتشنيفيتش"، رجل يسهل عليه العبوس كما يسهل عليه الابتهاج، جلس ينتحب على أحد طرفي الأريكة. "ولكن يا لوكي" — حاولت الجدة "ميسيا" مواساته — "ربما لن تُقسم الأرض. لم يحدث شيء بعد، أليس كذلك؟"
"ليس بعد، ولكن سيحدث"، أنين. "إنه أمر مؤكد الآن. سيجعلنا المحتالون متسولين." مسح عينيه بظهر يده. "ماذا سيحل بنا على أي حال؟"

كان من الصعب مناقضته؛ كانت عزبة "يوتشنيفيتش" واحدة من تلك التي كان من المقرر إعادة توزيعها بموجب قانون الإصلاح الزراعي. جلست العمة "هيلين" بجانبه، ونظرتها ضبابية باستسلام معتدل. الجد، جالسًا مقابلهم، نحنح. "ستنتقلان للعيش معنا، بالطبع. سيكون أفضل في جميع النواحي. يمكنك مساعدتنا في إدارة المزرعة، ويمكن لـ"هيلين" أن تقيم هنا".

"تخيل أن "جوزيف" يصبح مخبرًا"، تنهدت "هيلين."

"الحقير. حذرتك، أليس كذلك؟ هذا جزاء ليتوانييكم!" التفتت الجدة إلى زوجها وقالت، مقلدة إياه: "إنهم لطفاء ومخلصون وأبرياء جدًا. اترك الأمر لي، سأعلمهم درسًا ـــ بالسوط، بالسوط"!

تململ الجد بأزرار أكمامه، وهو شيء كان يفعله عندما يشعر بعدم الارتياح. "أعطاني المسؤول كلمته. لن يسبب لنا "جوزيف" أي مشكلة، طالما أننا نواصل رشوة أيديهم".

"إذا سألتني"، قالت "هيلين"، "يجب أن ننتقل إلى الكوخ. وبهذه الطريقة سيرون أبي في ممتلكاته وأنا في ممتلكاتي"، قالت، مع التركيز بشكل غير لائق على كلمة "ممتلكاتي". "المنزل هو المنزل، بعد كل شيء".

رفع توماس نظره من كتابه واستمع حتى اندمجت الأصوات فجأة في ثرثرة لا معنى لها. كان جالسًا على الأريكة، وقد دفأ حفرة صغيرة في المفروشات الجلدية الباردة. كانت نافذة غرفة الطعام تزقزق بالعصافير المتشبثة بالكرمة البرية التي لفت أوتارها حول إطار النافذة. وقفت أوراق الصبار على المرج منتصبة، برونزية من شمس ما بعد الظهيرة.

"الشيء المسكين"، قالت الجدة ساخرة، "لن ينجو أبدًا. أوغ، يا له من أحمق قذر، لا فائدة منه، صانع خمر، مهرب، أحمق مخمور لعين. إلى جانب ذلك، هو سمين جدًا لدرجة أنه مقرف. تخلص منه، أقول"!

"حسنًا، حسنًا... همم... لقد بنى لنفسه منزلاً"، قال الجد دفاعًا عن "بالتازار". "وهو يعتني بالغابة. لا، لا، هذه ليست الطريقة لمعاملة رجل".

"رجل! لكنه ليس رجلاً عاديًا ـــ إنه حبيبنا "بالتازار"، قرة أعيننا، أغلى من ابنتنا"!

"لا سمح الله"، قالت "هيلين"، رافعة يديها في رعب. "لن أحلم أبدًا بإيذاء أي شخص. لماذا، يمكن إسكانه في القصر؛ "شاتيبيلكو" يكبر، ويمكنه المساعدة في المزرعة. أو ماذا عن أحد الأكواخ في الكومونة؟"

رفع توماس أذنيه، فضوليًا ليرى كيف سيرد الجد.
"نعم، هذا احتمال"، اعترف. "إنه منطقي حتى. فقط كما ترى، هيلين... همم... بالطريقة التي تسير بها الأمور، إذا أسأت إليهم، أغضبتهم... أعني، إنها مجرد مسألة الحصول على الموافقة على التقسيمات... لا، الآن ليس الوقت المناسب لكسب الأعداء. وهو يعرف الغابة... كما هو، لدينا ما يكفي من المتاعب مع "جوزيف"."

رؤية الخطر التي أثارها الجد كان لها تأثير مُسْكِت على النساء. أمسك "لوك" برأسه. "يا لها من أوقات فظيعة نعيش فيها! لا تثيروهم، عاملوهم بقفازات من حرير... أوه، في أعماقي أشعر بالمرض الشديد".
"لوكي المسكين. كان بإمكانه استخدام بعض القطرات." اقتراح الجدة لم يلقَ اهتمامًا من "هيلين." بالنسبة لتوماس، كان "لوك" لغزًا، رجلاً لا يتصرف كأي من الكبار الآخرين ومجرد رؤيته كانت كافية لإثارة ضحكة مكتومة. لكن لم يضحك أحد قط، وهذا جعل توماس يشك في غرائزه الخاصة. من ناحية أخرى، كان "لوك" شخصًا يرتدي سروالاً طويلاً، متزوجًا من "هيلين"، ويعرف متى وأين يزرع ويحصد. اشتبه توماس في أنه خلف الوجه الشبيه بالمطاط —— وجه يمكن أن يتمدد بالتناوب من فرط التعاطف ويتقلص في أوقات اليأس —— كان هناك "لوك" الحقيقي، رجل ليس بنصف الغباء الذي يبدو عليه. ومع ذلك لم يجد أي دليل على ذلك الآخر، "لوك" الأكثر ذكاءً. ومع ذلك، كان لا بد أن يكون فيه أكثر من ذلك. اضطر توماس إلى استنتاج أنه كان رجلاً ماكرًا للغاية، وأنه كان يتظاهر فقط. حتى طريقة لباسه كانت مختلفة، داعمة للدور الكوميدي الذي تبناه: كان يرتدي زوجًا من السراويل المربعة الضيقة، وأشرطة تحت نعال حذائه، وقبعة مطابقة لتلك القبعات التي تعود إلى ما قبل الحرب، والتي، مرشوشة بالنفثالين، كانت مخزنة في صندوق ضخم في العلية.

كانت العمة "هيلين" دائمًا ودودة ولكن، كما لم يستطع توماس إلا أن يلاحظ، متعالية أيضًا تجاه زوجها. كان لدى "لوك" موهبة في عدم التطوع برأيه أبدًا حول أي شيء.
"حسنًا، غرفة واحدة ستفي بالغرض. مجرد غرفة صغيرة واحدة. كافية لكي يراها المسؤولون —— " كانت "هيلين" هي التي تتحدث الآن.
تذمرت الجدة باشمئزاز. "هيلين، كيف يمكنك؟ وحيدة في الغابة، تحت رحمة ذلك... ذلك الأحمق؟ أوغ"!

"حسنًا، لن يكون الأمر إلى الأبد، فقط مرة كل بضعة أيام، بما يكفي لانتشار الخبر بأن آل يوتشنيفيتش يديرون مزرعتهم الخاصة. لن يكون ذلك طلبًا كبيرًا جدًا، أليس كذلك يا أبي؟" "همم، أفترض أنني يمكنني أن أتحدث معه. لا ضرر من التحدث معه، على ما أعتقد"، أجاب الجد بشكل مراوغ.

عاد توماس إلى كتابه، لكنه سرعان ما تشتت انتباهه عندما وجه الكبار حقدهم على "جوزيف". كان شوفينيًا، متعصبًا؛ كان سيقتل لو استطاع؛ كان من النوع الماكر؛ لقد أُغرق بالخشب لتعليم الصبي القليل من الحساب، وبكثير من النعم الأخرى. التزم الجد الصمت، ولم ينطق بكلمة خجولة إلا بعد توقف طويل: "إذا نظرت إلى الأمر من وجهة نظره، فقد يكون — حسنًا — مبررًا". شبكت الجدة "ميسيا" يديها ورفعت عينيها إلى السقف، داعية السماء كشاهدة لها. "أوه، يا رب"!

كان اليوم على الأبواب. في "بوركوني"، قرروا الابتعاد عن مياه الفيضانات حول "جونيسكياي": كان المكان كثيفًا جدًا بالرايات الحلوة لدرجة أنه يكاد يكون غير صالح للملاحة بالقوارب، ومزدحمًا جدًا بالفلاحين المحليين خلال موسم الافتتاح ليكون معرضًا للرماية. وقع اختيارهم على بحيرة "ألونتا"، بعيدة قليلاً عن الطريق، ولكنها تستحق قطع المسافة الإضافية. "انتظر حتى ترى كل البط يا تومي!" الأسلحة: كان توماس سيستخدم بندقية "فيكتور" البردان؛ "فيكتور"، البندقية ذات الفوهة. مع البندقية ذات الفوهة ذهبت حقيبة مليئة بالملحقات: مسحوق في كيس واحد، وطلقات في آخر، وكبسولات إشعال في ثالث، إلى جانب إمدادات جيدة من القنب. لتحميلها: مقياس مسحوق قاس الكمية المناسبة في الماسورة، واستُخدم مدك خشبي طويل لدفع القنب؛ ثم جاءت الطلقات وحشوة أخرى من القنب. كان فك تعشيق البردان صعبًا، لكن توماس سرعان ما أتقن الأمر، ضاغطًا على الزناد بإصبعه السبابة، ومنزلاً المطرقة برفق بإبهامه. لكن البندقية ذات الفوهة كانت أصعب؛ كانت رؤية الغطاء المستدير الصغير المكشوف كافية لإثارة رؤى المطرقة وهي تنزلق وتطلق النار.

تم وزن اختيار الكلاب بعناية. تُرك "كارو" خلفه؛ كان صيد البط سيئًا للمؤشرات، ويدمر وقفتها. لم يكن "دوناي" موثوقًا به بسبب طيشه؛ في أي لحظة، كان يمكن أن ينطلق إلى الأحراش. كانت "لوتنيا" خارج الخدمة أيضًا — لا تحدي في الأمر؛ إلى جانب ذلك، كانت حاملاً. بقي "زاجراي" — "زاجراي" الجاد، المنهجي — لطرد البط.

عربة ذات رفوف، مليئة بالقش، وعلى متنها "روموالد"، وتوماس، و"دينيس"، و"فيكتور"، و"زاجراي". سوط يقرقع، وغبار يتصاعد من خلف العجلات، وتوماس مستلقٍ على ظهره، يراقب تراجع الصخور والأشجار وأسوار المستوطنات. صفر "روموالد"، وصفر توماس معه؛ كانوا يسافرون، والمعنويات عالية. بعد نصف ساعة، فُتح كيس الطعام، ومُررت الكيلباسا، وكان هناك الكثير من القضم والمضغ والاهتزاز مع المطبات.

كانت الخطة هي الوصول إلى هناك قبل حلول الظلام، وقضاء الليلة، والتوجه إلى الماء عند الفجر. هل سيتمكنون من الحصول على قارب، تساءل توماس. ما الذي يقلقك؛ قرية على بحيرة لا بد أن يكون لها نصيبها من القوارب والزوارق.

تلوح المياه في الأفق، زرقاء-حمراء من وهج الغرب. سلكوا الضفة العالية، والبحيرة محددة بوضوح في الأسفل. بيضاوية الشكل، أحد طرفيها مدبب بحدة؛ الشاطئ القريب يحده مروج التلال؛ الشاطئ البعيد، بدءًا من منتصف الطريق تقريبًا حول البيضاوي، بكتلة سوداء هنا وهناك، مرسومة على خلفية السماء، تقف ريشة صنوبر عمودية. هناك كانت المستنقعات الكبيرة التي سيصطادون فيها. على جانب الطريق، على تلة مستديرة جدًا لدرجة أنها كان يمكن أن تكون من صنع الإنسان، مروا بأنقاض قلعة، ثم انحدروا إلى الممر المسور الذي كان مدخل قرية "ألونتا."

في الكوخ، أكلوا اللبن الرائب من أوعية فخارية ضخمة. لاحقًا، عند الشفق، تسلق توماس منحدر القلعة. قمر كامل كان يرتفع؛ زقزقت الصراصير في العشب الصامت، الذي لا يزال دافئًا من شمس الظهيرة. تلألأت أمواج صغيرة عند قدميه، تشبه القشور. لمست يده ألواحًا من الصخر ــــ بقايا جدار القلعة. هل من هنا ألقت بنفسها إلى حتفها، تساءل.

لأن "روموالد" كان قد أدخله في تقاليد القلعة ــــ كيف بعد غزوها من قبل الفرسان التوتونيين، اختارت الكاهنة الوثنية الموت بدلاً من الاستسلام. كانت لديه رؤى لشخصية امرأة، وذراعاها ممدودتان، وهي تنتحب، وعباءة بيضاء ترفرف. ثم نفس المشهد، ولكن في نسخة مختلفة قليلاً: نزول بطيء، خصر مشدود بقطعة قماش، رأس متوج بإكليل أخضر، وصوت امرأة يتلو أناشيد لإلهها، وجسد، يتقوس تدريجيًا فوق الشاطئ. روحها ــــ أين كانت الآن؟ هل لُعنت لرفضها المعمودية؟ كان الفرسان أعداء؛ لقد أحرقوا وقتلوا ونهبوا باسم المسيح ومنحوا المعمودية كحماية من الجحيم. ربما لم تسكن روحها لا الجنة ولا الجحيم بل هذه الأنقاض... حفيف شيء خلفه؛ ارتجف. فأر ميدان،

على الأرجح. وعلى الرغم من أنه جاء بحثًا عن بعض الإثارة، إلا أنه انطلق عائدًا إلى المنحدر، ملتجئًا بين أسطح الأكواخ، وأصوات البشر، والأبقار، والدجاج.

"زاجراي"، ملتفًا بجانبهم في القش، تنهد في نومه؛ توماس، لكونه الأخف وزنًا، ظل ينزلق إلى الحفرة التي حفرها "فيكتور" في القش. جاء أحدهم يزحف على السلم وبدأ يخطو فوقهم. "من هذا؟" سأل "روموالد". "صديق"، جاء الرد. ثم صمت، وغفا توماس وعيناه مثبتتان على نجمة تطل من خلال شق في سقف الحظيرة.

عندما تستيقظ في القش، تجد نفسك دائمًا قد تحركت. استيقظ توماس ليجد نفسه قريبًا بشكل خطير من حافة العلية، و"فيكتور" الشاخر، الذي يصدر أزيزًا، لم يعد بجانبه بل ملتفًا عند قدميه. كانت بطانيته غير المشغولة ملقاة مجعدة ومكومة في الفجر الرمادي، و"روموالد" و"دينيس" مدفونين في القش، و"زاجراي" ممددًا فوقهم. تثاءب توماس بيأس، وكان على وشك إيقاظ الآخرين، عندما صرير باب الحظيرة، كان هناك هبة من الضوء، من الهواء البارد، وصوت من الأسفل: "السيد بوكوفسكي! حان وقت النهوض"!

جمعوا معداتهم على مقعد أمام الكوخ. ربط "روموالد" و"دينيس" أحزمة خراطيشهما بينما حشا توماس جيوبه بطلقات البنادق، وتناول القليل من الحليب حتى لا يوقظ النساء من نومهن يوم الأحد. مضيفهم وابنه، اللذان كانا سيرافقانهما، وسراويلهما ملفوفة تقريبًا حتى ربلة الساق، أنزلا الأعمدة والمجاذيف من خطافات تحت الأفاريز.

كانت البحيرة مغطاة بخيوط ضباب متعرجة. من أعلى على المسار الحاد، لمحوا القوارب، أحد طرفيها على الشاطئ، والآخر في ضباب يكشف هنا وهناك عن نعومة لا تشوبها شائبة، وداخلها المضلع يبدو مشلولاً إلى الأبد. بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى القوارب، كانت بقع الماء تتلألأ بالفعل مع السماء.

الواجبات والملذات لا تُقسم أبدًا بالتساوي. الذكر، ذو الريش الوسيم، يفضل العزلة على ملل الجلوس على البيض ورعاية الصغار. البطة إما أن تعشش خلال أفضل أشهر السنة ـــ مايو ويونيو ويوليو ـــ أو تتبع سلسلة من المخلوقات النائقة، وحرية حركتها مقيدة دائمًا بآخر حلقة، غير رشيقة، في السلسلة. أول وأكثر تمرين إلحاحًا يُعلم للصغار هو فن الاختباء تحت أوراق زنابق الماء، مغمورين تمامًا باستثناء أطراف مناقيرهم. بعد ذلك يأتي الطيران، والجزء الأصعب ليس الرفرفة بقدر ما هو

الانطلاق. يستغرقون وقتًا طويلاً في إتقانه ـــ يضربون الهواء، ويركلون رذاذًا، ويجهدون للطيران، لكنهم لا يحققونه أبدًا... افتتاح موسم الصيد يجدهم دائمًا في هذه المرحلة الأخيرة.

كانت القوارب تفوح منها رائحة القطران. في أحدها جلس توماس، جاثمًا في المقدمة، و"روموالد" والكلب خلفه، ثم دليلهم، ينقل المجداف بإيقاع من يد إلى أخرى. انزلقوا، دافعين أعمق في منطقة عذراء، والأمواج المتموجة تلطم الجانبين. القارب الآخر، مع رؤوس الرجال، تلوح من الضباب الشبيه بالوميض كما لو كانت معلقة. كانوا يتجهون مباشرة إلى الشاطئ المقابل. بمجرد أن ميزوا الأشكال الهزيلة للبردي، وضع دليلهم مجدافه، وتحول إلى العمود، وكل دفعة على القاع تدفع جسده إلى الأمام.

سرب من البط: مدينة عائمة، تركيز من اللطخات ملفوفة في الضباب. زاد القارب من سرعته، قاطعًا طريق هروبهم إلى القصب؛ البط الصغير، مصطفًا خلف أمه، انطلق في ذعر، وصرخاته الحادة تدل على العجز واليأس. ضاحكًا، صرخ "روموالد": "ثابت، وإلا ستستحم." استعد توماس في المقدمة، مستعدًا لإطلاق النار. كانوا على وشك أن يكونوا بجانبهم عندما أقلعت البط؛ كان هناك جنون من الرفرفة، ورذاذ الماء. أطلق توماس النار أولاً ـــ بانغ ـــ ثم "روموالد" ـــ بانغ، بانغ ـــ أُمطر السطح بالطلقات، تاركًا بركًا دائرية صغيرة، إلى جانب ثلاثة أشكال مستطيلة، جامدة، ورابع، يدور في مكان واحد.

من الصعب أن تشرح لشخص لم يفعل ذلك قط كيف هو شعور استعادة بطة قتلتها بيدك. إما أن تجرد ملابسك وتسبح من الشاطئ، وفي هذه الحالة سيرتفع الطائر إلى مستوى العين على موجة اقترابك؛ أو تناور بقاربك بجانبه وتمد ذراعك. في كلتا الحالتين، الفترة الفاصلة بين رؤيته عن قرب ولمسه هي التي تهم. في البداية ليس أكثر من شيء عائم تنجذب إليه بالفضول. عندما تلمسه، يصبح طائرًا ميتًا. ولكن في اللحظة التي يقع فيها في متناول اليد، على بعد ذراع بالكاد، عندما يطفو بطنه المرقط صعودًا وهبوطًا في الماء، هناك دائمًا وعد بمفاجأة. لأننا لا نعرف أبدًا من قد نكون قد قتلنا ـــ بطة-فيلسوف ربما، أو بطة-مستكشف ـــ ونتوقع نصف توقع، دون أن نصدق ذلك بجدية، أننا سنجد يوميات عليه. ومع الطيور المائية هناك دائمًا الأمل، نادرًا ما يُكافأ ولكنه يحدث أحيانًا، في العثور على بطاقة تعريف، منقوشة بأرقام وعلامات محطة أبحاث تقع في أرض بعيدة.

التقطوا البطات الأربع، وتجاوزوا القصب على طول الشاطئ، وبحثوا في الخلجان. لمح توماس بطة تحت تشابك من السيقان وأطلق النار: كان هناك رفرفة أجنحة، طائر مقلوب. "إصابة جيدة!" أثنى عليه "روموالد". في تلك اللحظة كان هناك صخب أجنحة على الماء؛ عمود من الطيور، كلها متقدمة جدًا في الطيران، ارتفع إلى الأعلى، وأسقط "روموالد" اثنين بطلقة واحدة. رد "دينيس" و"فيكتور" بوابل قريب.

كان الخط الساحلي الذي يفصل الأرض عن الماء ضبابيًا بسبب غطاء من العشب المتشابك. أطلقوا "زاجراي". وهو يغطس مع كل خطوة، نصف يخطو ونصف يجدف، اندفع إلى الأمام بعزم، ينبح طوال الطريق. هرعت البطات الأصغر كالفئران في جميع الاتجاهات، ولكن بسرعة لدرجة أنه بالكاد كان هناك وقت للتصويب. احتكت نباتات البردي بهيكل القارب بينما دفعهم دليلهم إلى فسحة تعج بجذور النباتات. في إحدى هذه البحيرات الصغيرة حدث ذلك. بينما كان يبحث عن هدف جديد، اكتشف توماس ـــ تحية لحدة بصره ـــ أن ما بدا وكأنه انتفاخ طفيف في وسادة كان رأس طائر. كشف وجوده عدم القدرة على البقاء ساكنًا. والبندقية بالفعل على كتفه، قرر منحه مهلة: كيف يمكنه أن يطلق النار على شيء خائف حتى الموت، واثق جدًا من تمويهه؟ بعدم قتله، افترض أنه يتمتع بسلطة أكبر عليه مما لو كان قد قتله. لاحقًا، بينما كانوا يشقون طريقهم للخروج من المستنقعات، يسحبون السيقان لمساعدة المجدف، عزى نفسه بفكرة أن الطائر لا يزال هناك، حيًا؛ وأنه لن يعرف أبدًا أن حياته قد أُنقذت من قبل رجل، ولن يعرف أبدًا أنه فكر في الأمر؛ وأنه حسب ما كان يمكن أن يفعله ولكنه أراد خلاف ذلك. منذ ذلك اليوم، ارتبطا بعهد إلى الأبد.

تخلى توماس عن إطلاق النار على البط في الطيران، بعد أن حاول مرة وفشل فشلاً ذريعًا. ومع ذلك، تعجب من "روموالد"، الذي كان تصويبه دقيقًا لدرجة أنه حتى اهتزاز القارب لم يستطع إزعاجه. خاصة مع طيور الشرشير. سريعة جدًا لدرجة أنها تجعل الهواء يصفر، كانت أصغر بكثير من البط البري؛ لكن "روموالد" لم يخطئ أبدًا ـــ ثلاثة منها كانت ممددة بالفعل تحت مقعد المجدف.

"كيف حالكم يا رفاق؟" سأل "روموالد" الأخوين "بوكوفسكي". بدأ "فيكتور" يتلعثم، بينما كان "دينيس" يمزح على حساب شقيقه. "يا إلهي، بحلول الوقت الذي كان قد حمّل فيه، كان بإمكانهما أن يعششا على رأسه!" شعر توماس بوخزة من عدم الارتياح لأنه حرم "فيكتور" من بندقيته البردان.

نسيم خفيف جعد البحيرة، التي تطابقت الآن تمامًا مع لون السماء. جرس في القرية كان يعلن قداس الأحد. صرخت طيور الخرشنة وهي تحلق حول أعمدة القناة البارزة من الماء بزاوية. صقر، يستهدف الغابة، رفرف بجناحيه بكسل تحت سحابة.

اقترح أدلاؤهم القيام بجولة عبر النهر. كان النهر يخرج من البحيرة خلف القلعة؛ قرية "ألونتا"، التي تعانق طرف الرأس، كانت محصورة بين القلعة القديمة على التل والنهر. عند مصب نفق يقطع القصب، طردوا بعض الطيور، التي رفرفت إلى الأعلى، كدوامة. أسقط "روموالد" واحدًا منها —— بطة صغيرة، أصغر الأنواع.

شبيهة بالبحيرة، محمية من الرياح والعواصف، ذكرت المنطقة بذلك الداخل الأفريقي حيث بنى توماس ذات مرة مستوطنات لا يمكن للبشر الوصول إليها. أعمدة سوداء بارزة، ملتحية بالطحالب التي يهزها التيار، حددت المكان الذي كان فيه جسر ذات يوم. أكواخ فلاحية... تحدها نباتات الرايات الحلوة؛ كانت آثار قواربهم التي رست على الشاطئ مرئية صعودًا وهبوطًا على الشاطئ. كانت هناك أشجار تفاح في كل حديقة، خلفية لشبكات الصيد والغسيل المعلقة لتجف. بطات وإوز بيضاء تتناثر بجانب الجسور الصغيرة حيث كان الغسيل يُغسل. بالنظر إليها من مثل هذا النهر الهادئ، اتخذت القرية أبعاد بلد أو مملكة، تفاصيلها تفلت من الملاحظة أو تُتجاهل على أنها مألوفة عند ملاحظتها من الشارع.

"فيكتور" و"دينيس"، وقاربهما الآن في المقدمة، طردا للتو بعض البط البري، لكنهما أمسكا نيرانهما —— بط بري أم أليف، لم يتمكنا من التأكد؛ أثار طيرانهما الأخرق ثلاث مواسير في آن واحد، مما أسفر عن مقتل أحد الطيور. انتهى الصيد، وعادا وأحصيا صيدهما. كان لدى "روموالد" وتوماس ثلاثة وعشرون بينهما، سبعة منها لتوماس. تفاخر الآخران بخمسة عشر، بما في ذلك بطة بيضاء العينين، وواحد من طيور الغواص، رمادي، برأس محمر ومنقار معقوف.

الآن يواجهان اتجاه القلعة على التل، ضيقا أعينهما من الوهج. تلألأت أنقاض القلعة في الضباب المضيء. الكاهنة الوثنية التي عاشت ذات يوم داخل تلك الجدران، والتي كانت لا تزال حاضرة جدًا في الليل، اختفت إلى الأبد، لتحل مكانها بين الأشباح والحكايات الخرافية. "زاجراي"، قلقًا فجأة، وضع كفيه على جانب القارب. استدار توماس وأمسكه من طوقه. وعقب بندقيته مسنودًا على الضفة والماسورة على صدره، كان له مظهر صياد. لكن بطته، التي تركها خلفه، كانت لا تزال تعانق

الشاطئ. ماذا كانت تفعل؟ تنظف ريشها؟ ترفرف بجناحيها وتصدر نقيقًا بفرح، الآن بعد أن زال الخطر؟ هل كان الله هو من قضى بأن تُنقذ حياتها؟ إذا كان قرار الله، فلا بد أنه همس لتوماس ألا يطلق النار. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا الشعور بأنه وحده كان حكم مصير الطائر؟

49

"صولي"، الشمس، تتجول في حلة بهية عبر السماء فوق الأرض حيث كل ما يحيا لا بد له من فناء. أولئك الذين يمنحونها قوى ذكورية لا يسببون إلا الحيرة. وجهها هو وجه أم الأرض. زمانها ليس زماننا، ومن أفعالها لا نعرف إلا ما يمكن لعقل فريسة رعب عزلته أن يفهمه. ثابتة في إيقاعاتها، لها مع ذلك تاريخها الخاص، كما يُروى في أغنية العصور القديمة. منذ زمن بعيد، خلال الربيع الأول، الذي لم يكن قبله سوى الفوضى، تزوجت من القمر، "مينو". عندما استيقظت في الصباح، كان زوجها قد رحل. خلال تجواله المنفرد، وقع في حب الفجر، "أوشرا". وعندما رأى ذلك "بيركوناس"، إله الرعد والبرق، شق القمر بسيفه. عقاب عادل، ربما، بما أن الفجر كانت ابنة الشمس بالولادة. ذكرى خضوع الفجر لتقدم زوج أمها قد تفسر انتقام "بيركوناس" لاحقًا. الأغاني، التي ألفها أولئك الذين حُفظت في ذاكرتهم هذه الأحداث، صامتة عن الأسباب، وتشهد فقط على أن "بيركوناس" في يوم زفاف الفجر مر عبر البوابة وضرب بلوطة خضراء، محطمًا إياها. تدفق الدم من البلوطة، ملطخًا فستان "أورورا" وإكليل عذريتها. بكت ابنة الشمس وسألت والدتها: "أين يا أمي العزيزة، سأغسل الدم؟" "اذهبي يا ابنتي العزيزة، إلى البحيرة التي يغذيها تسعة أنهار." "أين سأنشر فستاني ليجف؟" سألت "أورورا". "في الحديقة، يا ابنتي، حيث تتفتح تسع ورود." والسؤال الأخير، الأكثر إثارة للخوف على الإطلاق: "متى سأرتدي فستاني الأبيض في حفل الزفاف؟" "ليس حتى تشرق تسع شموس، يا ابنتي، سترتدينه".

من عادات وهموم أولئك الذين يتحركون في عوالم فوقنا، لا نعرف إلا القليل جدًا. حتى يومنا هذا لم يُحتفل بالزفاف قط، ولكن، إذن، مرور ألف عام لا يحتاج إلى أن يدوم أكثر من ثانية. ندين بالمعلومات التي لدينا لفتاة فقدت ذات مرة خروفًا — هذا في وقت كان فيه البشر لا يزالون على تواصل مع آلهة السماء. "ذهبت إلى أورورا"، غنت الفتاة، "وقالت أورورا: 'كل صباح يجب أن أشعل نارًا لصولي'" (ومن هنا الاعتقاد بأن أورورا غير متزوجة وتعيش في منزل والدتها). "ذهبت إلى نجمة المساء"، تابعت، راوية جهودها العقيمة، "التي قالت: 'في الليل يجب أن أرتب سرير صولي'". ورفض القمر

أيضًا مساعدتها: "انظر إلى وجهي البائس المقطوع إلى نصفين بسيف." (بفضل علامة من صولي أخيرًا، اكتشفت خروفها يثغو في الأفق، في مكان ما في المناطق القطبية شمال فنلندا).

هل كان الأب "مونكيفيتش" كوكبًا؟ بالنسبة لفراشة ترفرف فوق زهور النستورسيوم والريسيدا، كان بالتأكيد كذلك. منكسرًا في عيون الفراشة الكثيرة، من يدري أي سحر مارسته قمة تلك الصلعة اللامعة؟ عمر حشرة بضعة أيام فقط، ولكن من يقول إن وجودها الزائل لم يجد تعويضًا في نشوة الشكل واللون المحرومة علينا نحن البشر؟

الأب "مونكيفيتش". وتحت السطح: كدح الآلات الكوكبية، ودورة الدم، واهتزازات مليار عصب. كان هناك من اعتبروه لا يزيد عن نملة، ومن كان سيثير ضحكهم رؤية سرواله وشيء كان يوحي يومًا ما ببرنس حمام (لم يكن ثوبه الكهنوتي يُرتدى أبدًا في المنزل، توفيرًا للتآكل والتمزق). وكتاب الصلوات في يده، كان يتأرجح وهو يسير في الفناء، هذا الرجل الذي، لو لم تقرر والدته أن تعفي واحدًا على الأقل من أبنائها من حياة الفلاح، لربما كان الآن يلوح بمنجل. ظروف أكثر إلحاحًا من رغبته أو عدم رغبته قدرت له أن يصبح خادمًا مخلصًا للكنيسة. ومع ذلك كان هذا الرجل هو الذي كان يمارس واجباته اليومية بهدف طمأنة الناس بأنهم يساوون أكثر من جبل أو كوكب أو الكون نفسه. حُبل بهم في شهوة، كان الأطفال يرضعون ويبكون وهو يقدم لهم رشة الملح التي ترمز إلى حياة من المرارة؛ وبماء المعمودية منح ختم الكلمة، رافعًا منتجات الطبيعة هذه إلى مساكن للروح القدس. منذ تلك اللحظة، منتزعين من نظام الثابت، كان لهم ما يبرر رؤية أنفسهم في مواجهة الطبيعة. ولاحقًا، عندما يبدأ بيت الجسد في الانهيار والقلب في التباطؤ، كان الأب "مونكيفيتش" — أو شخص آخر يتمتع بنفس السلطة — يصف صلبانًا من الزيت على أطراف على وشك أن تتحول إلى تراب: وهكذا حُل العقد بين المادة والروح.

لم يكن كل وقت الأب "مونكيفيتش" مكرسًا للتأمل في واجباته. الآن، على سبيل المثال، كان يطارد فراشة من العشب لمراقبة طيرانها؛ ويعتني بنحلة تحوم فوق كأس زنبقة بيضاء؛ وبإصبع واحد عالق في كتاب صلاته، كان يفكر: "البخلاء!" نشأت الإهانة من ذكرى آخر تعميد. ضائقة مالية، هاه؟ قصة محتملة. وركل نفسه لأنه قبل بأقل مما هو معتاد.

خلع توماس قبعته وهو يضغط على مزلاج البوابة. وقف أمام الكاهن، مدركًا تمامًا لخطورة مهمته. كانت نبرة كلماته مهيبة ومأساوية بشكل مناسب. "إنها الجدة ديلبين يا أبي — حالتها

سيئة. قال الطبيب إنها لن تنجو".

"آه...!" تفوه الكاهن بالخبر. "حسنًا ـــ سأكون هناك في لحظة".

كان يتجه بالفعل نحو الدرج.

"لدي عربة مربوطة في الأسفل".

"حسنًا، حسنًا. انتظر هنا".

على الرغم من أن بيت القسيس كان عمليًا في الجوار، إلا أن إرسال العربة كان إلزاميًا. تعبير الجدة "ميسيا"، ومشاوراتها الهامسة مع الجد و"هيلين"، وسلوكهما المتغير في وجود ما لا يُنطق به ـــ ملأ توماس بالفخر، الفخر الذي جاء من المشاركة في أبهج حدث، وأكثره نضجًا على الإطلاق. ومع وجود جميع الأيدي في الحقول ـــ كان بداية موسم الحصاد ـــ وقعت مهمة إحضار الكاهن على عاتق توماس. على الرغم من أنه كان يعرف كيفية ربط حصان، إلا أن الأحزمة كانت دائمًا تتشابك، لذا كالعادة كان على الجد أن يمد له يد المساعدة. لم يكن هناك طريق عبر أسوار السويديين، مما يعني النزول من التل والمرور بالضريح ـــ اللجام مشدود، والأقدام مسنودة على المقدمة، والنزول تدريجيًا نحو المنعطف في الأسفل. بمجرد تجاوز الصليب، كان بإمكانك تخفيف اللجام ـــ أولاً، لأنه لم يكن هناك ما يوقف الخيول؛ وثانيًا، لأن العرف سمح بذلك.

وجود الجدة "ديلبين"، التي كانت ترقد بلا حراك في الظلام، أصغر حجمًا بطريقة ما، كان كافيًا لجعل توماس، المستهلك تمامًا بدوره كحفيد ورجل المنزل، يمشي على أطراف أصابعه. تصور رحلة العودة إلى المنزل: رنين الجرس، والوجوه التي تطل من خلف الأسوار، والرؤوس المنحنية بتقوى، وهو نفسه في مقعد السائق.

كان الأمر كما تخيله. صاح الكاهن على أقرب كوخ، وصعد صبي صغير على متنه، وجلس بجانب توماس في المقعد الأمامي، وهز الجرس. قاد توماس بحذر (يا لها من مسؤولية!)، ملقيًا نظرة خفية إلى اليسار واليمين. لسوء الحظ، كانت معظم المنازل تقف فارغة ـــ سكانها كانوا في الحقول ـــ ولم يلاحظ تقدمهم إلا رجل عجوز أو امرأة عجوز يخرجان من الفناء، حيث، وهم يرسمون علامة الصليب، ومرفقوهم مسنودون على السياج، تابعوا بأعينهم أهم مسافر على الإطلاق.

سحبت شمس الظهيرة الدافئة حبات من العرق على صلع الكاهن. لا الشمس ولا القمر ولا... الفجر كان ندًا للأب "مونكيفيتش". كان رجلاً، وإذا لم يكن ذلك كافيًا، كان هناك دائمًا الشيء الذي كان

يحمله في يديه لترجيح كفة الميزان، لأن الكواكب والنجوم لم تزن أكثر من الرمال على الطريق. كان قميصه الخشن ملطخًا تحت الإبطين وتنبعث منه رائحة حيوانية، ومع ذلك فمن خلال أمثاله سيتحقق الوعد: "يُزرع في فساد؛ ويُقام في عدم فساد: يُزرع في هوان؛ ويُقام في مجد: يُزرع في ضعف؛ ويُقام في قوة: يُزرع جسدًا طبيعيًا؛ ويُقام جسدًا روحيًا".

"رسالة!" صرخة بالكاد مسموعة من الظلام لم يخففها سوى صدع مضيء في المصراع.
"لا يا جدتي، لا توجد رسالة".

كان يكذب؛ كانت هناك رسالة على منضدة الجدة "سوركونت". كانت الرقابة قد بدأت منذ بعض الوقت ـــ وليس بدون سبب، كما تبين. تنصت توماس على المحادثات التي أثارتها هذه الرسالة الأخيرة التي تحمل طابعًا ألمانيًا وتصلهم عن طريق "كونيغسبيرغ" بدلاً من "لاتفيا". لا سمح الله أن تقع عيناها عليها! أكدت الرسالة، بألطف طريقة ممكنة، ما كتبته والدة توماس سرًا لوالديها. متهمًا باختلاس أموال الجيش، حُكم على "قسطنطين"، ومُنح تسريحًا غير مشرف، وكان يتقدم حاليًا لوظيفة شرطي. لا بد أن "ثيودور" لم يأخذ خبر مرض والدته على محمل الجد إذا كان بإمكانه أن يكون غير متحفظ إلى هذا الحد بشأن سوء سلوك شقيقه.

لم يكن الخبر ليُكشف أبدًا. لقد حدث وفي نفس الوقت لم يحدث، ولم يصل إلا إلى أولئك الذين كانوا يميلون إلى تجاهله باعتباره مجرد زلة أخرى. رصاصة قاتلة بما يكفي لاختراق قلب الإنسان، مدفونة إلى الأبد في الخشب.
"أنا أموت. استدعوا الكاهن".

كم مرة خلال مرضها قالت إنها تموت، مبالغة في كل ألم مثل أميرة الحكاية الخيالية التي اشتكت من وخز حبة بازلاء عبر سبع طبقات من لحاف الريش. وربما لمجرد أنها كانت طبيعية جدًا، مألوفة جدًا بشكل روتيني، فإن هذه التنهدات ـــ تنهدات الوسواس المرضي ـــ جلبت لها بالفعل بعض الراحة. كلما تمكنا من إظهار كلماتنا أننا نسيطر على زوالنا، كلما كنا على يقين من أنه لن يأتي أبدًا. "يا عزيزتي، ستعيشين أطول منا جميعًا"، سارعت الجدة "ميسيا" لطمأنتها. "لكن الكاهن لا يمكن أن يضر، أليس كذلك؟ لماذا، لو كنا قد أرسلنا في طلبه على الفور، لكنت الآن قد نهضت وتتجولين في الحديقة".

طمأنة. المرضى، الذين يرفضون قبول ما يعرفه العقل أنه حقيقي، ممتنون لصوت الكلام البشري، لتلك النبرة في الصوت التي تستبعد المرور إلى العالم حيث لا توجد أصوات. كان توماس منزعجًا بطريقة ما من أسلوب الجدة "ميسيا" السكري بجانب السرير. لماذا المبالغة إلى هذا الحد؟

في نفس ذلك اليوم، صعد الكاهن الدرجات المؤطرة بأعمدة الشرفة المغطاة بالكرمة. التغييرات التي أحدثتها الأربعون أو الخمسون عامًا منذ الطفولة لم تكن كافية لمحو فتى الماشية الريفي. قدماه، اللتان كانتا حافيتين الآن، حملتا ذات يوم الآثار الحمراء والزرقاء لصقيع الخريف. وهو يسند نفسه بعصاه، كان يتأمل، بنوع من الفضول الذي تثيره الحيوانات النادرة، موكب النبلاء الذين يصلون إما على ظهور الخيل أو في عربات متلألئة يقودها سائقون يرتدون الزي الرسمي. والآن، وهو يدخل الغرف منخفضة السقف، لم يكن كنائب للمسيح: كان يجر خلفه بيده الشخص الذي كان عليه ذات يوم، الشخص الخجول جدًا تقريبًا من عبور عتبة القصر. الاحترام الذي قُدم له لم يعفه من الخوف من الإذلال. لجأ، لذلك، إلى رداءه الكهنوتي وسرقته: لقد منحاه الدعم، وأضفيا هواءً من الكرامة على إيماءاته ـــ إذا كان شخصية سمينة على ساقين قصيرتين قادرة على أي كرامة.

ثم أُغلق الباب، ووجدت الجدة "ديلبين" نفسها وحدها مع الكاهن. على الرغم من تأكيدات "ميسيا" الكاذبة، إلا أنه كان لديها القليل من الأوهام الآن، ليس عندما نزل حفيف، وعندما تفرقت ضبابية الوجوه لتكشف عن وميض من الأبيض، وبريق بنفسجي. ذلك النذير بالنهاية، نهاية واضحة جدًا لأولئك الذين يصرون على العالم الخارجي، كان يسيطر تدريجيًا، كما يجب أن يحدث لنا جميعًا، على الرغم من أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الاعتراف بالحرمان من مجالنا الخاص، وأن الجميع يجب أن يخضعوا لما لا مفر منه: الشفرة التي تتحدى خيالنا.

"هل أنت مستعدة للاعتراف يا ابنتي؟"

"ابنتي": هكذا خاطب هذا الراعي الليتواني القرفصاء "برونيسلافا ريتر" من مدينة "ريغا" الهانزية.

"باسم الآب والابن والروح القدس. آمين. لا تقلقي يا ابنتي، فقط توبي عن خطاياك وسيكون الله راضيًا".

لكن "برونسيا ريتر" كانت تتجول في ضباب، تفرقه بيأس بيديها، تكافح نحو عالم من الوضوح لا يمكن بلوغه. "لقد أخطأت"، همست.

"أخطأت؟ كيف؟" قرب أذنه من شفتيها.
"لقد شككت في الله... في أنه موجود، في أنه يسمعني".
تشبثت أصابعها بكمه. "لقد أخطأت".
"استمري، أنا أستمع".
"لم أحب زوجي قط... أستغفر له".

التلمس من خلال الضباب كان صعبًا، صعبًا جدًا. ثم حفيف ناعم من الأوراق: "ابني... يجب أن أخبر"——

رفع الكاهن يده وقال بصوت عالٍ: "أنا أغفر لك". نزل القرص الأبيض للقربان المقدس في الضوء الشاحب الذي يتسلل من خلال المصٍراع المفتوح جزئيًا.

كرة ترتد من على الممر المرصوف بالحصى إلى يد تنتظر، العشب يلمع بالندى، الطيور تغني، أجيال من الطيور تأتي وتذهب... الجدة "مول"، التي دُفنت الآن في قبر العائلة في "إمبرودي"، تجلس تحل بعض الصوف: "برونسيا، افردي يديك هكذا"، وتلف ببطء خيطًا ناعمًا حول معصميها. الصليب المرجاني الذي أعطتها إياه جدتها، والذي به نافذة صغيرة في المنتصف، يمكن للعين المختلسة من خلالها رؤية العشاء الأخير يُحتفل به. يكسر يسوع الخبز، وجبينه يعج بأشعة شفافة على خلفية جدار الغرفة المتصدع. يصبح كل شيء متساويًا، كبيرًا وصغيرًا: نظرة خاطفة داخل مرجان ذي عروق زاهية، صوت امرأة في فجر الولادة البالي ("ابن!")، وخدش زلاجات الزلاجات، والخوف من المساحات، والإيماءات التي قام بها المسيح والتي لم تكن ولكنها الآن، والزمن مختصر، حيث لا يمكن قياس شيء بساعة أو برمل في ساعة رملية... فم أضعف من أن يفتح... المساعدة قادمة من الخارج، من هناك... القربان يلتصق باللسان... المرجان يفتح... تدخل، متضائلة في الحجم، تصعد إلى الطاولة، وتتلقى قطعة من الخبز المكسور من قبل المسيح... الساقان بعيدتان بالفعل، في أرض أخرى، بعيدًا عن لمسة يد الأب "مونكيفيتش" الشبيهة بالملعقة، وإصبع ابن حراث وحفيد جزار منتفخ، يلطخ جلدها الآن بالزيت.

كلما وقف بجانب سرير المحتضر، شعر الكاهن بوجود غير المرئيين —— جاثمين في صف على الأرض، يهوون الهواء، دائمًا إلى تخمر صاخب، إلى قعقعة سيوف. أولئك الذين أغرتهم الكرب العقلي ابتهجوا في إفرازات اليأس التي تطارد ذلك المكان حيث أُلغي المستقبل. كانت تحريضاتهم الهامسة تهدف إلى

مساعدة هواجس المحتضرين الذاتية، وإيقاعهم في شراكهم الخاصة؛ حتى وهم يستحضرون صور السعادة الماضية، أظهروا ضرورة يستحيل خرقها. لا عجب أنهم جلسوا في سهر للتجديف، ولعن خدعة الحياة، والوعد المخون.

برسم علامة الصليب، طردهم الأب "مونكيفيتش"، أولئك الذين يطالبون بالدليل، دائمًا بالدليل، وبهذه الطريقة يضمنون النصر لأنفسهم عندما يُوضع الإله الخفي على المحك. فقط اكشف عن جزء يسير من قوتك وسأؤمن بأنني لا أذوب في العدم، في تعفن الأرض: إنهم يزحفون بجانبنا، محاولين الحفاظ على الفكرة وسط انحلال كل الأفكار.

ولكن على منضدة "ميشالينا سوركونت" كانت هناك رسالة، رسالة تحمل أخبارًا نادرًا ما تُستجاب فيها الصلوات. إذا فُسر إنجابها لثمرة سيئة على أنه تأكيد على دناءتها، فإن الرسالة لا يمكن إلا أن تزيد من حزنها. هل كان هناك أي حكمة في إخفائها عنها؟ ربما كانت تُوضع على المحك الأسمى: ضرورة الثقة عندما رُفض كل سبب للثقة. بالشفقة عليها، بتجنيبها الضربة، كان الناس يساعدونها بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها: من خلال مشاركة الأوهام. لأن تلك الأحكام الصادرة من الأعالي حُكم عليها بأنها قاسية بشكل مفرط.
"هل نامت بعد؟"
"بالكاد".
ترك الدكتور "كون" وراءه بعض المورفين وأخبرهم بكيفية استخدام حقنة. في البداية، عندما سُئل عن مرضها، كان "سرطانًا محتملاً"، ثم ببساطة "سرطان"، مما يعني أنه لا يوجد الكثير مما يمكنه فعله. ليس كذلك الأب "مونكيفيتش"، فما كاد يغادر حتى بدأ صدرها يرتفع وينخفض وأصبح تنفسها أكثر انتظامًا.

وهو يجمع طيات ثوبه الكهنوتي، جلس الكاهن، وهو دائمًا أكثر ثقة بنفسه عندما يكون جالسًا على المائدة، في غرفة الطعام. بعد أن نطق ببعض الملاحظات المناسبة، علق على محصول هذا الموسم الجيد بشكل استثنائي.

"الزئبق ينخفض." تنهد الجد. "آمل أن يتمكنوا من جني المحصول قبل أن تمطر." قدم له بعض الحلويات.
كان الكاهن يتوق إلى آخر الشائعات السياسية والمحلية.

"السيدة ديلبين المسكينة. وحيدة بدون أبنائها. إنهم بعيدون جدًا".

لم يتعلم أكثر من ذلك.

"بعيد، بعيد جدًا"، كرر الجد. "آه حسنًا، منزل الرجل حيث يجد عمله".

"ليس في كل مكان تسير الأمور كما هي هنا." لم تستطع الجدة أن تفوت فرصة للتعبير عن سخريتها.

"الواجب أولاً".

عزا الكاهن أكياس الطحين في عربته (هدية ترحيبية، تأتي قبل الحصاد مباشرة) إلى رجل المنزل، حيث أن زوجة "سوركونت"، تلك المرأة البخيلة، كانت ستستغل خجله في المطالبة بأي تعويض دنيوي. أدخل توماس اللجام على رأس الحصان وأجبر اللجام بين شفتين ملطختين باللون الأصفر-الأخضر. انبعثت من أشجار الزيزفون رائحة عسل؛ النحل، المتشبث بأزهارها الطنانة، كان يقوم بعمله بينما كانت "برونيسلافا ريتر" تتجول ببطء على مشارف الزمن.

51

تكديس عربة ذات رفوف يشبه بناء منزل: كلاهما يتطلب مهارة. بمجرد أن يتم بناء الهيكل، يُربط حبل، أحد طرفيه ملفوف حول جذع موضوع طوليًا في الأعلى، بالمنصة؛ العارضة، المستديرة والناعمة للهمس والاهتزاز. ولكن لا: ارتفع صدرها. نفس عميق، فاصل استمر عدة ثوانٍ، والجسد الذي بدا ميتًا زفر ـــ حشرجة مفاجئة، متقطعة، لا يمكن التعرف عليها. ارتجف توماس من هذا الاستسلام لإنسانية المرء. المرأة المستلقية هناك لم تعد الجدة "ديلبين"، بل الموت نفسه؛ لا شكل رأسها ولا بشرة جلدها دلت على أي شيء بعد الآن؛ حتى الرعب الذي نقلته صرختها "أوي، أوي" قد زال. في غضون نصف ساعة (ربما استهلكت عمرًا بأكمله)، تجمد فمها، مفتوحًا في فعل الشهيق.

"ليشرق عليها النور الأبدي، آمين"، همست "ميسيا"، وأنزلت بلطف جفون المرأة الميتة بإصبع واحد. ببطء، بوقار، رسم الجد علامة الصليب. تناقشوا في مكان نقلها. كان السرير يتدلى كثيرًا لدرجة أنهم خشوا أن يتصلب الجسد في وضعه شبه المنحني. قرروا إحضار الطاولة الطويلة، وساعدهم توماس في إدخالها من الباب. غُطيت الطاولة ببطانية داكنة.

ساعد في نقل الجدة "ديلبين" إلى الطاولة. بينما لف ذراعه حول جذعها، تحرك قميص نومها فحول نظره بسرعة. وهو يلقي نظرة على ملاءة السرير عندما رفعوها في الهواء، هو في المقدمة و"أنتونينا" في الخلف، رأى بقعة من البراز أُفرغت أثناء تشنج الموت.

عاد بعد الغسيل والتكفين. يدان مطويتان على الصدر، كعبان متلامسان، نعلان متباعدتان، فك مربوط بمنديل. سمحت النافذة المفتوحة بدخول أصوات المساء: نقيق البط، والدمدمة البطيئة لعربة، وصهيل حصان. كان العالم في الخارج مختلفًا جدًا، هادئًا جدًا، لدرجة أنه جعل ما شهده للتو يبدو غير واقعي.

أرسلوه لإحضار صانع النعوش، لتخفيف الألم. صانع النعوش، الذي يخدم كل من القصر والقرية، كان يعيش في الكومونة. أحضره توماس إلى القصر وساعده في القياسات. ولكن في ذلك المساء واجه صعوبة في النوم. كيف يمكنه أن ينام إذا كان جسدها يرقد في الغرفة المجاورة، إذا كان بإمكانها قراءة أفكاره الرديئة من العالم الآخر. نعم، لقد استمد متعة من مشاهدتها تموت. متعة مريرة، مثل طعم التوت، الذي، مهما أحرق اللسان، يغرينا دائمًا بأكل المزيد. كانت الشموع تحترق في شمعدانين طويلين بجانب طاولة-النعش، وكانت الصلوات تُتلى، لكنها كانت وحيدة تمامًا في الليلة المظلمة.

في صباح اليوم التالي الباكر ـــ كان الشمع في حوامل الشموع مغطى بأجنحة العث؛ وكانت جفون جدته قد انفرجت، كاشفة عن شريط رفيع من الأبيض ـــ ذهب لرؤية صانع النعوش وهو يمارس فن صناعة النعوش. كان الفناء أمام المحل مليئًا بعجلات خشبية بلا إطارات مكدسة فوق بعضها البعض وبأكوام من الخشب المقطوع. كان توماس على دراية بالفعل بمنضدة العمل، بسطحها الخشن والمخدوش بالقطع والخدوش، بملازمها اليدوية على الجانبين، التي كانت براغيها الملولبة تُلف للداخل والخارج بهذه السهولة، وبالرائحة المستمرة للنشارة تحت الأقدام. كان يمكنه، كما هو الآن، أن يجلس مأسورًا على جذع شجرة، مسحورًا بحركة المسحج ذهابًا وإيابًا.

"الصنوبر ليس جيدًا؛ لنستخدم البلوط"، قال النجار الرئيسي. (بسبب أنفه البارز وخديه المنتفخين، كان "كيلبيس" يشبه "ميسيا" إلى حد ما). كانت ظهور يديه متشابكة من الأوردة، منظر طبيعي من الجبال والوديان. شريط من النشارة يلتف من شق في المسحج، وابتهج توماس بهذه السيطرة على المادة الخشبية؛ إذا أمكن تسوية لوح، فإن أي شيء يمكن تسويته، وجعله ناعمًا. وهكذا كانت وجنتا جدته ستُزينان إلى الأبد بزخارف من خشب البلوط. جعله النعش يسترجع حلمه عن "مجدلينا".

تساءل عن الديدان، هل يمكنها أن تضغط من خلال الشقوق. جمجمة بيضاء، محجران عميقان للعينين، متانة الخشب. كانت جدته بالتأكيد ميتة، وليست في غيبوبة أو سبات. القصص المروعة التي روتها عن نعوش عُرف عنها أنها كانت تصدر ضجيجًا بعد إغلاقها وحتى بعد إنزالها إلى القبر، وكيف، بعد إزالة التراب ورفع الغطاء، وجدوا أناسًا مختنقين في الداخل، وأجسادهم متشنجة من الصراع للهروب. كانت الجدة خائفة جدًا من الاستيقاظ لتكتشف أنها دُفنت حية لدرجة أنها أصرت على أنه من الأفضل التحقق من الموت كما فعل أحدهم في عائلتها: بتحطيم الجمجمة بمطرقة.

اختير البلوط أيضًا للصليب. أخذ صانع النعوش قلم رصاص سميكًا من جيبه، وبلله باللعاب، ورسم الخطوط العريضة لصليب على قطعة خشبية. سلمها إلى توماس، طالبًا رأيه، واستمتع مرة أخرى بامتياز الحفيد. أظهر الرسم نوعًا من السقيفة تمتد على ذراعي الصليب.
"لماذا هذا؟" سأل، مشيرًا إلى المأوى الصغير.
"يجب. لوحان مسمران معًا ـــ أوه-أوه، ليس جميلاً جدًا. على أي حال، سيحفظه من المطر، ويمنعه من التعفن".

وفقًا لـ"أنتونينا"، فإن الروح تدور حول القوقعة التي تخلت عنها للتو. تحوم حولها، وتفحص ذاتها السابقة، مندهشة من أنها كانت تستطيع رؤية نفسها حتى الآن فقط بالنسبة لجسد. مع مرور الساعات، يبدأ الوجه، الذي كان مرآة الروح يومًا ما، في التشبه أكثر فأكثر بالطحلب الصخري. في ذلك المساء، شهد توماس تغييرًا في مظهر جدته، لكنه انسحب فجأة في ذعر: لقد نظرت إليه! انطلق نحو الباب، مستعدًا تمامًا للصراخ بأنها تستيقظ من غيبوبة. لكنها لم تقم بأدنى حركة. كان وهمًا، سببه انفراج آخر للجفون ولعب ضوء الشموع في بياض عينيها. لم تعد روح تعيش في الداخل. إذا كانت "أنتونينا" على حق، فقد كانت تطفو في أرجاء الغرفة، تلامس أشياء مألوفة، وتنتظر وقتها حتى الجنازة، عندما يمكنها بضمير مرتاح أن تتخلى أخيرًا عما كان، بعد كل شيء، ملكها ذات يوم.

تتجمع الغيوم في أشكال ذات بطون كبيرة؛ تنين بذيل ملتوي، وزعانف، وفكوك متدفقة يرحل عبر السماء؛ تصبح الفكوك أكثر نحافة، متآكلة، حتى تنفصل مجموعة صغيرة من الأبيض وتُحمل بعيدًا، مدفوعة بأنفاس التنين. صليب رفيع يعبر جانب التنين؛ يحمل الصليب شماس الكنيسة، الذي يتبعه الكاهن، ثم النعش الذي يحمله "بالتازار" و"باكيناص" و"كيلبيس" و"سيبنيفسكي" الشاب. تمر

المسيرة عبر أسوار السويديين، من قمتها يمكن للعين أن تميز شخصيات ضئيلة تتحرك بين الحزم المدببة التي تصطف على الحقول شديدة الانحدار على الشاطئ المقابل.

"لوك يوتشنيفيتش"، الذي وصل بالأمس مع "هيلين"، يركض إلى النعش ليخفف عن "باكيناص"، وأطراف معطفه تنفرج لتكشف عن زوج من السراويل المربعة الداكنة. يحرك رأسه تحت الحمل، يتدلى النعش، يتأرجح بينما خطواته المتمايلة تخل بتوازن الآخرين. خابت آمال توماس مرة أخرى: لقد ارتقى "لوك" إلى دوره الكوميدي. لكن "لوك" عنيد وبوجه مشوه بالدموع يتحمل. يرتدي "شاتيبيلكو" عباءة زرقاء داكنة؛ زوجته، وشاحًا حريريًا مطرزًا بالزهور السوداء.

يجلسون في مقاعد الكنيسة. يحاول توماس أن يصلي لكنه لا يستطيع التوقف عن التفكير في القبر المحفور حديثًا. تتسع قطعة الأرض العائلية لقبرين آخرين فقط ـــ واحد لـ"ميسيا"، والآخر للجد ـــ لذا يجب دفن الجدة "ديلبين" في مكان قريب. أثناء حفر قبرها، اصطدموا بجذر بلوط كان لا بد من قطعه بفأس، تاركًا جروحًا بيضاء في الطين. ستلتف الجذور، وربما تغزو النعش، وستُحبس الجدة كما لو كانت في مخالب طائر.

لا يزال الآخرون يتجهون نحو المخرج بينما هو يشق طريقه عبر شواهد القبور. ها هو، على مشارف المقبرة، اختير لقربه من آل سوركونت، وحيث، على بعد خطوات قليلة فقط، الآن متآكل جزئيًا ومليء بالأعشاب الضارة، يقف تل آخر، تل صديقة توماس، "مجدلينا". لا بد أنهما يلتقيان، ويحاول أن يتخيله، مع العلم أنه في الواقع لم يكن هناك ما يمكن تخيله. يمدان أيديهما إلى بعضهما البعض ـــ رأس "مجدلينا" قد أُعيد الآن ـــ وينفجران في البكاء.
"لماذا، أوه، لماذا عاقبنا أنفسنا هكذا؟ لماذا كنا غرباء حتى الآن؟ لماذا كان علينا أن نعاني في عزلة؟ كان بإمكانك البقاء معي. كان بإمكاني أن أجد لك زوجًا، وأنت، بشجاعتك، كان بإمكانك مساعدتي في حياتي. من المؤسف أن الناس لا يستطيعون حب بعضهم البعض إلا بعد الموت. كيف هو شعور تسميم نفسك؟ أنا فضولي".
"صعب"، تنهدت "مجدلينا". "صليت من أجل مغفرة الله، على ركبتي ابتلعت السم، ولكن على الفور خفت، وصرخت طلبًا للمساعدة"...

يبدوان شابين ـــ الجدة تمامًا كما في الصور القديمة التي تظهرها مشدودة الخصر. يناديان بعضهما البعض باسميهما الأولين.

"لماذا أخفت الناس؟" تسأل الجدة.

ابتسمت "مجدلينا". "لماذا تسأل وأنت تعرف بالفعل؟"

"نعم، الآن أعرف"...

لم يستطع توماس أن يعترف بأنهما يسكنان عالمين منفصلين، تمامًا كما لم يستطع أن يوافق على أن تكون روح "مجدلينا" بين الملعونين. الملعونون هم أولئك الذين فشلوا في إثارة الشفقة أو الحب. هناك، حول القبر المحفور حديثًا، تجمع الآخرون بالفعل وهو يبدأ "السلام عليك يا مريم"، ويغرس أظافره في راحة يده لإضافة حرارة إلى التلاوة. يوصي "مجدلينا" بأم الله.

يُنزل النعش في حبال، يتأرجح، يعلق على جذر مقطوع قبل أن يستقر أخيرًا في القاع. ينظر توماس إلى الأسفل بينما يلقي الأب "مونكيفيتش" عظة على جانب القبر. يفكر: لمئات، آلاف السنين كانوا يدفنون الموتى هكذا؛ إذا نهض الجميع في نفس الوقت، واحد بجانب الآخر، فإن ملايينهم سيشكلون جدارًا صلبًا. كل شخص حي يعرف أنه يجب أن يموت —— يقول الجد إنهم ينتظرونه بين سلاسل قطعة أرض سوركونت. يعرفون، ومع ذلك لا يبدو أنهم يهتمون. الموت —— الانتقال من حياة إلى أخرى —— مرعب جدًا، لماذا لا يصرخون، ويمزقون شعرهم...؟ ولكن، لا —— لا شيء. هدوؤهم، تجاهلهم للأمر بـ"هكذا هي الحياة..." —— حيره. كان يعتقد أن هناك سرًا كشفه الله لأولئك الذين أرادوه بشدة: أن الموت ليس حتميًا، وليس كما صُور. أم أنهم كانوا يعرفون أكثر مما كانوا يبوحون به، وهل هذا هو سبب أخذهم الأمر بهذه الهدوء؟ بعبارة أخرى، منحهم توماس الفضل، تمامًا كما فعل مع "لوك"، الذي، لو لم يكن يمتلك نفسًا أخرى، أكثر ذكاءً، لكان قد هدم نظامًا بأكمله؛ تمامًا كما كان الكبار لولا ذلك لكانوا مجرد أطفال مثيرين للشفقة ما بدا بسيطًا لا يمكن أن يكون بهذه البساطة.

ذات يوم، سيُنزل هو أيضًا في حبال. حتى لو أصبح بابا؟ حتى. ولكن لو انفجرت القنبلة اليدوية في ذلك الوقت، لكان قد مات دون أن يعرف أنه يموت. ديك الخلنج الذي أسقطه "روموالد" لم يكن لديه وقت ليشعر بالرعب. أوه يا إلهي، لا تدعني أموت موتًا بطيئًا مثل الجدة.

"أنت ترمي أولاً"، قالت "ميسيا"، نصف بصوت عالٍ. نعم، كحفيدها، كان الأقرب، بل القريب الوحيد بالدم الحاضر. التقط كتلة تراب صفراء وألقاها، وهو يراقبها وهي تتفتت عند سقوطها؛ سقطت أخرى، تدق على غطاء النعش الخشبي، ثم جاء التجريف، مشكلاً تلاً ضيقًا من التراب على طول اللوح

العلوي. عملوا بسرعة، وملأوا الشقوق بين جدران النعش ثم الفجوات المحيطة حتى اتخذت الألواح الملطخة باللون البني لون الأرض. إذا كان النعش قد أثار الفضول منذ لحظة إغلاقه، منذ لحظة احتوائه على جسد، فإن الرغبة كانت أعظم الآن: مساحة فارغة، جيب صغير من الهواء، جزء من نفق.

أشجار البلوط فوق الرأس، بعضها قديم جدًا لدرجة أنها لا بد أنها آوت "هيرونيموس سوركونت" في رحلاته على ظهر الخيل. عند سفح المنحدر القصير، جرى جدول تحت جسر صغير قبل أن يصب في نهر إيسا. بساتين وأكواخ على الجانب الآخر من الوادي. هكذا كان المنظر الذي يمثل نهاية الرحلة.
"يجب ألا ننسى أن نطلب لوحة"، قال جد توماس.
"يجب أن يُكتب عليها: أرملة متمرد عام ١٨٦٣"، تدخل توماس، عالمًا بمدى فخرها بالماضي.
"سأزرع أنا وتوماس بعض الزهور"، وعدت "أنتونينا."

أمسك "كيلبيس" بصليبه مع المأوى بثبات وزرعه في الأرض، ودعمه بالتراب وسوى القبر المستطيل الشكل بمجرفته. هنا يرتاح مؤرخنا قلمه وهو يحاول تصور أولئك الذين سيأتون إلى هذا المكان بعد سنوات عديدة. من هم؟ أي نوع من التجارة؟ وهم يركنون سيارتهم اللامعة بجانب الجسر، سيسيرون بقية الطريق سيرًا على الأقدام. "يا له من صليب قديم مضحك. انظر إلى تلك أشجار البلوط ـــ يا لها من مضيعة للخشب الجيد!" من الواضح أنهم لا يحبون الموت؛ مجرد التفكير فيه يقلل من كرامتهم؛ وأقدامهم ثابتة على الأرض، يعلنون: "نحن على قيد الحياة!" ومع ذلك، كل منهم موهوب بقلب، قلب يأسره الرعب أحيانًا، وشعورهم بالتفوق على أولئك الذين رحلوا بالكاد يكون حماية. سيعلق الأشنة الرمادية-الزرقاء على مأوى "كيلبيس"، وسيتلاشى الاسم على اللوحة. وستتجمع الغيوم في أشكال ذات بطون كبيرة، تمامًا كما في ذلك اليوم، منذ زمن بعيد.

كان صوتًا لا يشبه أي صوت يمكن أن يصدره الحلق البشري، لكن توماس سرعان ما أتقنه. كان الأمر صعبًا في البداية، لكنه مارسه حتى الكمال، لدرجة أنه كاد يعتقد أنه يستطيع التحدث بلغتهم. في الغابة بالقرب من "بوركوني" كانت هناك حفرة، كثيفة بشجر الألدر، وفي الربيع أصبحت الحفرة بحيرة. كان ذلك بعد غروب الشمس مباشرة، وقفت قمم الأشجار سوداء على خلفية السماء البرتقالية: كان الوقت مناسبًا. وقف يواجه جدارًا صلبًا من الأشجار الصغيرة، مغمورًا في الوحل ورائحة الأوراق المتعفنة، وبغضب محسوب، متجنبًا أي حركات مفاجئة، كان يلتقط البعوض الذي يهاجم وجهه ورقبته. كان البعوض منتفخًا جدًا بالدم لدرجة أن راحتيه كانتا ملطختين بالدماء من الصفع. بهدوء،

حرر الأمان على بندقيته البردان. البردان، المستعار من "فيكتور" للصيف، أصبح بطريقة ما جزءًا منه.

"ماذا تحتاجه على أي حال؟" قال "رومموالد" لأخيه. "أنت مشغول جدًا بحيث لا يمكنك إخراجه. إنه معلق هناك فقط، أليس كذلك؟ فلماذا لا تدع توماس يقوم ببعض الصيد؟" وافق "فيكتور."

كانت صقور الباز تعشش في عمق الغابة، عميقة بما يكفي لجعل الوصول إلى الأرض المستنقعية صعبًا. بمجرد أن حصلت على أجنحتها، قضى الصغار يومهم يحلقون في الغابة، عاليًا في الهواء، تقليدًا لوالديهم؛ بحلول المساء، كانت العائلة عائدة إلى المنزل لقضاء الليلة. في اليوم السابق، اختبر توماس نداء إغراءه وأُجيب عليه من عدة جهات. كان السر هو اختيار وقت لم يكن الجميع قد عادوا فيه بعد، لأن ذلك كان وقت استدعائهم المتبادل. كان الصراخ يقترب؛ سرعان ما لمح زوجًا من الأجنحة الرمادية المرسومة بين الأوراق، وسمع الرفرفة بينما الصقر، غافلاً عن توماس المختبئ في الظلال أدناه، حط على قمة شجرة نحيلة. نادى وانتظر جوابًا. ثم ببطء شديد رفع الماسورة إلى مستوى العين وضغط على الزناد. سقط! أمضى وقتًا طويلاً يبحث عنه، خائفًا من أن يضطر إلى الانتظار حتى الفجر، عندما كاد أن يتعثر به، ولونه المصفر يكاد يكون ساطعًا على خلفية المستنقع المظلم المليء بالأعشاب الضارة. وتلك الريشات الطائرة، الممتدة على طولها وهو يلتقط الطائر من جناحه... نكز إصبعه وهو يحاول فتح مخلبه المشدود بإحكام. لكن طائرًا واحدًا لم يكن كافيًا، ليس بعد أن اكتسب الأفضلية. انتظر يومًا كاملاً قبل أن يجرب حظه مرة ثانية.

"إيبي-إيبي!" جاءت الحدة من انقباض في عضلات الحلق، والذي، إذا تكرر كثيرًا، أنتج إحساسًا مؤلمًا بالتقلص. كان يسمعهم في عمق الغابة. هل سيعودون اليوم، أم لا؟ صمت باستثناء طنين البعوض، عمود رأسي يرقص صعودًا وهبوطًا في ضوء الشمس. حاول مرة أخرى: "إيبي-إيبي..." ما معنى هذا الصوت بالضبط بلغتهم لم يكن يعرفه، على الرغم من عدم وجود خطأ في نبرة الشوق والإلحاح فيه. كانوا قادمين، كان يستطيع أن يشعر بذلك! أطلق نداءً آخر؛ حمله الصمت الذي وجد بالفعل طيورًا أخرى جاثمة لليل أو تنظف ريشها. ثم حدث —— ذلك النحيب المتواصل الذي وصله من عدة اتجاهات في آن واحد. كانوا هناك، حسنًا.

تذوق لحظة انتصاره، محاولاً ألا يبالغ فيها. لم تكن الصقور الأصغر سنًا قد تدربت بعد على تمييز الشيء الحقيقي من التقليد، ولم تكن هناك أي طيور قيق لتحذر من وجود بشري. نادى مرة ثالثة وأخيرة، عالمًا بأنه على مسافة قريبة قد يكشف عن نفسه.

فوق خط الأشجار ـــ شكل طائر واحد، ثم آخر. في طيران، لكن ذلك لم يكن يعني شيئًا بعد. رؤوس مرفوعة ـــ... ظل رفرف للتو عبر الأحراش، بين تلك أشجار الألدر الصغيرة. لقد حط. أين؟ البعوض الذي يصطف على ذراعي توماس وجبهته يمكن أن يشعر الآن بالأمان؛ لقد أصيب بالشلل. كان يسمعه يبكي من قمة شجرة أخرى، لكن أوراق الشجر حجبت رؤيته. إذا اقترب، بمقدار بضع خطوات فقط، فإن الطائر سيلمحه ويلجأ إلى ذلك الطيران الغريب عندما يفاجئه إنسان: طيران الغموض.

كان عليه أن يخاطر بنداء آخر. عازمًا على إتقانه، فاقدًا كل إحساس بنفسه، جسد روح صقر الباز. "إيبي-إيبي..." فجأة، متنبهًا، رد الطائر. رفرفة أجنحة أعطت توماس هدفه. صوب، مخمنًا أكثر بالغريزة موقع اللطخة الرمادية-الفأرية على خلفية السواد. تقرير: اندفع الطائر إلى الأمام، وتكور على شكل كرة، وسقط، معترضًا هبوطه وهو يلامس الأغصان. جاء توماس راكضًا، والأغصان تصفع وجهه. قتل ثان! صوت داخله. وجد الطائر ملقى على ظهره، لا يزال حيًا، ومخالبه مكشوفة في دفاع عن النفس. بدلاً من رفيق أو أمه ـــ التي كان نحيبها قد نادى بشكل لا يخطئ ـــ وقف الآن، منحنيًا على جسده الخامل، عملاق. كان صقر الباز مفترسًا ـــ فكر توماس على سبيل تبرير الفعل ـــ يتغذى على لحم ودم الحمام والدجاج. وهو يرفع البندقية منتصبة، ضرب رأس الطائر بالعقب وشاهده وهو يغطي عينيه الذهبيتين بجفونه السفلية. بعد السلخ، سيذهب اللحم إلى "لوتنيا" والجلد المحشو سيحافظ إلى أجل غير مسمى على مظهر كائن منفصل ـــ حتى يبدأ العث في الظهور.

إذا كان توماس منزعجًا من ضمير مذنب (كما كان كثيرًا)، فقد أخبر نفسه أن مخلوقًا قُتل بيد المرء كان سيموت على أي حال، وأنه لا يهم حقًا متى أو كيف. أن هذه الحيوانات نفسها ربما كانت لديها رغبة في العيش لم تستطع أن تصرفه عن طموح أسمى: الحاجة إلى كأس. كانت السماء بالفعل ذات ظل أزرق عميق عندما خرج من الغابة... وعبر الجسر الصغير فوق الجدول. من خلال الأدغال رأى أضواء المنزل مشتعلة. كانت "بارباركا" تعد العشاء. ماذا ستقول عن هذا القتل الثاني؟

لكن في المحاولة الثالثة نفد حظه: أطلق النار أخافتهم. استمرت قدرته على مناداة الطيور في جلب المجد له، حتى صباح أحد الأيام (ليس في ذلك الصيف بل في صيف آخر)، عندما ذهب لاختبارها، انكسر صوته. لقد تغير، وأصبح أجشًا، ولم يستعد أبدًا نقاء تلك الإشارة التي كانت شيئًا بين مواء قطة وصفير رصاصة.

54

صفعت "باربارکا" وجه "روموالد" بقوة لدرجة أن صداها تردد في البستان. "ماذا دهاك؟" ظل يقول وهو يتراجع. كان أخذ العدو على حين غرة دائمًا أفضل تكتيك، ولم يكن من الممكن أن تكون مفاجأة "روموالد" أكثر صدقًا. صباح أحد الأحد الهادئ، لم تشوبه أي مشاجرات أو خلافات، عندما فجأة: "أيها الغشاش! يا مطارد التنانير! خذ هذا! هذا ما تستحقه لخيانتك لي!" "روموالد"، الذي لم يكن أقل ذهولاً مما لو كان قد لمح مذنبًا، كان بإمكانه بسهولة طردها من ممتلكاته؛ لكنه، معتقدًا أنها ربما أصيبت بالجنون، رضخ بهدوء. بعد لحظة، كانت "باربارکا" تبكي وهي تركض على درب الغابة.

على الرغم من أن الدموع كانت صادقة، إلا أن الصفعة جاءت من مزيج من الغضب والترصد. أخبرتها غريزة المرأة أن هذا، سواء فازت أو خسرت، هو السبيل الوحيد، وأن العبوس والتذمر لن يوصلاها إلى أي مكان. كان من الأفضل قياس القفزة بالعين، وليس بأي حسابات. كان "روموالد" هو العدو، ولكن ليس فقط. كان مسرورًا بخدمتها، وكانت تعرف ذلك. إلى جانب ذلك، كان سيواجه صعوبة في استبدالها، في العثور على مدبرة منزل أخرى بحبها للنظافة والترتيب واستعدادها لتجربة أي نوع من العمل، حتى الحرث (ذات مرة، عندما مرض "روموالد"، حرثت عمليًا بمفردها بعد أن فقد عامل المزرعة المستأجر أعصابه وغادر العمل). كانت أيضًا طباخة أفضل من معظمهم. كان "روموالد" يتقدم في السن، وكان متشبثًا بطرقه؛ لن يكون ترويض شخص آخر سهلاً. ولكن كانت هناك أسباب أخرى لثقتها بنفسها.

كانا يعيشان حياة منعزلة، لكنهما لم يكونا بحاجة إلى صحبة. مر الربيع والصيف، وهما وقت من الأعمال التي لا نهاية لها، بسرعة. أمضت "باربارکا" الخريف في تعليب التفاح والكمثرى؛ وموسم الأمطار، على عجلة غزلها (كانت تعرف كيف تنسج نسيجًا ضيقًا). زرعا كتانهما واشتريا صوفهما

من "ماسيوليس". صنعت الكتان من القماش المنزلي؛ وعلى نولها، القماش. في الشتاء استمر دوي دواسة القدم المتغيرة حتى غروب الشمس؛ في المساء كانت تستطيع أن تغزل وهي شبه عمياء —— كان النسيج يتطلب قدرًا أكبر من الضوء والتركيز. نول خشبي وحفنة من التنانير المخزنة في صندوق كانت مهرها الوحيد.

انتهى أسبوع العمل المزدحم بطقوس الاستحمام يوم السبت ورحلة إلى قداس الأحد، إما في "البريتسكا" أو سيرًا على الأقدام. "روموالد"، الذي لم يكن من رواد الكنيسة المتحمسين، غالبًا ما كان يتغيب عن عدة أيام أحد متتالية من أجل صيده.

بُني الحمام بأيدي "روموالد" الخاصة، على النهر، وبُني وفقًا لخطة. كان هناك غرفتان. في إحداهما ركب أوتاد ملابس، وحتى مقعدًا منحوتًا يدويًا للبس وخلع الملابس. كما احتوت على مدفأة من جذوع الأشجار، والحجر المسطح على الجانب الآخر يصل إلى درجات حرارة لدرجة أن دلوًا من الماء يُلقى عليه يتحول على الفور إلى بخار. في الغرفة الأخرى، ثلاثة أرفف، مبنية كدرج واحد فوق الآخر، امتدت من جدار إلى جدار. لإبعاد الريح، وهي آفة أي حمام، كانت الفجوات بين الجذوع تُحشى سنويًا بالطحلب.

بدأ الحفل بغسل ظهر "روموالد" وكتفيه، وتقوم "بارباركا" بالفرك. ثم كان "روموالد" يثير قدرًا جيدًا من البخار —— كلما كان أكثر كثافة، كان أفضل —— ويصعد إلى أعلى رف، ودلو من الماء البارد في متناول اليد (كانت مهمتها التأكد من وصوله إلى هناك)، ورشة من الماء البارد هي إحدى طرق إطالة الأمر. وهي تقف في الأسفل، وباقة من أغصان البتولا في يدها، كانت "بارباركا" تمرر أغصان البتولا على صدره وبطنه، الأمر الذي يتطلب بعض المهارة: التعرض للبخار يترك الجلد حساسًا لدرجة أن أدنى لمسة من الأغصان، أكثر من الجلدة، تحرق مثل حديدة محمّاة، والحيلة بالتالي هي التناوب بين النقر والجلد. كان "روموالد" يتنهد ويصرخ "آآآه! المزيد! المزيد!" يتدحرج على بطنه، ويغرف الماء من الدلو، ويصرخ "هيا! أقوى! أقوى!" ثم، أحمر كجراد البحر، يندفع إلى الخارج ويتمرغ في الثلج طالما استغرق الأمر لتخدير الجسد ضد البرد. ثم يعود إلى الرف، لأن الآن جاء دور "بارباركا"، وكان يبقيها هناك، وكيف فعل ذلك، وهي تئن "أوي، لا أستطيع تحمل المزيد"، وهو يقول "بالتأكيد يمكنك؛ فقط استديري"، ويعمل عليها بالمفتاح، وهي تضحك وتصرخ "توقف، اسمع؟ هذا يكفي"!

إذا طردها، فمن سيذهب إلى الحمام معه؟ من سيفرك ظهره وكتفيه؟ كان يجب أن ينظر إليها؛ كانت تستطيع أن تقول. كانت كلها صحة وشباب، وثدياها بالحجم المناسب تمامًا، قوية في الوركين والكتفين. جلد وردي فاتح، أبيض تقريبًا بجانب جلده. نعم، لقد أشبعت كبرياءه الذكوري بأكثر من طريقة.

بأكثر من طريقة. في خضوعها لطقوس الحب، كانت "بارباركا" تستدعي أقدس الأسماء الكتابية (والتي ربما لم تكن مناسبة، ولكن في مثل هذه الأوقات من يهتم بما هو مناسب وما هو غير مناسب؟)، وهي تصرخ في همس في ذروة لهثها: "روموااالد!" بلا حراك، كان يتأمل الموجة التي تنكسر عليه، الموجة التي أطلقها هو نفسه. (في الحب، كما في كل شيء آخر، كان "روموالد" يسعى إلى الكمال). كان يحب ذلك عندما كانت تلتقط أنفاسها، وسمع مرة أخرى تلك السلسلة غير المترابطة منها. كما أنها لم تتذمر إذا عاود الكرة مرارًا وتكرارًا... لا، الفراق كان مستبعدًا. وإذا، على الرغم من الطرق العريقة، وُلد طفل؟ حسنًا، فليكن؟ وفي صباح اليوم التالي كان عالمًا جديدًا، ندى على النافذة، ورعشة في الركبتين. وأغانٍ على النول، أغانٍ بهيجة.

ولكن في تلك اللحظة كانت تبكي وهي تتخيله في البستان. مجيئه على الدرب، وصوت خطواته، وصوت الألواح الخشبية الصارخة، وذلك الصوت ـــ "اخرجي!" فليطردها ـــ سيكون هو من يعاني أكثر. لم يكن بحاجة إلى هذه العلاقة مع "هيلين يوتشنيفيتش". نزوة أرستقراطية، تشبه الرجال تمامًا، إحدى تلك الحماقات الذكورية التي كان على النساء تحملها. تحت كل هذا التظاهر، كان رجلاً كأي رجل آخر. حان الوقت ليرى كيف كان يفسد الأمور، يطارد سيدات من طبقة راقية فقط ليثبت أنه ليس أسوأ من غيره.

لولا السيدة "بوكوفسكي" العجوز... الآن، هناك كان العدو الحقيقي. بينما لم تعارض بقاء "بارباركا" مع "روموالد" ـــ كان بحاجة إلى صحبة، مثل أي رجل ـــ إلا أنها كانت تراقبهم بعين يقظة. كانت السيدة العجوز ستوبخه بشدة إذا جلسها بجانبه في "البريتسكا" في طريقهما إلى الكنيسة: ماذا سيقول الناس؟ يجب على الخادمة أن تعرف مكانها.

نعم، كانت السيدة العجوز عقبة. عقبة أمام حلمها في أن تصبح سيدة "بوركوني"، آمنة في معرفة أنها لا يمكن طردها أبدًا. لكن لم يتزوج أي "بوكوفسكي" قط من فلاحة، ولا حتى من ذات مهر غني، ناهيك عن واحدة مثلها. وهي تجلس وتحدق في حجرها، وركبتاها متباعدتان، وتنورتها

مشدودة، استسلمت "باربارکا" لليأس. أوه، لو كانت تلك هي همومها الوحيدة! عندما يدخل، ستنزل على ركبتيها وتتوسل المغفرة. فقط دع الأمور تكون كما كانت.

ظهر عنق "روموالد" ــــ عنق قوي، محفور بمستطيلات مائلة صغيرة ــــ كان أحمر كعرف ديك رومي. وهو يقف في تركيز جامد، اتجه فجأة نحو المنزل، مسرعًا خطاه. توقف أمام الشرفة، ثم صعد ببطء الدرجات الخشبية، ودخل غرفته، وأخذ البندقية.

الغابة، شريطة أن ينصت المرء لهمسها، يمكن أن تنصح الرجل بما يجب عليه فعله. سواء كان ذلك بسبب نصيحة الغابة أو فرضية أن الرجال أقوياء فقط في الخارج، لم يقل "روموالد" شيئًا في ذلك الظهيرة. ولكن في ذلك المساء، بعد الحلب، رن صوته العملي: "باربارکا"!

وهي ترتجف في كل مكان، دخلت الغرفة.

"على بطنك"!

في يده كان السوط ذو مقبض حافر الغزال. سحب تنورتها إلى الخلف، وبضربات محسوبة ولكن مؤلمة، بدأ يجلد أردافها العارية. تأوهت وتلوت وحفرت أسنانها في الوسادة؛ لكنها كانت سعيدة. معاقبته لها لا يمكن أن يعني سوى شيء واحد: أنها ملكه! والعقاب كان مستحقًا.

ما جاء لاحقًا كان، بطريقة ما، مكافأة، أعظم في أن الحب الممزوج بالدموع والألم يتخذ حلاوة خاصة به. لأنه من أغرب عادات الإنسان أنه حتى وهو يقترب من لحظة النشوة، حتى والجسد يستسلم، يستمر العقل في الشرود، أكثر وعيًا من أي وقت مضى بالانقسام. الأسماء المقدسة التي سقطت من شفتي "باربارکا" أثبتت أنها كانت ابنة مخلصة للكنيسة، وأن قوة مشاعرها لا يمكن احتواؤها في أي لغة أخرى، بينما كان العقل يتأمل انتصاره. لأن نفس المرأة التي كانت قبل لحظة راضية تمامًا بالأمور كما هي، كانت نفس المرأة تخطط الآن ضد السيدة "بوكوفسكي" العجوز. بينما كانت "باربارکا" المرئية تتوق إلى الانتهاك والابتلاع، كانت "باربارکا" غير المرئية تلمح إلى أن هناك أشياء أسوأ بكثير من إنجاب طفل. وهكذا، عُقد تحالف معين بينهما.

مع اقتراب صيد ديك الخلنج بأسبوع واحد فقط، دفعت الحادثة مع العمة "هيلين" توماس إلى حيرة. ومهما كان كرهه الشديد لها، فقد كان ملزمًا بشعور من الولاء العائلي. الحادثة: كانا في طريقهما إلى "بوركوني" (لم يستطع مقاومة مرافقته عندما قررت الذهاب)، توماس يمسك بالسوط واللجام،

وكلاهما يجلسان جنبًا إلى جنب، وكان الحصان قد بدأ للتو في صعود التلة المشجرة عندما ـــ كان من الصعب تحديد أيهما جاء أولاً، الرؤية أم السمع ـــ خرج من خلف شجرة تنوب صغيرة انفجار من الأبيض وصرخة امرأة، وكلاهما، الصراخ والبياض، كانا يخصان "باربراكا"، ولكن الآن تغيرتا بشكل غريب لدرجة أن توماس أصيب بالذهول.

محمرة الوجه، وحاجباها معقودان، وهي تلوح بغصن بندق في يد واحدة، صرخت: "أيتها العاهرة! سأعلمك كيف تمارسين الرومانسية هنا!" ثم سيل من الشتائم بلغتين. "إذا أمسكت بك مرة أخرى حول "بوركوني"، فستحصلين على ضربة كهذه"ـــ

كان هناك حفيف وصفعت "هيلين" خدها بكلتا يديها؛ ثم آخر، لكن هذه المرة أخرجت ذراعها للحماية. توماس، غارقًا تمامًا، ضرب الخيول بالسوط وحدث قعقعة عجلات. "ارجع يا تومي! ارجع! يا إلهي، ماذا فعلت، ماذا فعلت! ارجع يا تومي! لن أطأ قدمي هنا مرة أخرى، فليساعدني الله"!

كان الالتفاف على درب ضيق أسهل قولاً من فعلاً، لكنه تمكن من ذلك، والعجلة تحتك بالجانب، وتسحق شجيرات صغيرة، وكادت أن تنقلب في هذه العملية. نزلت دموع كبيرة على وجه عمته؛ الآن كانت هي التي احمر وجهها، وصوتها المكتوم عبر عن صدمة. وهي تشبك كلتا يديها في صلاة، رفعت عينيها الزرقاوين وتوسلت إلى السماء أن تنتقم للظلم الذي تحملته ببراءة.

"يا له من شيء وحشي. لا أفهم. لماذا؟ كيف يمكنها أن تفعل شيئًا كهذا؟ لا بد أنها مختلة". أخفى توماس انزعاجه بالتحديق إلى الأمام مباشرة، متأثرًا بالتركيز. الرومانسية كانت الكلمة المناسبة، حسنًا. كل تلك النظرات السكرية والندية، والنظرات ذات اللون البرقوقي... لكن كيف تتناسب "باربراكا" مع ذلك؟ لم يستطع أن يفهم ذلك تمامًا. ربما سئم "روموالد" من كل الحديث الحلو؛ ربما كان الكمين في الغابة من تدبيره. ولكن لماذا يتآمر ضد عمته بمساعدة خادمة؟

كان لدى توماس موعد صيد مع "روموالد". كانت صداقتهما بين الرجال، أعلى بكثير من المشاحنات التافهة للكبار. ولكن ماذا لو توقفت عمته عن زيارة "بوركوني"، إذا منعته هو أو أي شخص آخر من الذهاب من باب اللياقة؟ أو هل ستفعل؟ على الرغم من أن مثل هذه الأمور بالنسبة لتوماس كانت تتاخم ما لا يمكن فهمه، إلا أنه شعر في سلوك عمته ببقايا بعض الخزي. لم تقل

شيئًا، ولا كلمة واحدة، لكن صمتها كان بداية ميثاق بينهما. جلست بجانبه في العربة، وفمها محاط بتجاعيد عميقة، تتأرجح كبومة.

"ماذا؟ عدت بالفعل؟" سألت الجدة "ميسيا."

"لا أحد في المنزل"، قالت "هيلين"، وهي تكذب بجهد.

وهكذا خرج توماس ليس فقط منتصرًا بل شريكًا. لأن تذكره لـ"بارباركا" المنتقمة كان ملطخًا بذكريات ذات طبيعة أكثر خصوصية. قبل فترة وجيزة، بينما كان يكسر الأحراش بالبردان، سار إلى ساحة الغابة التي تحاذي حقول القش في "بوجيراي". لمحه فلاح عجوز، كان يقف عاليًا على عربة ذات رفوف، يكدس الحزم التي كان يلقيها إليه رجل آخر، أصغر سنًا، من الأسفل. حياه توماس بالتحية التقليدية "بادي ديفو" ـــ الليتوانية لـ"عون الله" ـــ عندما توقف الرجل العجوز، ووقف منتصبًا على كومة القش، وبدأ يشتمه وقبضته المهتزة مرفوعة نحو الشمس. توماس، الذي بالكاد كان يعرف الرجل، ثم فقط بالنظر، شعر بالإهانة من هذا العرض من الازدراء، خاصة وأنه لم يفعل شيئًا يستحقه. الغضب الذي يثيره الغضب كان مفهومًا؛ لكنه كان مهذبًا، وقوبلت مدنيته بغضب الرجل العجوز لسبب واحد فقط: أنه كان سيدًا بولنديًا. تقطعت به السبل في العراء، ابتعد توماس بخطى بطيئة عمدًا ـــ حتى لا يعطي انطباعًا بالهروب ـــ ووجنتاه تحترقان، وفمه على شكل حدوة حصان (على الرغم من أنه كان ليكون آخر من يعترف بذلك) يرتجف.

شيء ما في كمين "باربارك" ذكره بذلك اليوم. فقط هنا كان هو و"هيلين" في "البريتسكا"، و"باربارك"... ولكن إذا كان "روموالد" وراء المؤامرة ـــ وبشكل لا يمكن تفسيره، لا يرحم، جاءت صورة "دومينيك" إلى ذهنه ـــ "دومينيك" المؤله، المدنس، الذي ظهر أكثر من مرة في أحلامه في زي "باربارك". "شركة لطيفة، هذا السيد بوكوفسكي" ـــ كانت "ميسيا" تقول، مع التركيز بشكل غير لائق على "السيد". "بصراحة، الرعاع الذين ندخلهم هذا المنزل"!

كان "روموالد" يفوح منه رائحة التبغ والقوة الذكورية ولم يكن لدى توماس رغبة في أن يفقده. عندما أدرك فجأة ما هو على المحك ـــ الصيد، والبندقية، وكل شيء ـــ شعر بالذهول لأنه كان لديه مثل هذه الأفكار.

تمكن من انتزاع بعض قصاصات القماش من جدته من أجل اللفائف وثبت لنفسه زوجًا من الأخفاف من اللحاء: لأنه إلى حيث كان ذاهبًا، المستنقعات، لن يفيد أي شيء آخر.

كانت معمل تقطير "بالتازار" يقع في الغابة، بعيدًا عن الطريق المطروق، وإذا جاءت الشرطة على الإطلاق، فذلك لتذوق جعة "بالتازار" محلية الصنع في الكوخ، وزجاجتان تكفيان لضمان النوع الصحيح من التقرير. لم يخدم المشروب استخدام "بالتازار" الخاص فقط (لم يستطع أن يسكر من الجعة)، وليس فقط كمهرب. منذ تفتيش اللجنة للغابة ـــــ تحت إشرافه ـــــ كانت قرية "بوجيراي" تحمل له ضغينة. كرم "سوركونت" تجاه المسؤولين الثلاثة، ومعنوياتهم العالية ووجوههم المحمرة وهم يصعدون على متن "البريتسكا"، وكيف غنوا معظم الطريق، وكيف كاد أحدهم أن يسقط ـــــ لم يمر أي من ذلك دون أن يلاحظه أحد. (ارتفعت المعنويات لاحقًا لدرجة أنهم لم يتمكنوا حقًا من تمييز العشب من الأشجار). كانت هناك أسباب، كلها مدروسة بعناية، جعلت "بوجيراي" حريصة على أن تصبح الغابة ملكية للدولة، حتى على حساب التخلي عن امتيازات معينة، مثل الصيد غير المشروع. على الرغم من أن لا أحد باستثناء "جوزيف" كان يعرف القصة الحقيقية وراء تاريخ تقديم تقسيم أراضي "سوركونت"، إلا أن غرائز الناس أخبرتهم أن الأراضي الحرجية ستكون حاسمة في المفاوضات مع القصر حول المراعي المتنازع عليها. كانوا غاضبين من "بالتازار" لتواطؤه مع "سوركونت"، واستُخدمت الخمرة لإسكات أكثر الحناجر صخبًا. رفض واحد وكانوا من المحتمل أن ينتقموا بقيادة الشرطة مباشرة إلى معمل التقطير في الغابة.

الآن عندما كان الرجال يتجمعون بعد قداس الأحد بجانب جدار الكنيسة في "غينه"، كان الحديث في الغالب عن الغابة.

"ذلك سوركونت ثعلب." كان الشاب "واكونيس"، لم يعد يرتدي سترته العسكرية بل يرتدي مثل... "جوزيف الأسود" في سترة من القماش الخشن ذات ياقة عالية. لم تُثر حلقة القنبلة اليدوية مرة أخرى؛ كانت شيئًا من الماضي، مدفونة ومنسية.

"يمكنك المراهنة"، قال، وهو يمرر طرف لسانه على حافة سيجارته الملفوفة يدويًا، "يمكنك المراهنة أنه لن يتخلى عما هو له".

وجه جامد، دون نظرة أو ارتعاش في الوجه ليكشف عن نية الرجل. لكن السخرية ـــــ السخرية التي تستهدف السذج ـــــ لم تفت على "جوزيف."

"ربما ليس الآن لن يفعل"، اعترف. "لكن أعطه عامًا أو عامين".

"بالتازار يغطيه".

"إنه يربط حبل المشنقة بنفسه".

"وهو يضيق طوال الوقت. يقولون إن امرأة يوتشنيفيتش ستطرده".

"من قال؟"

"اليوم، في الكومونة. جاءت تبحث عن منزل له. هو يخرج، هي تدخل".

بصق "جوزيف" كدليل على اشمئزازه. "أجير، هاه؟ أوه-أوه، هو ليس بهذا الغباء".

"تعتقد أنه لن يفعل؟"

"لن يجعله أحد يترك الغابة. سيقاتل على طول الطريق. خذه إلى المحكمة ويمكنك الانتظار عشر سنوات أخرى"...

"لا أكثر. إنه يركض خائفًا. تسقط حبة صنوبر ويعتقد أن السماء تسقط".

"ما لا يفعله الشراب بالرجل".

موقف "واكونيس"، المعبر عنه بهذه الطريقة، دليل على أن حكم المرء على الآخرين يجب أن يستند دائمًا إلى مراقبة صارمة، تحدث باسم غالبية القرويين: الكثير من الدم الفاسد والكثير من الاشمئزاز. حيث كان رجل آخر سيتخذ مائة خطوة بخطى ثابتة، كان "بالتازار" من النوع الذي يركض في دوائر، يلهث، ويضرب بقبضتيه على جدران وهمية. لكن "بالتازار" كان جاهلاً بمشاعرهم، بذلك المزيج من الاشمئزاز والشفقة. السجن الذي كان يصارع فيه كان حقيقيًا، وإذا كان أي شخص قد أخبره أنه يتخيل أشياء كان سيتجاهلها على أنها كلام رجال عميان وأغبياء.

كانت الجدة "ميسيا" مثال الصفاء. وهي تتأرجح على أمواج نهر عظيم، عاشت في صمت دائم لمياه لا زمن لها. إذا كانت الولادة ممرًا من حماية رحم الأم إلى عالم من الأشياء الحادة، المؤلمة، فإن الجدة "ميسيا" لم تولد قط، فقد كانت موجودة دائمًا، ملفوفة في شرنقة حريرية من "الكائن."

قدم، مبتهجة بنفسها، بمجرد هبة اللمس، تشعر باللحاف الناعم وترفعه. يد تسحب المادة الرقيقة حتى ذقن النائم. ضباب أبيض في الخارج، ثرثرة الإوز، فجر خريفي يخط نافذة المنزل بقطرات الندى. لا يزال هناك وقت للنوم، أو بالأحرى للمكوث على الحدود، وراء متناول ما يمكن صياغته في كلمات وأفكار، في عالم لم يتمايز بعد إلى بطانيات وأرض وأناس ونجوم، تاركًا فقط هذا العالم الفضائي ــــ والرهبة.

تجربة تلك الصباحات علمت "ميسيا" نسبية الأسماء المعطاة للأشياء، ونسبية كل الأمور البشرية. حتى تعاليم الكنيسة، يمكننا أن نفترض، لم تكن ندًا لتلك الحقيقة الخاصة بها ـــ غريزية، عميقة؛ والصلاة الوحيدة التي طلبتها على الإطلاق كانت واحدة يمكن اختزالها في تعويذة واحدة: "أوه". كانت الجدة "ديلبين" تتحدث عنها دائمًا على أنها "تلك الوثنية"، وكانت على حق. لأن "ميسيا" كانت غير مثقلة بذلك النوع من الخلل الذي يكشف عن نفسه في سعينا البشري. غير قادرة على ممارسة إرادتها نيابة عن هدف ما، ومزدردية لكل الأهداف، تخلت. لا عجب أنها كانت محتارة من هموم واحتياجات الآخرين. رغبات، احتياجات؟ لماذا؟

مستيقظة تمامًا، مستلقية في السرير وعيناها مفتوحتان على مصراعيهما، تتأمل في تفاصيل ذات طبيعة دنيوية، لا تبالغ أبدًا في أهميتها، ولا تنهض أبدًا من السرير لأداء مهمة أهملتها في اليوم السابق أو التي تتطلب اهتمامًا عاجلاً. مدركة لمكانها في اللانهائي، تداعبها يد عملاقة، تكتفي بالخرخرة. هموم الآخرين كانت تنتمي إلى عالم الأشياء التي حدثت، لا أكثر. "لوك"، على سبيل المثال (يا له من زوجين شكلاه!)، أو "هيلين" (الحمد لله أن هذه نهاية علاقتها مع "روموالد"!)، أو الإصلاح... أو "تيكلا"، التي أجلت عودتها إلى الوطن كثيرًا لدرجة أن الناس توقفوا عن إعطائها أي مصداقية.

إذا لم تكن الجدة منزعجة من مثل هذه الأمور، فإن غير المرئيين، تلك الأرواح التي تتجول في أرضية الصالون الصارخة وأثاثه، كانوا منزعجين من لا مبالاتها. إلى جانب ذلك، كانوا قد يئسوا منها منذ زمن طويل. لم يكن هناك هجوم على الأبرياء، أولئك الذين لم يثقلهم قط وعي بالخطيئة. ومع ذلك، جاءت تجربتهم في متناول اليد في إخضاع توماس لنوع جديد من الإغراء.

وهو ينكش أنفه، وهي عادة تفضل التأمل الخريفي، بدأ توماس، لأول مرة في حياته، في إصدار حكم على "ميسيا" كشخص. كانت أنانية فظيعة، لا تحب أحدًا سوى نفسها. ولكن ما كاد يُنطق بالحكم حتى وُلدت الشكوك. صحيح، كان على المرء فقط أن ينظر إليها ليكتشف المتعة التي كانت تجدها في ركبتيها، وفي انحناءة وسادتها، والطريقة التي غرقت بها في لحاف ريشها الداخلي (كان بإمكان توماس أن يشعر ـــ أو تخيل أنه يستطيع أن يشعر ـــ بـ"ميسيا" في الداخل). ولكن ما الذي جعله يعتقد أنه مختلف؟ هو أيضًا كان يحب أن يتذوق رائحته الخاصة، وأن يتكور ويبتهج بكونه هو. ألم يكن ذلك سببًا للامتنان لله، للصلاة؟ أم كان خادعًا؟ كانت جدته متدينة، تذهب إلى الكنيسة. صحيح، ولكن ألم تكن هي كاهنة قداسها الخاص لنفسها؟ نقول: الله. ولكن ألا يمكن أن يكون قولها حبنا

لذاتنا، وسيلة لتمجيد ما نعشقه حقًا: دفئنا الخاص، نبض قلبنا الخاص، التفافنا بأنفسنا في دفء بطانية.

لا يمكن إنكار مكر الشياطين. كم كانوا بارعين في تقويض ثقة توماس بصوته الداخلي، لسرقة راحة باله من خلال مناشدة وسوسته. لم يعد بإمكانه أن يتوسل إلى الله من أجل النور؛ وهو راكع، كان دائمًا يشعر بأنه يركع أمام نفسه. أراد توماس أن يثق في الحقيقي، وليس في سحابة، تتغذى بما هو بداخلنا، معلقة فوق رؤوسنا. بالكاد أنهى صيامه، لذلك، بالكاد حرر نفسه إلى حد ما من تعذيبه الذاتي وتذوق بضع صباحات من السعادة، حتى فقد توازنه مرة أخرى. مسح الضباب من النافذة، ووجهه يجر دموع العزلة.

في هذه الأثناء، كل صباح عند الفجر، كانت الجدة تبتهج بملذاتها، ولم تحلم أبدًا بمدى إفسادها.

"قريبًا سينتهي الأمر." اهتز الصوت —— إشارة —— فوق العشب الجاف الذي يتردد فيه صرير الصراصير. وهو يتأرجح على قدميه، وقف "بالتازار" على الدرب، مصعوقًا باضطراب كل شيء. ماذا كان يفعل هنا؟ أشياء، ضبابية ومسطحة، تتحرك أمامه، تسخر منه بغرابتها. كان يحوم في وسط فراغ شاسع، زاده سوءًا غياب... أي مركز، أي دعم أرضي، الأرض تتفلت، تنزلق بعيدًا، بلا معنى. استمر في السير، مارًا عبر رذاذ من الشرر: حشرات، دائمًا نفس الشيء، تقفز بلا هدف.

"قريبًا سينتهي الأمر".

درجات شرفة صارخة، غرفة فارغة —— كانت الزوجة والأطفال في "غينه"، يزورون الجدة —— إبريق جعة على الطاولة، رغيف خبز بجانبه. أمال الإبريق، وأخذ بضع رشفات، ثم أنزله بقوة كاملة على الأرض. تدفقت جداول من السائل البني-الذهبي على شكل نجمة فوق الألواح الخشنة. أمسك بالطاولة، مشمئزًا من رائحة الخشب المطلي بالقلوي، من رائحة المنزل الكريهة. وقعت نظرته الباحثة على الفأس المسنود على الموقد المبلط. سار، والتقطه، وجره على الأرض بيده الحرة، وعاد إلى الطاولة بحركة متأرجحة. مصوبًا بدقة، تأرجح وضرب الطاولة من الأعلى، ليس عرضيًا بل طوليًا، فانهارت. تدحرج رغيف الخبز على الأرض حتى توقف، مقلوبًا، كاشفًا عن باطنه الطري.

ثم أحضر "بالتازار" زجاجة مربوطة بالخوص من الغرفة الأخرى، ووضعها على الأرض، وركلها. استند إلى الحائط، وشاهد السائل الفقاعي ينتشر ويحيط بكل من الحطام والرغيف المقلوب. لقد

أسره ذلك، ذلك الانسكاب الذي، منفصلاً عن محيطه، برز الآن بشكل أكبر. تسربت الأطراف المنتفخة بكسل تحت المقعد، تاركة جزرًا صغيرة غُمرت للحظات. كان هناك شيء لا يرحم في حركته، بعض عناصر الضرورة، وكان الشيء الوحيد في ذهن "بالتازار" وهو يأخذ أعواد الثقاب من جيبه.

ثم جاء: إدراك تلك اللحظة على حدود ما لم يكن قبل ثانية وما كان بعد ثانية، مرة واحدة وإلى الأبد، حتى نهاية العالم. وبينما ضغطت إحدى اليدين على الصندوق، كانت أصابع الأخرى تقترب من العصا الصغيرة ذات الرأس الداكن. ربما طوال الوقت لم يكن يريد أن يكون سوى هذا: فعل خالص، التوتر المطلق للفعل، دون عواقب تضطهده عندما، بعيدًا عن متناول الماضي، سيركز على فعل جديد. فرك عود الثقاب على الصندوق وأصبح مفتونًا بالشعلة، كما لو كانت اكتشافًا، حتى بدأت الشعلة تحرق، ثم انفرجت الأصابع وسقط عود الثقاب على الأرض، منطفئًا. أخرج آخر، وضربه بقوة، وألقاه أمامه. انطفأ. أشعل ثالثًا، وانحنى، وقربه ببطء من الكيروسين المنسكب.

في طريقه للخروج، قلب المقعد في مسار الشعلة الزاحفة. سترته، غير مربوطة، كانت مفتوحة؛ وجيبه منتفخًا بالتبغ وزجاجة فودكا.
"قريبًا سينتهي الأمر".

المستقبل. أي مستقبل؟ صوت ينادي في الأفق؛ سماء شاحبة، صافية؛ صراصير تصر؛ ليل، نهار، ليل... ألا تكون مرة أخرى، زائدة عن الحاجة. واليقين، الذي جاء من مكان ما، قوّى نفسه. سار بلا وجهة في ذهنه. تجول بلا هدف. استدار مرة واحدة، ثم جاء رعب الأثر اللاحق، من اللا رجعة الذي أثارته رؤية الدخان يتسرب من خلال النوافذ؛ وفي احتجاج ـــ احتجاج "بالتازار" الأبدي ـــ ضد القانون الذي لا يترك شيئًا وشأنه بل يقيدنا بعواقبه، أمسك بالزجاجة بيد مرتعشة، وتمرغ في العشب، ونهض على أربع، وأطلق صوتًا نعرفه على أنه صرخة ولكنه يصدر من الحلق كهمس غرغرة، حشرجة.

كان "بالتازار" واعيًا بما يكفي ليعود ويطفئ النار. لكن مثل هذا المسار لم يخطر بباله أبدًا، الصرخة المكتومة لا تأتي من الفعل نفسه، ليس مما تم فعله، بل من ضرورة فعله؛ وشعر، ربما حتى وهو يمسك بعود الثقاب، بأنه حر وأنه سيفعل ما يجب أن يكون... تم. بنفس اليقين الذي لا بد أنه عرفه، وهو راكع على أربع كحيوان، أنه لا عودة لإخماد النيران.

شخصية، تصف دوامات بلون القش في الهواء بسيف خشبي، كانت تتجه نحوه كأفعى. استطاع "بالتازار" أن يميز زوجًا من العيون الموضوعة رأسيًا، وجسدًا جاثمًا بخلسة. قفز على قدميه، وانتزع عمود سياج كبيرًا، وأخذ نفسًا عميقًا: كان العشب فارغًا. فقط بعض خيوط العنكبوت، علامات الصيف الهندي، تلوح في الهواء: خطوط مقوسة قليلاً من التوهج. غابة مذهبة، هدوء منتصف الصيف. لا صديق ولا عدو؛ لا أحد باستثناء وجود لا يمكن فهمه — وبالتالي مهدد. استدار لصد هجوم من الخلف. صرخت عقعق من وادٍ قريب. بحلول الآن كان الدخان من النوافذ يتشابك، ويتجمع في خيوط تتدلى على طول ألواح السقف وتغطي تيجان الزان الأبيض بضباب غائم. "قريبًا سينتهي الأمر".

"الغابة".

"محمية دولة".

"لا".

"لمن؟"

"لبالتازار".

"إنه مكان بالتازار يحترق".

بدأ أهل "بوجيراي" يتدفقون من البساتين، إلى الساحات والحقول المحصودة، من أجل رؤية أفضل. أطلقوا ناقوس الخطر، وأمسكوا بالدلاء، والأعمدة ذات الخطافات، والفؤوس، وبدأوا في التدافع. ركضت الكلاب والأطفال خلف الرجال، وحفلة من النساء، مدفوعات بالفضول، شكلن المؤخرة.

في التسلسل التالي للأحداث، دعونا نميز بين المظاهر والواقع. في إعادة بناء أي حادثة ماضية، بغض النظر عن مدى اتساق الحقائق منطقيًا، هناك دائمًا بعض الفجوات الخفية التي، عند ملئها، تلقي بكل شيء في ضوء مختلف. إذا نادرًا ما يُبذل الجهد، فذلك لأن الناس أكثر رضى بالاعتماد على ما يُؤخذ على الفور كأمر مسلم به.

"بالتازار"، بعد إشعال النار في منزله، كمن في كمين حيث انتهى خط السياج على جانبي الممر. كان يترقب لأنه كان يعلم أن النار ستكون مرئية من "بوجيراي" وأنهم سيأتون لإطفائها وأنه لا يستطيع السماح بذلك. كانت تلك هي المظاهر. في الواقع، كان بريئًا من أي دوافع من هذا القبيل، لكنه جلس في العشب، وأسنانه تصطك، وتهدده أشكال زاحفة وعقعق خارقة للطبيعة. كان الكثير يرجع إلى

التنافر بين الجسد والروح. أُعطيت الروح للفوضى والرعب، حتى مع بقاء الجسد يقظًا، وردود أفعاله سليمة ــــ ثقيل الأطراف ولكنه لا يزال قويًا. بالنسبة للآخرين، بدا هذا وكأنه طاعة لإرادة ما، منحنية على هدف محدد.

كانوا يستطيعون رؤية ألسنة اللهب الآن، ويسمعون الكلب، الذي قال نباحه المثير للشفقة إن النار قد امتدت بالفعل إلى الكوخ. محولين انتباههم بالمشهد، كانوا أكثر دهشة عندما قفز، أشعث ومشوشًا وشرسًا، ويده لا تزال تمسك بعمود السياج. أمال ذراعه في دفاع عن النفس. لم يكن يتوقعهم، هؤلاء الناس يتقدمون كجدار حجري متحرك مشع بوجوه عديدة.

على رأسهم وقف "واكونيس" العجوز. عندما رأى "بالتازار" يرفع ذراعه بالعمود، حمى نفسه بفأسه. جسد "بالتازار"، مسجلاً الخطر، فعل ما كان عليه أن يفعله. بكل القوة التي منحها له ذراعه وكتفه، أنزل العمود على جمجمة "واكونيس"، مسقطًا إياه.

"لقد قتله"!

"قتله"!

ثم صرخة أخرى، واحدة لاستدعاء الروح الجماعية: "إي فيراي! إلى الأمام يا رجال"!

كان ذلك في فسحة من الجذوع المقطوعة تتخللها أشجار البلوط الصغيرة، والغطاء الأخضر هنا وهناك منقط بالحفر المظلمة للحفر السابقة. حوالي اثني عشر شخصًا في مطاردة صاخبة، يقفزون فوق الحفر وذيول قمصانهم ترفرف. كان "بالتازار" يسعى إلى أمان الغابة الطويلة. عالمًا، دون تفكير، بأنها مسألة حياة أو موت، كان بالكامل تحت إمرة جسده الواقي والوجهة التي تمليها عليه: البندقية المقطوعة المخزنة في شجرة البلوط.

حاولوا قطع طريقه، عالمين أنهم سيخسرونه بمجرد أن يصل إلى الغابة؛ تأرجح إلى اليسار؛ مرة أخرى قطعوا طريقه، مما أجبره على العودة والالتفاف وأخذ غابة الألدر. على جانب واحد من الغابة كانت هناك مراعي؛ على الجانب الآخر، أراضٍ زراعية ــــ حقول تفصل الغابة عن خط الأشجار.

بينما غرقت أقدام "بالتازار" في الوحل، مضغت حذاؤه كتلاً من الخث الأسود. كان لاهثًا جدًا لمواصلة الركض؛ حاول الاستمرار في التحرك، ولكن لعدم وجود نفس لديه، سقط على أربع وزحف، وقلبه يخفق، وصوته ينتحب. أخذ الآخرون استراحة من المطاردة لعقد مجلس. طريقة واحدة فقط للقبض

عليه: تطويق الغابة وتعقبه بأسلوب الصياد. أخذوا مواقعهم المخصصة. "بالتازار"، وهو يسمعهم، بحث في الأرض عن هراوة ـــ كان قد تخلص من عمود السياج أثناء فراره ـــ وأمسك بغصن من الحطام متعفنًا لدرجة أنه انهار في يده، وأخيرًا اضطر إلى الاكتفاء بصخرة.

كان لدى أهل "بوجيراي" العديد من الحسابات لتسويتها مع "بالتازار"، مع هذا المجرم الذي قفز عليهم بنيته القاتلة، وكل ذلك لأنهم حاولوا أن يمدوا له يد العون. بطبيعة الحال، كان في أذهانهم قتله. لكنهم كانوا يعرفون قوته، ويعرفون أنهم سيضطرون... إلى التكاتف عليه، وحفزوا بعضهم البعض بشتمهم البذيء.

عقارب الساعة ترتعش بشكل متشنج إلى الأمام؛ إيماءات، نظرات، وحركات تُؤدى في وقت واحد في جميع أنحاء العالم؛ مشط يلامس شعرًا طويلاً أملس؛ مرايا متلألئة؛ أنفاق يتردد فيها الصدى؛ مسامير سفن تضرب مياه البحر... كان قلب "بالتازار" يدق الوقت؛ سال لعابه من فمه. لا، ليس بعد! دعني أعيش، لا يهم أين، في أي مكان، فقط دعني أعيش! باحثًا عن غطاء، عانق الأرض المستنقعية، ونكشها كما لو كان يحفر حفرة، ليجوف مكانًا للاختباء. لأن الحاضر ـــ وجوده هناك، محاصرًا ـــ كان بمثابة تأكيد لبعض الأصوات أو الأحلام، لما يجب أن يكون، حتمًا. ولكن لم يكن هناك مكان يختبئ فيه. غابة الألدر، كثيفة الشجيرات عند الحافة، كانت أكثر قتامة حيث كان، مظلمة جدًا بحيث لا تنمو فيها أي شجيرات، والأرض منتفخة بجذور وعرة متشابكة بآثار الأبقار والفطر المسطح من الروث. هدف سهل. البندقية. أن تكون لديه البندقية الآن. ولكن لم تكن هناك بندقية.

ربما كان ينبغي لـ"بالتازار" أن يذهب لمقابلتهم ويداه مرفوعتان. لكن ذلك افترض القدرة على التمييز بين النار والأشباح، وشعب "بوجيراي"، ولكن بالنسبة لـ"بالتازار"، كان الناس جزءًا منه، كانوا بطريقة ما جلاديه. عيناه جاحظتان، تنفصلان عن محجريهما، ضغط على الصخرة في قبضته.

جدف الرجال جذوع الأشجار مثل كاسري الفرشاة العاديين. يجب أن تُعزى استراتيجية "بالتازار" إلى ما تبقى من وعيه. بدلاً من الانتظار حتى يُقبض عليه، شن هجومًا، مهاجمًا أولئك الذين يقتربون من جانب حقل المحاصيل. المفاجأة، حسب تقديره، كانت أفضل فرصة له للهروب. لكنه كان ثقيلاً جدًا، وظل يتورط في الوحل، ولم يتمكن من اكتساب الزخم.

شاب، أشاد به الفتيات كأفضل راقص في جميع حفلات الرقص القروية، كان أول من التقى به. اقتربا من التصادم على بعد قدمين. صوب "بالتازار" على الوجه. الآن، أن تكون راقصًا جيدًا هو أن تكون موهوبًا... بنعمة معينة؛ انحنى الشاب — ليس قبل ربع ثانية — ولامسته الصخرة جانب رأسه. شجرة واحدة خلفها قفز أنقذت "بالتازار" من نصل فأس. ارتفع صياح. "من هنا! من هنا! من هنا"!

مرة أخرى وهو يركض، لف "بالتازار" كلتا يديه حول شتلة وسحبها من جذورها. كيف اقتلع الشجرة، وهو إنجاز يفوق القوة البشرية، كان لغزًا. وهو يلوح بالشتلة كهراوة عملاقة، ملطخًا بالطين، وقف في وجه مهاجميه.

"من هنا! من هنا! من هنا"!

كانت بعض الأغنام تثير سحابة من غبار المحاصيل في الشمس. قنفذ يحفيف بين أوراق شجرة تفاح. عبّارة تتحرك بعيدًا عن الشاطئ؛ عليها رجل يمسك خيوله باللجام، ويثبتها وهي تستنشق من خلال خياشيمها. من أعلى مساحات الغابة الشبيهة بالطحلب جاءت نداءات الكركي في مرورها: كروووو-كروووو.

التقيا في فسحة. هبت الهواء بينما تأرجح "بالتازار"، وفي نفس الوقت هبط عمود على كتفه، مما أفقده قبضته وأجبره على إسقاط الشتلة. عصا طويلة، ذات خطاف حديدي، من النوع المستخدم في إطفاء حرائق الأسطح، ومقبضها السميك من خشب الدردار يحمله ابن "واكونيس" بكلتا يديه، ارتفعت في الهواء.

لو أن لحظة من كل ما يحدث يمكن إيقافها، وتثبيتها، وفحصها في وعاء زجاجي؛ لو أن بالإمكان فقط تقشيرها عن اللحظة التي سبقتها واللحظة التي تلتها، ونسيج الزمن ممدودًا في محيط من الفضاء! لكن لا.

نزل الخطاف على جمجمة "بالتازار". ترنح، وسقط بكامل طوله. صمت باستثناء أنفاس رجال متعبين، وصدى عبارة "من هنا!" وخطوات الآخرين، قادمين على عجل.

تحولت دار "بالتازار" وإسطبله وحظيرة بقره وخنزيره إلى رماد. من مزرعته في الغابة، كل ما نجا هو كومة القش.

"كان يستحقها".

"ابن الشيطان".

مات "واكونيس" العجوز، لكن "بالتازار" عاش. نُقل إلى منزل حماه في "غينه". أرسل "سوركونت" في طلب الطبيب على الفور. لم يرَ توماس جده بهذا الغضب من قبل. دائمًا رجل هادئ الطباع، كان يزمجر الآن عندما يتحدث، ويستدير فجأة على عقبيه، وشاربه الرمادي القصير ينتفش، وشفتاه تمسكان بعبارة لا يمكن نطقها. لا يزال "بالتازار" في غيبوبة، لذلك نزل الجد إلى القرية ليحافظ على سهر بجانب السرير.

مصباح كيروسين كبير كان يحترق ببراعة على المقعد. استلقى "بالتازار" في السرير، ورأسه مسنود بوسادة واحدة. كان قد غُسل بالفعل، ولم يترك أي أثر للطين والدم المتجمدين، ووجهه الشاحب برز على خلفية الضمادة البيضاء من القماش الخشن. مُنح المناولة الأخيرة، لكن لاحقًا، على عكس كل التوقعات، فتح عينيه. نظراته عبرت عن حيرة، وسلام. بدا غير متأكد من مكانه، مرتبكًا من كل هذه الضجة.

الكاهن، ملزمًا بختم الاعتراف، لم يكشف شيئًا مما قيل له، معلنًا فقط أن "بالتازار" كان في كامل قواه العقلية. (ربما كانت الصدمة هي التي أنقذته من شبكة تشابكه). كان بمفرده مع الكاهن لفترة طويلة. لا يُعرف شيء عن محادثتهما، على الرغم من أنه لاحقًا، مع مرور الوقت، بدأ الأب "مونكيفيتش" يلمح إليها، في البداية بحذر ولكن بعد ذلك بجرأة أكبر، مبررًا هذه التسريبات بالاستخدام الذي صنعه منها. لأنه كان من عادته، عند تناول الشرور التي تتربص بروح الإنسان، أن يوضح عظاته بأمثلة؛ وهكذا أصبحت العديد من الحقائق في قضية "بالتازار" معرفة عامة.

على الرغم من كل تجاربه كمعترف، على الرغم من كل ما سمعه في كرسي الاعتراف، إلا أن الأب "مونكيفيتش" اهتز. ليس من خطورة خطايا "بالتازار" — خطايا لم يُعترف بها من قبل حتى الآن، كما لو أن إدراك إثمها قد وُلد فيه للتو — بقدر ما كان بإصرار الرجل العنيد، بل والمستسلم، على لعنته الخاصة. قال الكاهن إنه لا يحق له أن يتحدث بهذه الطريقة، وأن رحمة الله لا حدود لها، وأن التوبة هي كل ما هو مطلوب للحصول على الغفران. وتاب "بالتازار" عن خطاياه، بحرارة، بصدق، لدرجة أنه تاب عن كل ما كان عليه، ولم يدخر شيئًا. استمع باهتمام إلى الكاهن لكنه في لحظة معينة قاطعه: "لا شيء يمكن أن ينقذني. إنه موجود".

الوضوح الذي كُشف به الماضي في خيال "بالتازار" كان كدائرة مضيئة محاطة بظل، خرج منها وسيعود إليها. لقد تعلم أن يتوقع تلك الحيل، الجديدة باستمرار، التي فرض بها عليه نفس العبء من المعاناة. وكلماته "إنه موجود" رنت بيقين لدرجة أن الأب "مونكيفيتش" ألقى نظرة عصبية حول الغرفة.

معضلة ميؤوس منها. كيف تمنح الغفران والطقوس الأخيرة لشخص مذنب بخطيئة بهذه الخطورة. الكاهن، مطيعًا لضميره، حاول انتزاع من "بالتازار" على الأقل مظهرًا من الأمل. ما حصل عليه هو رضوخ رجل يحتضر، حيث كان الرجل ضعيفًا جدًا بشكل واضح للاحتجاج. الساعات التي قضاها بصحبة "بالتازار" تركت الكاهن يشعر بالتوتر، كما لو أن العلة التي دُعي لعلاجها كانت معدية؛ كما لو أنه، لكونه عاجزًا أمام الشر، دُعي للعمل كمجرد شاهد.

عندما دخل الآخرون الغرفة، "بالتازار"، سواء عن قصد أو من هذيان، لم يظهر أي علامة على الاعتراف بوجودهم. مأسورًا بنقطة ما في الفضاء، تمتم: "البلوط".

ربما كان هذا إشارة إلى البندقية في شجرة البلوط، وهو رد فعل طبيعي على فراش الموت، رد فعل الاستبطان، أو ربما كان تلميحًا إلى شيء آخر. دخل في غيبوبة مرة أخرى.

وصل الدكتور "كون" في وقت متأخر من تلك الليلة. قال إنه ربما، إذا أمكن إجراء عملية جراحية له... لكن ذلك كان سيعني رحلة طويلة بالعربة ثم رحلة بالقطار إلى مستشفى كبير —— وهو ما يعني، في الواقع، الحفاظ على السهر وترك الطبيعة تأخذ مجراها. لم يعش "بالتازار" ليرى شروق الشمس. كانت دروع عباد الشمس الداكنة المنقطة تخرج للتو من الضباب؛ الدجاج، وهو ينعق بنعاس، كان ينفض الندى من ريشه عندما ألقى "بالتازار"، وهو يرتدي نفس التعبير الحائر، نظرة أخيرة على عوارض السقف في الأعلى ووجوه الناس.
"كلنا معًا الآن يا رفاق".

كانت تلك كلماته الأخيرة، الغامضة، وبعد دقائق قليلة مات.

بحلول الصباح لم يكن هناك المزيد لرؤيته. بقيت صورة "بالتازار" الحي لتوماس كما كانت دائمًا، لم يغيرها قناع الموت الهادئ: الشفة العليا المرفوعة قليلاً، البكرية بطريقة ما؛ الوجه المستدير، الشبيه بالفتيان بظلاله الهاربة وآثار ابتسامة. فليكن دائمًا كذلك.

"ألم أقل لك؟ شرب نفسه حتى الموت، الحقير!" رسمت الجدة "ميسيا" علامة الصليب، ثم أضافت: "يا رب، أضئ روحه".
تنهدت "أنتونينا" بعمق ورثت مصير الإنسان: "حي اليوم، يتعفن غدًا." فقدت "هيلين" كل ذكرى لخطتها لإعادة توطين "بالتازار" والانتقال إلى كوخ حارس الغابة بنفسها. لم تندم إلا على أن الكثير من الممتلكات قد احترقت، وندمها نابع... ليس من الأنانية بقدر ما هو من الحرص على ثمار العمل البشري.

حضر القصر كله الجنازة. هطل المطر أثناء الدفن، وتشبث توماس بجانب جدته، وهو يمسك المظلة فوقها. وبينما كان الكاهن يهز المرشة، اندمجت قطرات الماء المقدس مع الأمطار التي تتساقط في أوراق البلوط.

كلما تأمل في قضية "بالتازار"، كلما ازداد ارتباك الكاهن. أي استنتاجات توصل إليها اكتسبت لديه قوة الاقتناع الشخصي فقط بعد أن اعتاد على إعلانها بصوت عال، على تقوية إيمانه بالتكرار المستمر. تحدث عن أولئك الذين رفضوا دخول الروح القدس؛ عن إرادةٍ الإنسان الحرة، المصممة لقبول أو رفض الهبة. شبه الإرادة بنبع على قمة جبل — يندفع، ينسكب بلا هدف، يبحث عن طريق حتى، مسترشدًا بقوة زخمه الخاص، يجري على هذا الجانب أو ذاك.

بعد وفاة "بالتازار"، الأب "مونكيفيتش"، على الرغم من أنه ليس واعظًا أو لاهوتيًا ماهرًا بشكل خاص، أصبح فجأة بارعًا في تحريك جمهوره، ونجاحه يرجع ليس أقله إلى فهم ضمني: كان بإمكانهم دائمًا رؤية الرجل وراء المثال. منذ ذلك الحين، احتل "بالتازار" مكانة بارزة في ذاكرة الرعية. كانت النساء يستحضرنه لإصلاح أزواجهن من عاداتهم غير المعتدلة.

أقام جد توماس عدة قداسات من أجل راحة روح حارس الغابة. قبل الكاهن المال بتواضع، وفي نفس الوقت غاضبًا من هذا العرض غير الضروري — ولكن غير القابل للشفاء — للتواضع أمام أسياده. سرًا، كان لديه أفكاره الخاصة. في بعض الأحيان كان يميل قليلاً إلى رؤية "بالتازار" كضحية للقصر — قليلاً فقط، لكنه كان يميل.

رحل "بالتازار" الآن، وكلمة "رحل" يصعب تخيلها عندما تُنطق بشفاه ستجد نفسها أيضًا بعد بضع دقائق أو سنوات بين الراحلين. لكن الأحواض التي تخص معمل تقطير "بالتازار" كانت متخيلة،

ملموسة جدًا. نقلها أهل "بوجيراي" أقرب إلى القرية واستخدموها بشكل مربح، وفي الوقت المناسب أصبحت سببًا للكثير من المشاحنات وحتى اتهامات بالسرقة، وهذه تأتي من عائلة المتوفى. الخنازير البرية، في هذه الأثناء، استفادت جيدًا من حديقة "بالتازار."

65

بساتين البتولا في مايو خضراء فاتحة؛ مؤطرة بغابات التنوب المظلمة، تبعث ضوءًا أكثر ملاءمة لكوكب الزهرة. في الخريف تصبح أوراقها الصفراء الزاهية رقائق متلألئة من الشمس، والحور يشتعل باللون الأحمر في تيجان ثرياته. توت الروان المنتفخ، وقشور النباتات الصفراء، والأوراق المتشابكة على الدروب تضيف المزيد من الألوان إلى أكتوبر في الغابات.

كانوا يصطادون المكان الذي انحدرت فيه التلال إلى المستنقعات ورأوا أمامهم منحدرات مكدسة في جمال متعدد الطبقات. كان هواء الصباح باردًا، صافيًا. لف "رومووالد" يده على شكل بوق ونادى الكلاب: "ها لي، توه لي! ها لي، توه لي"!
"أوووهلييي" ــــ جاء الصدى.

وقف توماس بجانبه، مرتاحًا من كل شكوكه وعذابه الذاتي. لقد فقدوا واقعيتهم في اللحظة التي جاءت فيها "بارباركا" إليه بعد القداس وأخبرته أن "رومووالد" سينتظره بعد أسبوع من ذلك الأحد لأنه كان اليوم الذي كان يخطط فيه لإخراج كلاب الصيد. "بارباركا". خبر زفافهما استُقبل في المنزل بهزة من الأكتاف وبعض الملاحظات غير اللائقة، وتوماس، الآن أكثر من أي وقت مضى، شعر بعدم الارتياح حولها. ومع ذلك، أرسل "رومووالد" كلمة ــــ لا شيء آخر يهم. لذلك لم تكن هناك مشاعر سيئة...، كان كل ذلك من نسج خياله. ترحيب "رومووالد" ــــ "لم أرك منذ زمن طويل! ماذا كنت تفعل؟" ــــ كان القشة التي قصمت ظهر البعير.

كان توماس سعيدًا. استنشق الروائح الحادة وانتفخت رئتاه بشعور بقوته الخاصة. ألقى بكتفيه إلى الوراء، واثقًا من أنه لو قفز، فإن مرونته ستحمله مائة أو مائتي متر.

قوس فمه تقليدًا لـ"رومووالد". "ها لي، توه لي"!
"جير جاكتراكينج"، تلعثم "فيكتور". كان إصبعه يشير إلى فسحة في الأسفل.

كانت الكلاب تجري في مجموعة. "لوتنيا" في المقدمة، تليها "دوناي" و"زاجراي". مع عدم وجود رائحة لمتابعتها، كانوا يركضون بعشوائية؛ حان الوقت لمناداتهم والانتقال إلى مواقف أخرى.

ارتفع العالم مضيئًا، بسيطًا؛ السلسلة التي تربطه بتوماس المهووس بأفكاره الخاصة انقطعت. إلى الأمام، سر. كان يشعر بقفل بندقيته البردان يلامس ظهره، وابتهج ببرودته. مهما كان مقدرًا له أن يحدث اليوم فلا بد أن يكون جيدًا.

بالنسبة لتوماس، كان المستقبل دائمًا مخزنًا للأشياء المعدة بالفعل، تنتظر أن تتحقق. كان يُكتسب من خلال هاجس، وكان حاضرًا بطريقة ما في الجسد. حتى أنه كان لديه مبعوثوه الخاصون في حيوانات معينة —— القط، على سبيل المثال، إذا حدث أن عبر طريقك. قبل كل شيء، كان على المرء أن يكون لديه أذن لذلك الصوت الداخلي، ليكون قادرًا على تمييز الأصوات الساطعة من الأصوات الباهتة. ولكن إذا كان المستقبل معطى بالفعل، إذا لم يكن يتشكل كما يمضي، حرًا في أن يصبح ما يشاء، فماذا بقي لإرادتنا وسعينا؟ كان ذلك شيئًا لم يكن لدى توماس إجابة عليه، عالمًا فقط أنه سيضطر إلى الخضوع للمراسيم التي تُقضى من خلاله وأن كل خطوة يخطوها كانت ملكه وليست ملكه.

اليوم كان يخضع. كان الصوت مليئًا بالسطوع؛ كان له رنين الكريستال. غرقت الأقدام في سجادة من أوراق متعفنة، وقرقعت بندقيته على حلقة في حزامه؛ صمت بين أشجار الصنوبر؛ كسارة بندق، مرقطة العنق، على الجناح؛ تلال نمل بلا حركة، الحركة الآن انتقلت إلى الداخل، إلى ممالك تستسلم بالفعل لنومها الشتوي. كان بإمكان توماس أن يتجول هكذا لساعات —— لو لم يتوقف "روموالد"، وهو يفرك فكه، ويتأمل أفضل طريق يسلكونه. التقت ثلاثة مسارات؛ استقروا على المسار الذي يحاذي جرفًا به انحدار حاد. في بعض الأماكن كان لديهم رؤية بانورامية لقمم أشجار التنوب التي تتدرج إلى نقطة أسفل أقدامهم مباشرة؛ في أماكن أخرى، الغابة، مضلعة بأودية مزينة بشجيرات بندق نصف عارية وخضراء زاهية في الأسفل، انحدرت بلطف" apostó .روموالد" توماس بالقرب من حافة أحد هذه الأودية وأخبره أن يراقب عن كثب أي حركة على الدرب وفي المعبر الضيق في الأسفل. بينما كان يراقب ظهور "روموالد" و"فيكتور" وهما يصغران، شعر بالخداع إلى حد ما: أولئك الذين يستمرون في الذهاب يبدو دائمًا أن لديهم الأفضل.

وقف مستندًا إلى جذع شجرة صنوبر. ثم جلس على الأرض، موازنًا بندقيته البردان على فخذيه. ضوضاء خشخشة —— مقابله. استدار في اتجاه الحفيف ورأى فأرًا، أنفه الصغير يطل من جحره

تحت فراش من الجذور. وخطمه مائل بشكل هزلي، شم الهواء، وقرر أن الساحل آمن، وانطلق راكضًا، مندمجًا جيدًا مع الغطاء ذي اللون المصفر لدرجة أن توماس سرعان ما فقده من بصره. حفيف آخر، هذا أشبه بتقشر هش، قادم من غصن مجاور، جعله يدير رأسه بسرعة. نهض على قدميه ومد عنقه: كانت شجرة تنوب عملاقة، تساقطت منها قشور. كانت طيور صغيرة ترفرف في التاج، ولكن باستثناء الرفرفة ووميض جناح اخترقه الشمس لم يتمكن من تمييز شيء. دار حول الشجرة لكنه لم يحسن رؤيته. أزعجه عدم معرفة أسمائها؛ الصغار، لمجرد... أنهم كانوا يصعب تحديدهم من مسافة بعيدة، دائمًا ما سببوا له أكبر قدر من المتاعب. "روموالد"، عندما سُئل عن تسمية أنواعها، كان يتجاهل الأمر بـ"آه، من يهتم."

هزه القطيع، بصعود مفاجئ من النباح من الداخل ارتفع كأنفجار أرغن في الكنيسة. ليست الأصوات نفسها بل جوقة تنطلق من القضبان الافتتاحية إلى نمطها الصاعد، الهابط الذي يجعله الصدى أكثر قوة. أمسك توماس بعقب بندقيته وظل يحول نظره من المسار المحمر إلى قاع الوادي، ثم يعود مرة أخرى إلى المسار. لم يكن هناك قراءة لأي اتجاه فيه، في النباح، في ذلك الصعود والهبوط المستمر، والمزج الذي، التراكم الذي إلى دوي عميق الحنجرة، كان مثيرًا للإعجاب لدرجة أنه تخلى عن محاولة تحديد موقعه. مع "روموالد" بجانبه كان سيفهم معنى تلك الموسيقى، وكان سيشعر بإثارتها، لكنه بمفرده لم يميز شيئًا، لغة غير مفهومة.

ثم بدا وكأنه يتلاشى. ومع تضاؤل الاحتمال جاء نوع من اللامبالاة التي يصاب بها المرء عندما تتطابق الأرقام جميعها ويتلاشى احتمال إعادة العد، عندما تكون الأمور على نحو يستبعد المصادفة. الخضرة في الأسفل، والممر، بمجرد وجودهما، كانا نفيًا لبعض التدخلات غير المتوقعة. ولم يكن توماس مخطئًا: غير متأكد من تصويب الصبي، وضعه "روموالد" في مكان قلما يحتمل فيه القتل (كان يعرف أنه معبر نادرًا ما يستخدمه الأرنب).

مرتاحًا من الاضطرار إلى الاستجابة لنداء الغابة، سقط توماس في أحلام اليقظة. عاطلاً، متحررًا من واجبه كصياد، بل ومبتهجًا بوقت فراغه، أزال حفرة بين الإبر وبدأ ينحت أخاديد صغيرة في الأرض بحافة حذائه. كانت إحدى تلك الألعاب الخيالية غير المتوافقة تمامًا مع سنواته: لتكن هذه قناة، ولتكن تلك النهر، الآن قناة أخرى هنا... في هذه الأثناء، استمر القطيع... في مساره مع الفضاء، وعاليًا فوق العواء، صفير الريح عبر تيجان الغابة الطويلة الأخشاب.

كيف كان بإمكانه اكتشاف ما هو غير مألوف في نباحهم، والتحذير الوارد في أصواتهم: احذر، احذر! لا؛ ضائعًا في أحلام يقظته، مشتتًا بهواياته التافهة، لم يستطع أن يشك في أن الحكم قد صدر وأن مأساة كانت في المتجر.

كل شيء حُسب للتأكد من أن الضربة أصابت بأقصى قسوة. ثقة بطل. الخوف الذي رعاه طويلاً، والتغلب على ذلك الخوف، ثم الرضوخ للضعف، للحب والرغبة، التي بدونها لن يكون الإنسان عرضة لغضب القدر؛ الابتهاج الوهمي، والوعد بأن ما عُني به مرة لن يتكرر أبدًا. بدون جهل، لا يمكن أن تكون هناك مأساة. ولكن ها هي، متجهة في طريقه ـــ ضوء الإضاءة الساطع، الذي كان يلعب الآن في طياته بتكاسل تحت الفحص اليقظ للمتفرجين الصامتين: أحمق، مجنون، لا يشك في شيء، يغريه سحر الصوت، يحفر الخنادق الصغيرة لخرابه.

قفزت الكلاب على ظبي. بعد الرائحة، وصفت قوسًا ضخمًا، بحيث وصل النباح الآن إلى توماس من الوادي. رفع رأسه وثبت نظره غائبًا على المصدر، بعيدًا جدًا حتى الآن ليكون تحذيرًا. ثم صاعقة؛ ليس لأنه صُعق برؤيتها؛ بل، بجسده كله شعر بتركيب الوادي يعيد ترتيب نفسه فجأة إلى شيء جديد وغير معروف. جاء كل شيء في آن واحد: العجب، ورفع البندقية على الكتف، والطلقة، والإدراك: "ظبي!" ـــ ولكن في جنون، في يأس من النتيجة، عندما حتى والإصبع يضغط على الزناد دفع العقل عليه يقين الإخفاق.

وقف توماس وفمه مفتوح. لم يفهم بعد، الإحساس بما حدث. انتزع أنين نفسه من فمه، وضربت البندقية الأرض بغضب، وأفرغ كل شيء، وهو يلهث، ركض من خلال قسوة القدر، وسقط على ركبتيه.

هز نسيم كفوف الصنوبر الرقيقة. لذا كان الحلم النهاري فخًا. لماذا، لماذا، عندما جعله صوته الداخلي واثقًا جدًا؟ كيف سيتحمل الإذلال؟ الآن فقط، تحت الأصابع التي تضغط على جفونه، أصبح الظبي ـــ وساقاه الأماميتان مطويتان، ورقبته منحنية إلى الوراء ـــ حقيقة. قبل ثانية واحدة فقط، ثانية واحدة فقط. لكنها حُرمت منه.

كان هناك حفيف قريب؛ خرجت "لوتنيا" من الأحراش، وهي تنتحب، وعيناها تبحثان عنه، تليها الاثنتان الأخريان، في حيرة. خيبة أملهم ـــ أطلق رجل النار وألحق العار بالرجل ـــ زادت الأمر

سوءًا. جلس ساكنًا على الجذع، يحتضن خديه المحترقين. طقطق غصين تحت حذاء: كان قضاته قادمين.

توقف "روموالد" أمامه. "أين الظبي يا تومي؟"
لا إيماءة، ولا حتى للنظر إلى الأعلى. "أخطأت".
"لكنه كان متجهًا مباشرة إلى مرمى نيرانك. كان بإمكاني أن أسقطه بنفسي، لكنني قلت: 'دع تومي يأخذه".'
إلى "فيكتور"، الذي كان قادمًا على الدرب، قال: "تركه تومي يهرب".

كل كلمة —— نصل بارد —— طعنت. لا مفر. مجبرًا على التراجع، على العودة إلى سجنه، إلى الجسد الذي خانه والذي لم يستطع التخلي عنه، صر أسنانه.

لا كلمة في رحلة العودة. الدرب، وتقاطعاته وتفرعاته السحرية قبل قليل، كان الآن هيكلاً عظميًا كئيبًا. ماذا فعل ليستحق هذا؟ أسوأ من الخزي كان الحقد الذي حمله لنفسه —— أو لله —— لأنه آمن بالوعد.

عندما وصلا إلى الشوكة في المرج، قال توماس إنهم يتوقعونه في المنزل، وذهب في طريقه.
"توماس! البندقية!" صاحوا خلفه.
كانت البردان تُركت مسنودة على شجرة ألدر. دون أن يدير رأسه، أدخل يديه في جيوبه وحاول أن يصفر.

كان توماس على وشك الرابعة عشرة عندما قام باكتشاف: بعد كل خيبة أمل كبيرة تأتي عادة فرحة كبيرة، تجعلنا ننسى كيف كان العالم عندما لم تكن هناك تلك الفرحة.

أزهار النجمة بيضاء بالصقيع. طائر القرقف يطير، والغصن النحيل، المزين بكرات بيضاء دقيقة، يهتز. يقف تحت شجرة كمثرى، مواجهًا نافذة الغرفة التي شغلتها ذات يوم الجدة "ديلبين"، ويستنشق الكمثرى الأسمر، المتجعد على الأرض، رائحة الحديقة الذابلة. انتباهه على المصاريع المغلقة. مبكر جدًا بعد. أم يمكن أن تكون مستيقظة؟ يتسلل إلى المصاريع، ويفك الخطاف بعناية، لكنه في اللحظة الأخيرة يسحب يده.

كان قلقه الأخير هو أنه، في أعماقه، لم يكن جديرًا بها حقًا. كلما جلسا وسلة الفاكهة بينهما، كان يختار عمدًا التفاحة الأكثر كدمات. عند إعداد المائدة، كان يحرص على أن تحصل على أفضل الأطباق ـــ بالكاد كان هناك طبق في المنزل غير مكسور أو متصدع؛ وهو يضع أدوات المائدة، كان يتردد، ويقرر أن شوكته أجمل، ويبدلها على الفور.

هل شعر بالرغبة في إيقاظها؟ بالطبع فعل، لكنه كان يعلم أيضًا أن ذلك كان سيكون أنانيًا منه.

تردد طحن آلة الدرس المتقطع من عبر البركة. دار حول القصر، وصعد إلى الشرفة، متجاوزًا بذور النستورسيوم الموضوعة لتجف، واصطدم بـ"أنتونينا" في طريقه عبر المطبخ. تركت سنوات من التجوال جيئة وذهابًا انخفاضات ضحلة في أرضية الردهة الخشبية. ألقى نظرة خاطفة داخل "غرفة الألبان". ماذا عن وزن حزمة من القطن لقتل الوقت؟ أنزل الميزان من الحائط، وربط زوايا الملاءة الأربع على الخطاف، وحرك الوزن النحاسي ذهابًا وإيابًا. تمكنت الآلة من تشتيت انتباهه، ولكن ليس لفترة طويلة؛ ألقى بها فجأة ووضع أذنه على الباب. غير قادر على كبح الرغبة، ضغط برفق على المزلاج، وهو يجهد، دون السماح بأي صرير، لفتح الباب شقًا لإلقاء نظرة خاطفة إلى الداخل. لكنه صرير، ثم جاء صوت ـــ صوتها: "توماس"!

بعد الصيد الأخير مرض توماس، وبدأ بقشعريرة في طريق العودة. وأسنانه تصطك، جرد ملابسه على عجل وانزلق بين الملاءات الباردة. لجعله يتعرق، أعطته "ميسيا" معرقًا من توت العليق المجفف. لا يمكن تحديد المدة التي كان يرعاها ـــ ربما كان هذيان الصباح الآخر قد أشار إلى حمى قادمة ـــ أو ما إذا كان لا يلبي حاجة ما. مضاعفًا، وذقنه يلامس ركبتيه، أصيب برغبة واحدة: أن يختبئ تحت الأغطية، ليشعر بوزن اللحاف وجلد الغنم فوقه.

كان ذلك قبل عدة أسابيع، على الرغم من أنه بدا أطول بكثير.

جلست والدته أمام المرآة، ورأسها مائل إلى جانب واحد، تضفر شعرها الكستنائي الذي كان ملقى على الوسادة عندما اقترب توماس في الظلام. في وقت سابق لمس خدها بشفتيه وجلس على حافة السرير، على إطاره الجانبي. دبوس ـــ أو شيء آخر تحدى تعريفًا أدق ـــ لمع بشكل غامض على منضدة ليلها. لاحقًا فُتحت المصاريع، وحدق توماس فيها من الخلف: في العينين المرئيتين في المرآة، مائلتين قليلاً، رماديتين، وظلالهما جعلتها خادعة... بفضل الضوء المنعكس فيهما؛ الحاجبان

الكثيفان اللذان كانا ينهاران كلما ضحكت ويتسببان في اختفاء العينين في الشقوق بين الحاجب وعظم الوجنة.

منذ طفولته المبكرة، لم يكن يعرف سوى حادثتين تتعلقان بوالدته، ثم فقط من جهة ثانية. لقد راجعها كثيرًا في ذهنه لدرجة أن بعض التفاصيل اكتسبت قوة الذاكرة، على الرغم من أن التذكر الفعلي كان مستحيلاً، لأنه كان صغيرًا جدًا في ذلك الوقت.

كان "الحمام" امتدادًا مفتوحًا لشاطئ مظلل على طول نهر إيسا، يمكن الوصول إليه عبر ممر ينحدر من الحقول. وضعته والدته بجانب الممر، وكانت بالفعل في الماء عندما رأت كلبًا، ولسانه خارجًا وذيله بين ساقيه (كان داء الكلب شائعًا جدًا في المنطقة)، يركض مباشرة في اتجاههما. قفزت من الماء، وعارية تمامًا، اندفعت صاعدة التل نحو الحديقة. المنشفة التي انتزعتها وهي تركض والتي رفرفت خلفها، والطريقة التي انتقل بها ذعرها إليه، والفم يلهث من أجل الهواء، والقلب يخفق بعنف... هل تخيل هذه الأشياء فقط؟ كان بإمكانه حتى رؤية الكلب —— بني-محمر، بجانبين غائرين —— وسماعه يلهث عند كعبيهما. أم كانت من حلم؟ —— كان يطارده مثل هذه الكوابيس الهاربة. مشلولاً، بالكامل تحت رحمة ركضها، كان خائفًا حتى الموت من أن تخذلها ساقاها، وأن تنهار من الإرهاق. هذه "هي" لم تكن أكثر من علامة، لا تحمل أي تشابه مع المرأة في الصورة أو مع الشخص الحقيقي الذي يمكنه الآن لمسه في أي وقت يشاء.

في محادثاته معها، ظل يعود إلى حادثة الطفولة هذه، وبعد أن كررتها من البداية، كان يسأل:
"ولكن المنشفة. ماذا عن المنشفة؟"
"أي منشفة يا تومي؟"

الحادثة الأخرى لم يثرها أبدًا في وجودها. كان عمره عامًا ونصف في ذلك الوقت ومريضًا بالدفتيريا حتى الموت. كان قريبًا جدًا من الموت لدرجة أن والدته، وفقًا لـ"أنتونينا"، كانت تضرب رأسها بالحائط وتزحف في أرجاء الغرفة على ركبتيها، تنتحب وتتوسل رحمة الله. ويداها مرفوعتان في صلاة، نذرت أنها إذا تعافى ابنها فستقوم بحج سيرًا على الأقدام إلى "فيلنو"، إلى ضريح سيدة "أوسترابراما". جاء الشفاء سريعًا. ولكن عندما أزعج الكبار لاحقًا بشأن نذرها، أصبحوا مراوغين. "حسنًا، كما ترى يا تومي، كانت الأوقات صعبة حينها، كانت هناك حرب..." وهكذا وُلد الإدراك: لا حج. ذُكّر به خلال محادثاتها، التي كانت تُجرى عادة في غرفتها، مع "هيلين" و"ميسيا". ويا لها من

قصص مثيرة كانت ترويها عن مغامراتها في زمن الحرب بالقرب من الجبهة: كيف عبرت الحدود —— في البرية، في الليل، بمفردها مع المهرب الذي أراها الطريق، وكيف كان الظلام دامسًا لدرجة أنها فقدت الدرب، وكيف، مرعوبة من الوقوع في دورية حدودية، اختبأت في الأدغال حتى الفجر —— "حقًا؟ بصراحة يا تيكلا؟" كانت "هيلين" تقاطعها. ولكن بمجرد أن تُترك بمفردها مع "ميسيا"، كانت تبدأ بملاحظة متعالية مثل "حسنًا، حسنًا، هذه تيكلا من أجلك..." مما يعني أنها كانت طائشة، غريبة الأطوار، ولديها مغامرات رائعة ولكن ليس لديها مال أبدًا، وهكذا دواليك. "ميسيا"، من مجثمها بجانب الفرن، كانت تحب تحريضها على المزيد من هذه الشكاوى التافهة، لكن المرأة كانت بليدة جدًا لدرجة أنها لم ترَ أن "ميسيا" كانت تستمتع ببساطة على حسابها. توماس، الذي لم ينسَ قط نذر والدته المكسور، جُرح بعمق بتلميحات عمته. ربما كانت حقًا من النوع الطائش... ثم ظهر، الاستياء، المولود في أعماق النفس، من تركه وحيدًا. في المرة الواحدة التي أمسك فيها بنفسه يفكر في مثل هذه الأفكار، اعترف على الفور بذنبه. لمعاقبة نفسه، اختار أشد أنواع التكفير قسوة —— لثلاثة أيام متتالية أهمل الذهاب إلى غرفتها ليقول صباح الخير —— الأشد قسوة لأنه كان لا بد أن يخلق انطباعًا خاطئًا. في المرة التالية التي يهم بالجلوس والحكم عليها، أغمض عينيه وأجبر نفسه على التفكير في كم كانت جميلة وشجاعة.

تحولت الأوراق إلى اللون الأحمر الداكن، ونهر إيسا يتبخر وسط بقع من الرايات الحلوة الصدئة. من وقت لآخر كانا يربطان حصانًا ويخرجان إلى القرى لزيارة بعض صديقات طفولة والدته. أباريق الجعة على الطاولة، ونفخ الغلايين ذات السيقان الطويلة، والتحميص، والأطفال، وكلاب الصيد، والصناديق الخضراء المزهرة، ورائحة الجبن في الدهليز، واللبن الرائب، والتفاح، والدجاج يرفرف في مجاثمه؛ راحة الكوخ القروي في ذلك الوقت من العام الذي حُرثت فيه الحقول وتراجعت المزرعة إلى ملاذها ذي الأربع زوايا في الفناء؛ عندما ينسكب الطين على الحواف ويصفر في القضبان؛ عندما يُشعل الموقد المبلط والجلوس عند الغسق والتحديق في النار وعدم التفكير في شيء هو أمر جيد؛ ثم يتحول الوردي إلى وردة وتتمنى لو أنه يستطيع أن يستمر والنار تموت ببطء ولم تعد كما كانت ومع الظلام يأتي تراخي الإرادة.

يجب تشذيب فتيل مصباح كروي، أخضر من الخارج وأبيض من الداخل، بشكل خاص لمنعه من ترك شعيرات سوداء على المدخنة. يجلس توماس يقوم بواجباته؛ تضع والدته السترة على إبرتها وتلعق

طرف قلم الرصاص. كرسيها بجانبه، كتف يلامس كتفًا، حلقة من ضوء المصباح، معًا، هنا، بينما يأتي من الخارج صياح البوم في البستان.

ومع ذلك، ما كان بالفعل لا يمكن تجاهله بهذه السهولة. ذات يوم سألته عما يود أن يكون. احمر وجهه وخفض رأسه. "أنا... قد أصبح كاهنًا".
أعطته نظرة استجوابية. "لماذا كاهن، من بين كل الأشياء؟"
"لأن"...
كان يبتلع دموعه؛ لم يستطع منعها. كان عاجزًا عن أن يقول بصراحة: "لأنني أخطأت ظبيًا ويحزنني أنك نسيت نذرك." إلى جانب ذلك، كان ذلك صحيحًا جزئيًا فقط.
"لأنني... سيء".

أعطت حلة الكاهن لمن يرتديها الحق في أن يكون مختلفًا؛ الأشياء المتوقعة من الآخرين لم تكن متوقعة منه. هذا ما كان يقصده.
عبست والدته.
"أنا".
"يا لها من سخافة تامة".
استدار بعيدًا، وهو يضغط على أسنانه، وقال: "لا أريد أن أكون وحيدًا أبدًا".
يفتح الباب مرة واحدة فقط هكذا: الوجه فوق السترة الرمادية ذات الياقة العالية، وجه غريب، مشع، ينادي، ينتظر، يستدعي؛ وهو، ساكن، مرتبك، يطلق فجأة صرخة، يقفز، والذراعان تطوقان ـــ إنها هي. ليس مرة أخرى.

النوم يجلب السلام. تضعه في السرير وقبلتها ترافقه بهدوء إلى أدغال الليل. تتلاشى خطواتها وهو، يدفن أنفه في وسادته، يفكر فيما قد يعطيها كهدية. كتاب الطيور؟ لا، كان ذلك شيئًا من ترتيب مختلف.
"لكنني أحبها، أليس كذلك؟"

كانت عشية عيد القديس أندرو، وعندما سُكب الشمع، كان نذير والدته إكليلاً ـــ زهورًا أو أشواكًا، لا يمكن الجزم ـــ ونذيره ورقة، مكبرة بالظل، تلوح كقارة أفريقية بصليب فوقها. ثم الثلوج، عندما جاء الناس ينفثون سحبًا من البخار، ويدوسون أقدامهم ليتخلصوا من الأشياء الزجاجية، بينما كان

تيار نهر إيسا الصاخب المتحرك يتحول إلى جليد. عيد الميلاد في ذلك العام احتُفل به بالطريقة التقليدية، باستثناء أن الطبق الفارغ الذي أملته العادات أن يُوضع للغريب في عشية عيد الميلاد كان مخصصًا حقًا لغريب، وليس، كما في السنوات الماضية، على أمل سري في أن تظهر والدته. الآن كانت هي وليست "أنتونينا" التي، بمساعدة توماس، اهتمت باحتفالات العيد. كانت هي التي طبخت البورش مع فطائر الفطر؛ هي التي صنعت "سليزي" ـــ صفائح من العجين ملفوفة على شكل أسطوانة ومخبوزة حتى تصبح صلبة كالحجر. قُدم "سليزي" مع شراب ـــ إبريق منه كان يقف على الطاولة ـــ كانت مكوناته الماء والعسل وبذور الخشخاش المطحونة. الأطباق التي قُدمت بين البورش والحلوى لم تكن شيئًا مقارنة بحلوى التوت البري المفضلة لدى توماس، والتي أكل منها ملء وعاء؛ وعندما لحقه الإفراط في الأكل أخيرًا، شكل القش المحشو تحت مفرش المائدة الكتاني تخليدًا لذكرى مذود المسيح الطفل فراشًا صغيرًا مريحًا لمرفقه. لاحقًا، تحت شجرة عيد الميلاد، انضم هو ووالدته إلى الآخرين في الترانيم ـــ حتى أنها علمته القليل مما لم يسمعه من قبل. وبفانوس الإسطبل مضاء، كانا ينطلقان إلى قداس منتصف الليل، ويخوضان المسافة كلها عبر الثلج البودرة.

والدة توماس، لكونها امرأة عملية التفكير، قررت قضاء الشتاء في "غينه". كان عبور الحدود في عز الشتاء شاقًا بما فيه الكفاية، ولكن كانت هناك أسباب أخرى لتأجيله. والد توماس، الذي كان يمر بفترات صعود وهبوط، معظمها هبوط ـــ خطأ حياته المتجولة، المتنقلة ـــ كان يعيش الآن من اليد إلى الفم ككاتب بلدي. بما أن "هيلين" قد مُنحت بالفعل نصيبها في الأرض، فإن "تيكلا" كانت تستحق شيئًا أيضًا. ولكن جمع محصول نقدي كان يعني انتظار موسم الدرس وانتظار ارتفاع سعر السوق. ثم خطرت لوالدته فكرة، فكرة أثارت صرخة عالية "أنت مجنونة!" من عمته: لماذا لا تهرب زوجًا من المهور عبر الحدود ـــ السلالة الليتوانية القصيرة، السمينة كانت مطلوبة جدًا في الخارج ـــ وتقدمهما هدية لزوجها. ولكن كيف، إذا كانت بالكاد قد عبرت بنفسها، ستتمكن من ذلك مع الخيول؟ هراء، كان لا بد أن ينجح.

الحدود ـــ مفتوحة فقط للمهربين والذئاب والثعالب لسبب أن البولنديين اعتبروا مدينة "فيلنو" ملكهم، بينما ادعى الليتوانيون أنها عاصمتهم التاريخية التي استولى عليها البولنديون بشكل غير قانوني ـــ كانت مصدر إزعاج للكثيرين. اختارت والدته زوجًا من الخيول، عمرها أربع سنوات،

كلاهما كستنائي بشريط داكن على الظهر. كانت تعتمد عليهما في رحلة العودة، وعلى الحظ، وإذا قُبض عليهما، على تساهل حرس الحدود (طالما لم يكن هناك ضباط).

عتبات النوافذ مغطاة بالثلج الأبيض، صمت باستثناء الزقزقة الثابتة لطيور الحسون وهي تقشر بذور الليلك. أثار احتمال رحلة إلى الخارج في توماس اهتمامًا بالجغرافيا. أطلس ألماني، نُشر عام ١٨٥٢، كان بمثابة كتابه المدرسي. لأنه كان قديمًا جدًا، اضطرت والدته إلى رسم حدود بعض الدول بالقلم الرصاص، وكثير منها يحمل الآن أسماء مختلفة. على الرغم من أن الأطلس لم يظهر لا "غينه" ولا أيًا من المناطق المحيطة بها، وهو أمر يمكن مسامحته بسهولة، إلا أن توماس أصبح مفتونًا بالخرائط ـــ بالطريقة التي ينزل بها الإصبع، وتحته تولد الغابات وقطع الأراضي والطرق والقرى وجموع غفيرة من الناس في حركة، كل منهم متميز، كل منهم يمكن تمييزه بطريقة ما عن الآخر؛ ولكن كيف، في اللحظة التي يُرفع فيها ـــ بوف! وكما كان يتوق إلى الطيران، إلى منظور أعلى على أولئك الراكعين في الكنيسة، كذلك الآن كان يتوق إلى عدسة مكبرة سحرية قوية بما يكفي لإظهار كل ما هو مخفي تحت سطح الورق. كلما كرسنا أنفسنا لذلك العالم من الخطوط والمناطق والخطوط، زاد افتتاننا. الافتتان كبير كما هو الحال عندما يحاول العقل تخيل ما يكمن بين رقمين. الآن، إذا أمكن رسم خريطة لتشمل كل منزل وإنسان، ثابت... أو متحرك، فإنها ستظل تترك كل الخيول والأبقار والقطط وأنواع النباتات والأسماك في نهر إيسا ـــ ناهيك عن البراغيث على الكلاب، والخنافس اللامعة في العشب، والنمل والعديد من الأشياء الأخرى. كان ذلك يعني أن الخريطة كانت دائمًا تقريبية. اكتشاف آخر اكتسبه من خلال استكشافاته الخرائطية: جالسًا هنا في الكرسي أنا واحد، ولكن هناك تحت الإصبع الذي يُمسك على البقعة الفارغة التي كان ينبغي أن تكون "غينه" هو آخر. أنا أشير إلى نفسي، إلى نفسي المتقلصة. الأنا الثانية ليست هي نفسها الأنا هنا؛ هناك، هي مجرد واحدة بين كثيرين.

كانت الأيام تطول. عاد الجد من إحدى "رحلات عمله"، مبتهجًا بالنجاح: قيل له إن تقسيم الممتلكات سيُعتمد. في النهاية، تحدث المال بصوت أعلى من اتهامات "جوزيف". كان آل يوتشنيفيتز سينتقلون بعد عيد القديس جاورجيوس؛ كما كان يُخشى، كانت ممتلكاتهم ستقسم.

كان أحد الشعانين باردًا وثلجيًا ـــ تأخر الربيع في ذلك العام ـــ بدون سعفة واحدة في الأفق. كانت زهور الغراب الزرقاء تدفع نفسها بالفعل عبر تعفن حطام العام الماضي عندما أدرك توماس أن هذا

سيكون آخر ربيع له في "غينه". أخذ وقته في استكشاف الحديقة، ووجد أخيرًا المكان المناسب ــــ فسحة مستطيلة على منحدر ــــ وحفر شجرة كستناء صغيرة، وحملها، وزرعها. إذا عاد يومًا ما إلى "غينه"، فسيركض أولاً، ويحدد مكان الفسحة، ويقيس نمو الشجرة.

كان نهر إيسا لا يزال متجمدًا، وسطحه مرآة تعكس ضفاف السحب، لكن الشاطئ كان يتخلى بالفعل عن أولى أوراق على شكل بوق من اللون الأخضر الشاحب. ذات يوم، على الدرب المحاط بالأحراش المطل على النهر، التقى بـ"أونوتي"، رفيقة ألعاب طفولته. كان قد رآها عدة مرات في الماضي، ولكن ليس أبدًا على هذه المسافة القريبة وليس أبدًا هكذا. وهي تتوقف في مسارها، حدقت فيه باستفهام، بل بحيرة. لقد كبرت. وهو يخفض رأسه، وحرقة في خديه وخلف طوقه، مر بها بنظرة صارمة، قاسية.

الصرامة كانت قناعًا، لكن "أونوتي" كان بإمكانها بسهولة أن تخطئها بغطرسة سيد نبيل، وهو ما كاد أن يكونه. كل هذا حدث لتوماس بعد ذلك بكثير، بعد فترة طويلة من زوال الخطر، وقد لمسه بالحزن.

بعد ستة أشهر من الزفاف، وُلد ابن لـ"روموالد" و"بارباركا". كانت حقول الذوبان منتفخة بالفعل بتلال سوداء عارية عندما أجبرهم صقيع أوائل أبريل على أخذ الزلاجة إلى الكنيسة. عُمّد الطفل "فيتولد."

كانت السماء غائمة، والغراب ينعق في الصفصاف، وسوط "روموالد" ذو الشرابة الحمراء يلامس بكسل ظهر الحصان. طوت "باربارκا" زوايا الشال المنقوش: كان الطفل نائمًا. كانا يسافران، بطبيعة الحال، في غفلة تامة عن ذلك الوقت المحدد ليس فقط بعودة الربيع والشتاء، وموج حقول الحبوب الناضجة، وهجرات الطيور. لم تكن الأرض تحت زلاجتهما المطلية باللون الأخضر بركانية، ولم تنفث نارًا، ولم يكن هناك أي سبب للتفكير في تلك الفيضانات والحرائق التي صُنعت بها تاريخ البشرية.

لم يكونا قد وصلا إلى الشرفة عندما بدأ "فيتولد" في البكاء. وضعته "باربارκا" في المهد، وبيد واحدة على الهزاز، ثبتت نظرتها على الطاولة المعدة بالفعل للاستقبال. السعادة هي أن تكون سيدة منزلها. الآن، عندما فتحت أبواب الخزانة، امتلأت بحلاوة تساوي حلاوة الخبز الطازج اللاذع في الداخل.

خبزي. زوجي. ابني. ودعونا نلاحظ أيضًا، أرضيتي ــــ التي كانت ألواحها تصر في... تناغم مع صرير الأحذية ذات الأربطة. ومن هنا وجه المرأة المشرق عندما بدأ الضيوف في الوصول، بينما قال "روموالد"، وهو يفرك يديه: "حسنًا يا بارباركا، حان وقت التقديم، أحضري الوليمة"!

ألقت السيدة "بوكوفسكي" العجوز نظرة واحدة على حفيدها وأعلنت أنه يشبه ابنها. كانت هذه طريقتها في مواساة نفسها ــــ طريقة أخرى كانت إفراغ كأس تلو الآخر. تكاثفت الليلة؛ هبت رياح ذوبان الجليد في الأغصان. شخص منجذب هناك بالضوء كان سينظر إلى أناس يضحكون، ويتكئون على الكراسي، وفي المنتصف، على كلاب ــــ مسموح لها بالدخول إلى المنزل بسبب برد الشتاء ــــ تحك جلودها. الكلب الذي يحك رقبته بقدمه الخلفية، يضرب الأرض ــــ لكن الصوت مكتوم بالنافذة.

ذئب على مشارف الغابة يرفع رأسه في اتجاه النافذة المضاءة جيدًا ويهتم بمسكن البشر الغامض، تلك المخلوقات المنفصلة إلى الأبد عما دُرب الذئب على فهمه. قد يُغرى آخرون أكثر مكرًا منه بالمربع المضيء أيضًا. ولكن الويل إذا كان هناك أي شياطين ترتدي معاطف فراك بينهم؛ اهتمامهم بما يجري داخل مساكن البشر لن يمر دون عقاب. بإيلاء أهمية كبيرة لمثل هذه التافهات، لن ينجوا أبدًا من عصر يتطلب حسًا بالتناسب. قريبًا لن يشهد أحد على طول نهر إيسا على رؤية أحدهم يتأرجح بساقيه من عارضة طاحونة، على سماعهم يرقصون رقصاتهم. وحتى لو نشر أحدهم مثل هذه الحكايات، فلا داعي لأن يوافق عليها أحد.

جاءت رياح الذوبان من الغرب، من البحر. هناك كانت السفن، تتمايل وتطلق أبواقها وهي تبحر في المياه بين شواطئ السويد وفنلندا، بين مدينة "ريغا" الهانزية و"دانتزيغ" الهانزية. ولكن هنا كانت "بارباركا"، تغير حفاضات ابنها، وتمسكه من كاحليه وتميل بخفة تلك المؤخرة الصغيرة التي كانت تثير فيها دائمًا مثل هذه الحنان. مثل هذه المشاعر، مثل تلك التي كانت لديها عندما قدمت لابنها ثديها الأزرق... ذي العروق، لم تكن لتُنقل خارج نطاق التجربة المناسبة لها. نحن محكومون بأن نعيش على حدود الإنسان والحيوان، وهذا جيد.

في ذلك الوقت تقريبًا استأجر "روموالد" عامل مزرعة جديدًا: "دومينيك مالينوفسكي". مهما كان ما دفعه لمغادرة موطنه "غينه"، لا بد أن السبب كان خطيرًا.

كانا في الحظيرة، يدرسان —— "دومينيك" والمزارع الذي كان في خدمته في ذلك الشتاء. ربما كان من الممكن تجنب القتال، على الرغم من أنه كان يتصاعد منذ الصباح. كان "دومينيك" سيدًا في ضبط النفس. كان فمه دائمًا مطبقًا، مشدودًا بإمساك أشياء كان يود قولها ولكنه لم يستطع أبدًا. كلما اقترب من سن الرجولة، زاد شبهه بطائر جارح هزيل. مرات عديدة كان على وشك أن يأخذ هذا الرجل المتنمر من حلقه، عالمًا في نفس الوقت بخطر الاستسلام لنبضاته. "وام!" تردد صدى مدراس الرجل العجوز. "واك!" أجاب "دومينيك"، وهكذا استمر، على شكل دويتو، مع درس ذلك الظهيرة. لم يتوقفا إلا مرة واحدة، عندما أخرج الرجل العجوز مزاجه السيئ على شخص ما في المنزل. هكذا بدأ الأمر.

ذلك الشخص كان خادمة، في نفس عمر "دومينيك"، الذي اعتقد "دومينيك" أنها غبية لأنها سمحت لنفسها بأن تُستأسد بهذه السهولة. أنه كان معجبًا بها أمر خارج عن الموضوع؛ الحقيقة هي أنه دافع عنها. كبرياء الرجل العجوز العنيد، المتصلب، ذاق حينها طعم عضلة "دومينيك". أمسكه من حلقه، وشعر بتفاحة آدم تحت أصابعه، وقذفه إلى... الأرض، حيث كان يرقد، يئن. كان "دومينيك" قد تجاوز البوابة بالفعل عندما سمع الصرخة.

لحظة انتصار. "لن تأمرني".
لم يكن قد عاد بعد إلى كوخه بجوار العبّارة عندما بدأ يفكر في كل العواقب المحتملة. وكانت هناك عواقب. تمكن رئيسه السابق من تحريض المزارعين الآخرين، بمن فيهم الأغنى، ضده؛ تكاتفوا ولفترة طويلة لم يجد "دومينيك" عملاً. حتى "بوركوني"، بالطبع.

في هذه الأثناء، بقي في المنزل، ينحت الملاعق، ويعجن الأحواض، والقباقيب —— ما يكفي لجلب بضعة بنسات كل يوم. كانت والدته تجلس غالبًا على المقعد المقابل وتتابع حركات يديه الرشيقة. "أرض"، كانت تقول، وكان ابنها يرفع عينيه إلى ذلك الوجه المحفور بالتجاعيد، إلى ذلك الفم المحبوس في حديد الطيات المحفورة بعمق. كان الأمر نفسه كل يوم: التماسها للحصول على أرض بموجب الإصلاح. "ولكن جوزيف قال..." و: "إنهم يقسمونها في كل مكان..." كان "دومينيك" يخفض رأسه في صمت ويغرز سكينه في خشب الزيزفون بكثافة أكبر من المعتاد. غارقًا في التفكير، أعاد السكين نحوه ببطء، حافرًا أخدودًا طويلاً بالنصل.

أجلا المغادرة حتى يونيو. والدة توماس جهزت العربة بمظلة ـــ إطار من خشب البندق، مغطى بمشمع ـــ تشبه تلك الموجودة لدى الغجر. مع مائة كيلومتر لقطعها قبل الوصول إلى الحدود، وأربعين أخرى على الجانب الآخر، ستكون مأوى من المطر والليل على حد سواء. كما أعدت مؤنًا جيدة: جبن مجفف بالكمون، ونقانق، ولحوم خنزير مدخنة سوداء، وهي من مفضلات والد توماس.

في اليوم السابق، أدخله الجد إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه، وجلس، وبدأ يتمتم ويتهته. تحدث عن فساد أهل المدن، وكيف يجب على المرء تجنب الوقوع في صحبة سيئة... ولكن عندما سُئل كيف يمكن للمرء التمييز بين الصحبة الجيدة والسيئة، توقف بنفخة أنفية "بفف! بفف!" ـــ كما لو كان خجلاً جدًا من الإجابة: "حسنًا، كما تعلم، فودكا، ورق..." ـــ وسحبه إليه، وشعر توماس بوخزة قوية وهو يقبل خديه الخشنين، ثم، فجأة، حرره جده وبدأ يتلمس جيوبه بحثًا عن منديل.

في الإفطار في صباح اليوم التالي، أحرق شفتيه وهو يرشف الشاي وترك المائدة دون أن ينهيها. رأى مشمع العربة الأبيض مؤطرًا في النافذة، وسمع محادثات اللحظة الأخيرة، وهرع إلى الخارج، عبر الشرفة وأسفل المرج المنحدر، بعد صف الفاونيا المتفتحة. من خلال فجوة في أشجار الحديقة، كانت حافة الوادي تقع في ضباب، ويوم مشمس كان يشرق ورديًا وصافيًا فوق الندى، والطيور تغني. أراد أن يحتفظ بها في ذاكرته. "ستنسانا، أوي، ستنسانا"، قالت "أنتونينا" عندما تجمعوا جميعًا على درجات الشرفة وأمسكت بوجهه بين يديها، بحزن. كانت رائحة خد "ميسيا" تشبه رائحة المنفحة الرطبة. كان "لوك" هو نفسه المعتاد، يضغط، ويتملق، ويعانق عناق الدب. ثم جاءت البركات، وعلامات الصليب المرسومة في الهواء. "حسنًا يا توماس"، قالت والدته بجدية. أمسك توماس باللجام الجلدي المقوى. الآن، في كل هذه الفراق، تأتي لحظة يجب على شخص ما أن يقوم بالانفصال ـــ وكلما كان أكثر فجائية، كان أفضل. قرقع توماس السوط، وقرقعت العجلات، وارتفعت الصرخات؛ وهو ينظر إلى الخلف فوق غطاء العربة القماشي، رأوا، في الفتحة المتقلصة لنفق الممر الأخضر، رفرفة مناديل وأيدٍ في الهواء.

واللجام مشدود، شقوا طريقهم ببطء على الطريق الموحل، وسرعان ما لمع مسيح كئيب بين أوراق الشجر الكثيفة. في الأعلى تلوح جدار صومعة الغلال الأبيض الخارجي. ترك توماس الخيول تنطلق في خبب، ودون تغيير في الخطى، مروا بأشجار البلوط في المقبرة، التي يرقد تحتها "مجدلينا"، والجدة، و"بالتازار"، متروكين إلى الأبد. اختفت "غينه" عند المنعطف التالي؛ أمامهم، المجهول.

لاحقًا، عندما بدأت الخيول في الشد من أجل الصعود، لمع نهر إيسا، متعرجًا داخل وخارج المروج، للمرة الأخيرة. ماء نهر المرء الأصلي حلو في الذاكرة. تموجت العضلات تحت جلد الحصان، وأخذا المنحدر، ولكن على السهول بدأ الأمر مرة أخرى، والضرب بالعصا والتملق: "هيه، بيرنيك، ستحصل عليه"!

الخيول، المقدر لها منزل جديد في الخارج، بعيدًا عن أراضيها الأصلية، سُميت "سميلغا" و"بيرنيك" تخليدًا لذكرى أصحابها السابقين. كان لـ"سميلغا" سمعة بأنها أمينة، مجدة ـــ حصان يسحب بكل ما أوتي من قوة ولم يسمن أبدًا. كان "بيرنيك" العكس تمامًا: محصن ضد السوط، مستدير كالخيار، متظاهر ومتخاذل. ولكن عندما يتعلق الأمر بالتسلق، كان "بيرنيك" يهاجمه بغضب: كان التل عقبة، إهانة لطبيعته الكسولة، وكان لا بد من التغلب عليها بسرعة.

كانت والدته ترتدي منديلاً مزهرًا، وشكل مقعد القش نفسه حسب الجلوس، وما كادا يخرجان على الطريق حتى بدأ دلو شرب الخيول، على الرغم من أنه مؤمن جيدًا، في القرقعة وحدث خطأ ما في عارضة الجر. عبرا مروج الغابات، والذيول تضرب الذباب، وتوجها إلى بلد البحيرات الكبيرة، وسلكا نفس الطريق الذي سلكته "مجدلينا" في النعش. وجبة بعد الظهر في ظل شجرة بلوط، ومفرش مائدة نظيف ممدود على العشب. قبل حلول الظلام بقليل، نظرا من ارتفاع شاهق على تضاريس جديدة، حيث بقدر ما يمكن للمرء أن يرى كان هناك ماء أكثر من الأرض، حيث تلاصقت البحيرة بالبحيرة، وضبابية أشباه الجزر مع المضايق، ورأت العين أرخبيلاً أخضر. ثم كان النزول، عبر سفوح التلال وبين الصخور، بعضها طويل ومنتصب لدرجة أنها تشبه حيوانات متحجرة. كان صانعو القش يعملون بالفعل في المروج ـــ صفًا تلو الآخر من شخصيات بشرية صغيرة، يتأرجحون في انسجام على إيقاع مشترك. مبيت ليلي في قرية صيد؛ صمت، قوارب تفوح منها رائحة القطران، وقرقعة الشوفان في أكياس العلف.

لقد حان الوقت يا توماس، لأتمنى لك التوفيق. لا يمكن تخمين مستقبلك إلا لأنه لا أحد يستطيع التنبؤ بكيفية تشكيلك من قبل العالم الذي ينتظرك. شياطين على طول نهر إيسا شكلوك بأفضل ما لديهم؛ والباقي لا يخصهم. ولكن راقب "بيرنيك". إنه يغفو مرة أخرى، يتخاذل، غير عالم بأنه بفضلك سيصبح اسمه يومًا ما جديرًا بالذكر. ترفع سوطك ـــ وهنا تنتهي حكايتنا.

تمت.